الموسوعة العربية للعلوم التنموية
(١)
مكتبة البداوة
(الكتاب الأول)

علم الاجتماع البدوى

التأصيل النظرى

الدكتور
صلاح مصطفى الفوال
أستاذ علم الاجتماع التنموى
رئيس مركز البحوث والدراسات التنموية - القاهرة

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الـكـتـاب : علم الاجتماع البدوى

المؤلـف : د. صلاح مصطفى الفوال

رقم الإيداع : ٤٠٤٦

تاريخ النشر : ٢٠٠٢

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 652 - 0

الـنـاشـر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

الـتـوزيـع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

الإهـــداء

إلى روح صهرى ...

المرحوم الحاج محمود رزق النفيلى

زوج شقيقتى .. أخى الذى لم تلده أمى ..

وقد مضت ثلاث سنوات على رحيله فى ١٩٩٧/٩/١٧.

وأذكر له - رحمه الله - أنه كان عبدا صالحا من عباد الرحمن .

لذلك كان فى حياته الدنيا .. صافى السريرة .. لين الطبع .. بارا بأهله .. كريما فى بيته .. بشوشا ودودا .. باسما لكل الناس .. يؤمن بأن الحلم سيد الأخلاق .

إلى روحه الطاهرة .. أهدى هذا الكتاب ..

وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يتقبله قبولا حسنا .. وأن يجعله .. برحمته سبحانه .. فى زمرة الصالحين من عباده .. حتى يكون فى معيته سبحانه وتعالى .. يوم لا ظل إلا ظله .

والله ربه وربى ورب كل الناس .. أدعو .. اللهم أدخله فى رحمتك .. وارزقه من فضلك القبول الحسن ليكون مع الزمرة المباركة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وحسن أولئك رفيقا .. اللهم آمين .

د . صلاح الفوال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة سنة ٢٠٠١

برزت عدة مشكلات، على المستوى المجتمعى، المحلى منه والإقليمى والقارى .. بل والعالمى، وذلك فى النصف الأخير من القرن الماضى ـ وربما قبل ذلك بكثير ـ نقول قد برزت عدة مشكلات عوّقت كل جهد مبذول لفك طوق التخلف، ذلك الآسر أو المُسلَط على مقدرات كثير من الدول الأفريقية ـ كمثال ـ ومن أبرز هذه المشكلات التصحر والجفاف والجوع وانتشار الأوبئة والجهل .. إلى آخر تلك المشكلات التى تنخر كالسوس فى بنية المجتمعات عموما، والمجتمعات البدوية الصحراوية منها بشكل خاص، حتى تزيدها فقرا وتخلفا، فوق ماهى فيه من فقر وتخلف !!

ولكن خلال الربع المنتهى من القرن الماضى «العشرين» اتخذت هذه المشكلات بعدا خطيرا يكاد أن يأكل الأخضر واليابس كما يقولون، ونعنى بذلك البعد .. الصراع المسلح، سواء كان هذا الصراع صراعا داخليا بين «المجتمع بعضه وبعض»، أم كان صراعا خارجيا أو أمميا، «بين المجتمع وغيره» من المجتمعات الأخرى المجاورة له.

والدليل على ذلك، ماهو حادث ويحدث من صراعات قبائلية مسلحة، سواء كان هذا الصراع المسلح على المستوى الداخلى «المحلى»، أم كان ذلك الصراع على المستوى الإقليمى «القطاعى» داخل المجتمع الأم، وقد يكون الصراع المسلح على المستوى الخارجى «الأممى»، أو قد يكون ذلك الصراع المسلح على المستوى «القارى» أو «العالمى» .

ومن الأمثلة المعاصرة لتلك الصراعات، الصراع القبلى الناشئ فى جزر «فيجى» وهى إحدى جزر المحيط الهادى، كما أنها واحدة من دول «الكومنولث» البريطانى، وقد تأجج هذا الصراع العرقى القبائلى محليا وأمميا وعالميا مع نهايات شهر مايو عام ٢٠٠٠م، بوقوع انقلاب عسكرى ضد رغبة رؤساء القبائل فى أن يحكمهم واحد منهم ليست له أية أصول عرقية هندية .

ومازالت الأزمة قائمة حتى كتابة هذه السطور، على الرغم من أنه قد لاح فى الأفق حل يرضى جميع الأطراف فى منتصف شهر يوليو من العام نفسه « ٢٠٠٠ » إلا إن ذلك الحل سرعان ما تبدد لعدم رضاء أو اقتناع مجلس رؤساء القبائل فى «فيجى» عنه .

وعلى نفس الدرب القبائلى الذى انتهجته قبائل «فيجى» نهجت عشائر جزر «سالومو» أو «سالامون» المجاورة والتى لها نفس الظروف القبائلية البدوية ونفس الدوافع العرقية والعصبية التى صنعت الصراع فى «فيجى» .

ومن الأمثلة الحديثة كذلك لتلك الصراعات القبائلية الداخلية المحلية أو الإقليمية أو القطاعية، ما يجرى أو يحدث الآن من صراعات قبائلية أو عرقية فى جنوب السودان وتشاد والصومال والكونغو الديمقراطية، وغيرها من بلاد الغرب والشمال والوسط والشرق والجنوب الأفريقى، و خاصة منه ما يحدث الآن فى دول القرن الأفريقى .

ومن صور الصراعات الأممية المعاصرة أيضا ذلك الصراع القائم بين كل من أثيوبيا وأريتريا، أو بين السودان وأثيوبيا وأريتريا وأوغندا، بسبب ادعاء كل منها على الأخرى بأنها تأوى أو تحتضن المعارضين لها والقائمين بالصراع القبلى المسلح ضدها، فضلا عما بين تلك الدول من نزاعات الحدود الإقليمية، وغير ذلك من تداعيات الصراع القبلى المسلح ونتائجه.

ولقد شمل ذلك الصراع القبلى المسلح سواء ما كان منه على المستوى المحلى أم الإقليمى أم الأممى، شمل عدة مناطق فى وسط أفريقيا بالكامل، حيث استشرى

ذلك الصراع بنوعيه، واحتوى دولا بكاملها، مثل الصومال، أوغندا، رواندا، زائير، الكونغو كنشاسا، الكونغو الديمقراطى، زمبابوى، وناميبيا، فضلا عن الصراعات على السلطة داخل كثير من الدول الأفريقية والتى ترتكز فيها السلطة على أساس قبلى أو عرقى كذلك . وليس خافيا أن أبطال الصراع القبلى المسلح فى منطقة وسط أفريقيا، هما قبيلتا «الهوتو» و «التوتسى»، وتوضح التقارير الصادرة عن الأمم المتحدة، أن المتمردين أو المتشددين من المنتمين إلى قبيلة «الهوتو» قد قتلوا فى عام ١٩٩٤م وحده، حوالى ٨٠٠ ألف شخص من أبناء قبيلة «التوتسى»، ولم ينج من القتل عدد كبير من المواطنين المنتمين ليس فقط لقبائل «التوتسى»، أو من يؤيدهم من القبائل الأفريقية الأخرى، وإنما امتد القتل ليشمل أعدادا غير قليلة من مواطنى الدول الأجنبية الأخرى الذين تواجدوا لسبب أو لآخر فى منطقة الصراع القبلى المسلح، ومن بينهم مواطنو أمريكا وبريطانيا، ومن خدمه الحظ منهم فقد تم أسره فقط ليكون رهينة يساومون عليها وقت اللزوم .

وكان من آثار هذه «المجزرة» التى ارتكبها «الهوتو» ضد «التوتسى» واستغرقت أقل من «مائة» يوم، كان من أبرز آثارها أن فر أو هرب حوالى مليون لاجئ من «رواندا» إلى البلاد المجاورة وخاصة «زائير» التى لجأ إليها وحدها حوالى ثلاثة أرباع المليون أو يزيد من «الهوتو» ومن «التوتسى» على حد سواء، ويمثل هؤلاء اللاجئون المعتدِى والمُعتَدَى عليه . المعتدى فر أو هاجر خوفا من الثأر أو الانتقام، والمُعتَدَى عليه فر هو الآخر هربا، حتى لا يلحق به المزيد من الاعتداءات الشرسة أو الوحشية «للهوتو»(*).

ولم يشمل ذلك الهلع أو الرعب، القرويين المسالمين الآمنين، والذين ليس لهم «ناقة ولا جمل» فى ذلك الصراع الدامى وحدهم، وإنما شمل أو ضم ذلك الرعب أو الهلع معهم المعتدلين من أفراد قبيلة «الهوتو» بعد أن قتل المتشددون الكثير منهم أو شردوهم .. إما فرارا من قتل أو هربا من ثأر .

(*) قبائل «الهوتو» رغم أنهم يمثلون الأقلية العددية بالنسبة لعشائر «التوتسى» إلا أن معظم الحكام والقياديين منهم، فضلا عن أنهم الأكثر مالا، والأقوى نفوذا، علاوة على أنهم، أى «الهوتو»، الأشرس قتالا، والأصلب عودا.

وبعيدا عن الضالعين مباشرة فى صراع «الهوتو» و «التوتسى» فقد قدَّر الخبراء أعداد المشاركين فى هذا الصراع، بشكل مباشر أو غير مباشر، قُدرت أعداد أولئك الضالعين فى ذلك الصراع القبلى الدامى الدائر أو المحتدم بين المتشددين من «الهوتو» مع المسالمين من أبناء عشيرتهم، والمغلوبين على أمرهم من «التوتسى»، قدَّروهم بأكثر من ثلث سكان القارة الأفريقية بكاملها .. وهم بالتحديد سكان كل من رواندا، أوغندا، زائير، الكونغو كنشاسا، الكونغو الديمقراطية، زمبابوى، وناميبيا .

كل ذلك فضلا عن الصراع القبلى المحتدم عند القرن الأفريقى، بما يضمه ذلك القرن من دول تعيش فى مناطق تمتد من منابع النيل إلى شمال وجنوب أفريقيا، ومن القرن الأفريقى شرقا إلى أقصى الغرب الأفريقى أيضا، وبما يضمه القرن الأفريقى من دول «مطحونة» (*) مثل الصومال وأريتريا وأثيوبيا، فضلا عن جنوب السودان ونيجيريا وساحل العاج «كوت دى فوار»، باعتبار أن كل هذه البلاد تمثل مسارح الصراع القبلى المسلح فى القارة الأفريقية .

ومما يعمق مأساة هذا الصراع القبلى أنه يكاد يشل وجه الحياة فى دول كثيرة يُعتبر معظمها، إن لم يكن كلها من أهم المناطق وأكثرها استعدادًا لإنتاج الغذاء، ولقد كان الخبراء يعتبرون مواقع أو مواطن الصراع البدوى أو القبلى المسلح فى أفريقيا، كانوا يعتبرونها وبحق أساسًا للتنمية أو ركيزة لسلة عظيمة من الغذاء تكفى لإطعام كل سكان أفريقيا لو أحسن إعدادها واستثمارها، لكنها قد صارت الآن وبغير تجاوز، سلة للفقر والجوع والأوبئة فضلا عن الجهل .

والمؤسف حقا فى الأمر - وبصرف النظر عن الدوافع القبائلية، أو العصبية التى حركت ذلك الصراع أو الاقتتال الوحشى، - أن هذا الصراع العشائرى الدموى، قد عطل إمكانات منطقة شاسعة تضم أو تشمل فيما شملت دول وسط أفريقيا بكاملها، وتأثر نتيجة لذلك الصراع القبلى الدموى أكثر من ثلث سكان القارة

(*) بسبب تكالب كل عوامل التخلف وأسبابه عليها، ومنها: «القحط والجفاف والتصحُّر والجهل والمرض والفقر المادى والإدارى والتنظيمى والانفتاح والعولمة» ... إلخ.

الأفريقية. مع العلم - كما سبق أن ذكرنا - بأن هذه المنطقة تمتاز بتربتها الخصبة ومواردها المائية الهائلة «النيل وغيره من منابع الماء الأخرى» فضلا عن الأيدى العاملة الرخيصة، وللدرجة التى يمكن لتلك الدول معها، إذا توافر حسن الاستثمار، أن تكون بحق «سلة الغذاء» المأمولة والمضمونة لا لأفريقيا وحدها وإنما لعدد من قارات العالم الأخرى .

ولو أضفنا إلى ما سلف، الإمكانات الحيوانية الأخرى المهدرة أو المهملة فى السودان والصومال وأريتريا ونيجريا وغيرها من دول القارة الأفريقية، لتبين لنا بوضوح مدى الخسارة المحلية والإقليمية بل والعالمية التى سببتها تلك الصراعات القبلية الهوجاء علاوة على التأثيرات السلبية التى أضرت بالمسيرة التنموية لتلك المجتمعات بؤرة أو محل أو ضحية ذلك الصراع القبلى .

وعلى كل نحن فى هذا المجال أردنا فقط إبراز طبيعة الصراعات القبلية أو العرقية والدور السلبى الذى تلعبه تلك الصراعات، فى تعميق انتكاسة دول وشعوب عانت طويلا من عبء الاستعمار، وكان فى مقدورها أو كان الأحرى بها أن تدخر كل طاقاتها أو ما بقى على الأقل منها، لمواجهة متطلبات الألفية الثالثة والتى بدأت مع حلول القرن الواحد والعشرين، والذى لن يقدر على متطلبات العيش فيه إلا من كانت له أو لديه إمكانات مادية لا تفنى فضلا عن مقومات تكنولوچية متطورة وقادرة بغير كلل أو ملل على مواكبة أو مواجهة ظروف القرن الواحد والعشرين .

ومن هنا تتضح الأهمية الكبرى لعلم «الاجتماع البدوى» ولدوره فى التعرف على مختلف الحقائق التى تدور حولها النظرية الحديثة لتطور المجتمعات الإنسانية والتى كانت موضوع «الدكتوراه» التى أعددناها فى منتصف سبعينيات القرن الماضى، والتى انتهينا خلالها إلى أن المجتمعات البشرية فى سعيها نحو التطور إنما ارتكزت وترتكز على ثلاثية .. قاعدتها .. المجتمعات البدوية،وضلعاها المجتمعات الريفية ثم المجتمعات الحضرية أو «المدنية»، مع الاعتراف بأنه لا يمكن العزل أو الفصل بين

ظواهر البداوة والتريف والتحضر (*) نظرًا للتدخل القائم والحتمى بين مختلف الظواهر المجتمعية (**).

وأخيرا عزيزى القارئ - زميلا كنت أو دارسا أو مهتما - لم يتبق لنا سوى نقطة واحدة : هى أننا عزمنا بعون الله ومشيئته .. أن نصدر «علم الاجتماع البدوى» فى طبعته السابعة فى ثلاثة كتب أو أجزاء يتناول :

(أ) أولها .. «التأصيل النظرى» حتى يمكن معه التعرف على ذلك العلم الوليد الذى كان لنا شرف الكتابة فيه لأول مرة فى منتصف ستينيات القرن العشرين وعلى النحو الذى سقناه قبلا «الكتاب الأول» .

(ب) وثانيها .. «البنية الاجتماعية» أو «البنيان الاجتماعى» للمجتمعات البدوية ليسهل علينا التعرف على طبيعة ومكونات البناءات أو البنيان أو البنيات الاجتماعية المختلفة للمجتمعات القبلية العشائرية ووفقا لما انتهينا إليه خلال كتاب «علم الاجتماع البدوى ـ البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية» «الكتاب الثانى» .

(جـ) وثالثها .. إصدار كتاب ثالث عن «علم الاجتماع البدوى بين النظرية والتطبيق»، وذلك لأن علم الاجتماع البدوى ما هو إلا علم «تطبيقى» يجب أن يكون له دور اساسى فى دراسة وتطوير المجتمعات البدوية، وخاصة منها المجتمعات البدوية أو العشائرية «الصحراوية» باعتبار أن النمط الصحراوى من البداوة. هو أوضح الأنماط البدوية سواء فى المنطقة العربية أم غير العربية، وقد نطلق على ذلك البعد أو الكتاب الثالث اسم «علم الاجتماع الصحراوى»، وقد نجمع بين المسميين «البدوى والصحراوى» تحت عنوان : «علم الاجتماع البدوى بين النظرية والتطبيق، دراسة فى علم الاجتماع الصحراوى» وسوف تكون بإذن الله النماذج العشائرية والقبائلية والتنموية العربية، هى الأساس فى الكتابة خلال هذا الطرح الجديد من خلال " مكتبة البداوة " .

(*) نسبة إلى المجتمعات البدوية والريفية والحضرية .

(**) حيث كانت النظرية القديمة لتطور المجتمعات تنهض على اساس ان هناك نموذجين لتطور المجتمعات البشرية هما النموذج الريفى والنموذج الحضرى فقط ، مع إهمال القطاع البدوى محليا وقوميا وعالميا .

(د) ويبقى الأمل - مع طول العمر بعد مشيئة الله تعالى سبحانه وإرادته - أن نضيف إلى هذه " الموسوعة التنموية " أعمالا أخرى بإذن الله من خلال " مكتبة البداوة ".

والله نسأل - عزيزى القارئ - لنا ولكم هداية منه وتوفيقا، لأنه سبحانه وتعالى، هو وحده جل شأنه ولى التوفيق . ولأنه وحده - سبحانه وتعالى - كذلك، نعم المولى ونعم النصير.

لذلك، فالارادة والعمر والرزق وكل الأمور الدنيوية والأخروية .. رهينة لأمره، لأنه إن شاء - عز وجل - قال للشىء كن فيكون ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾.

صدق الله العظيم

د. صلاح مصطفى الفوال

المهندسين - القاهرة
فى يوم الثلاثاء: ٢٧ / ٣ / ٢٠٠١
الموافق ٢ محرم ١٤٢٢ هـ

مقدمة الطبعات الأولى
من عام ١٩٧٤ حتى عام ١٩٨٢

مرة رابعة أشعر بكل السعادة والشرف وأنا أقدم للمكتبة العربية كتاب «علم الاجتماع البدوى»، وأذكر أن المرة الأولى التى غمرنى فيها ذلك الإحساس بالسعادة والشرف جاءت مع ظهور كتابى «البداوة العربية والتنمية» فى الأول من مايو عام ١٩٦٧، والذى تعرضت فيه بشكل محدد للتعريف بظاهرة البداوة عموما، والبداوة العربية على وجه الخصوص.

أما عن المرة الثانية، فقد كانت فى الخامس من مايو عام ١٩٦٨ مع ظهور كتابى « الأسس النظرية لتنمية المجتمعات الصحراوية » حيث تناول هذا الكتاب موضوعين أساسيين : أولهما : الصحراء عالميا وعربيا ومحليا وما يرتبط بها من ظروف مادية وطبيعية وبشرية، وثانيهما : التنمية لا كشعار جديد يغزو اليوم المناطق المتخلفة من العالم بما فى ذلك المجتمعات الصحراوية، ولكن كضرورة أملتها طبيعة العصر بتغيراتها المادية والاجتماعية المختلفة خصوصا فى ظل عاملى : التقدم التكنولوجى الهائل، والانفجار السكانى المروع، وبحيث تُعتبر برامج التنمية هي الوسيلة التى تمكن من الاستفادة إلى أقصى حد من نتائج ومظاهر العامل الأول، «التقدم التكنولوجى»، وتخفف فى ذات الوقت من مضار ومخاطر العامل الثانى، «الانفجار السكانى »، وبحيث يستلزم ذلك كله تطلعا واعيا نحو أو تجاه الصحارى، مع ما فى ذلك التطلع من مغانم محسوبة أوردتُها كلها ضمن كتاب « الأسس النظرية لتنمية المجتمعات الصحراوية ».

أما عن المرة الثالثة، فقد واكبت كتابى « تنمية المجتمعات الصحراوية تطبيقات ميدانية » وكان ذلك فى العاشر من أغسطس عام ١٩٦٨، حيث تضمن هذا الكتاب تطبيقا ميدانيا لكل الأسس النظرية لتنمية المجتمعات البدوية، سواء تلك التى تضمنها كتاب « البداوة العربية والتنمية » أم كتاب « الأسس النظرية لتنمية المجتمعات الصحراوية »، وذلك من واقع المجتمعات البدوية على امتداد الوطن العربى كله.

ولقد نوهت فى مقدمة كتابى الأخير عن أنه مازال للحديث بقية، وقلت يومها: إننى أرجو أن أختتم مجموعة كتبى عن البداوة والصحراء والتنمية بكتاب رابع هو كتاب « علم الاجتماع البدوى » وأعتقد أننى قد أوفيت بوعدى، وغاية ما أتمناه الآن أن يكون « علم الاجتماع البدوى » عند حسن ظن الجميع... أساتذة وخبراء ودارسين، ولتمتد أياديهم البيضاء إلىَّ ؛ لنكمل معا مشوارا صعبا بدأه العبقرى « ابن خلدون » منذ سبعة قرون خلت أو يزيد.

والله أسأل أن يهبنى السداد والتوفيق.

د. صلاح مصطفى الفوال

المحروزة - القاهرة
فى: ٢١ / ٥ / ١٩٧٤
الموافق ٢٩ ربيع الثانى ١٣٩٤هـ

مقدمة الطبعات الأخيرة
من عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٩٧

عندما قدمت إلى المكتبة العربية لأول مرة عام ١٩٧٤، كتابى عن « علم الاجتماع البدوى » أذكر اننى قلت فى المقدمة وقتها أن الكتاب كان وعدا قطعته على نفسى منذ أخذت موضوعات الهدو والبداوة والصحراء والتنمية تشد كل اهتماماتى منذ عام ١٩٦٣م.

وأذكر أيضا أننى قدمت ذلك الكتاب لقراء العربية كموضوع جديد يطرح لأول مرة، وكل إحساسات السعادة والشرف تغمرنى، وتمنيت يومها أن يكون « علم الاجتماع البدوى » عند حسن ظن الجميع.. أساتذة وخبراء ودارسين.. وتطلعت وقتها للأيادى البيضاء - لكل هؤلا - حتى تمتد نحوى ؛ لنكمل معا مشوارا بدأه العبقرى ابن خلدون منذ سبعة قرون خلت أو يزيد. !!

كانت تلك إحساساتى وتطلعاتى وأمنياتى عندما قدمت «علم الاجتماع البدوى» لأول مرة عام ١٩٧٤، ولكن الذى حدث بعد صدور الكتاب، وبعد فترة وجيزة من تداوله، أن كان رد الفعل شيئا أعظم من كل ما استشعرته أو تمنيته، حيث وجد الكتاب صدى طيبا كنت أرجوه وأنشده، وصار مرجعا لكل دارسى الاجتماع البدوى على امتداد جامعات وطننا العربى، كما أصبح الكتاب أحد المصادر الأساسية للباحثين وطلاب الدراسات العليا فى موضوعات البدو والبداوة.

وكان ذلك كله فضلا وتوفيقا من الله سبحانه وتعالى، وثقة من زملائى أساتذة علم الاجتماع الذين لا أملك فى هذا المجال إلا أن أوجه لهم جميعا وعلى امتداد وطننا العربى من المحيط إلى الخليج ؛ كل الشكر والتقدير والعرفان.

واليوم - عزيزى القارئ - بنفس مشاعر السعادة والثقة فيك، والامتنان لله ثم لك.. أقدم طبعة جديدة متطورة من « علم الاجتماع البدوى » وإن كنت قد اخترت له اسما جديدا يساير أو يتماشى مع خطط وبرامج تدريس الكتاب فى العديد من الجامعات العربية والعالمية، وكان العنوان الذى اخترته هو « دراسة علم الاجتماع البدوى ».

والذى أحب أن أضيفه هنا.. أن هذه الطبعة تختلف وتتفق مع الطبعة الأولى والطبعات التى تلتها فى أشياء كثيرة سواء بالحذف أم بالإضافة.

وبغير أن ندخل فى تفصيلات أو محتويات الكتاب فى طبعته الجديدة أو المتطورة.. فالشىء المؤكد أن بناء الكتاب قد تغيرت فيه أشياء كثيرة، حيث كان لابد أن يأتى الكتاب فى صورته الجديدة متوائما مع آخر معطيات العلم بغير ازدواجية أو تكرار لما تضمنته مؤلفات سوسيولوچية حديثة صدرت لنا، ودون إخلال كذلك فى ذات الوقت بوحدة « علم الاجتماع البدوى » وبالصورة الطيبة التى هى لدى قرائى الأفاضل عنه، وخصوصًا أن تلك الصورة كانت - كما سبق أن أسلفت وبالحق - شيئا أكبر وأعظم من كل إحساساتى أو أمنياتى.

بقيت نقطة أخيرة - عزيزى القارئ - وهى أن هذا الكتاب عن « دراسة علم الاجتماع البدوى » ليس فى الميدان وحده، بل معه على درب « البداوة والبدو » الموحش والطويل، معه على نفس الدرب رفيق آخر أو هو توأم لعلم « الاجتماع البدوى » فكرا وانتماء ومنهجا. وأقصد بذلك كتاب « البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية »، وبحيث يكون لا غنى لقارئ الكريم عنهما معا ؛ حتى تتكامل لديه الصورة عن ظاهرة البداوة محليا وعربيا وعالميا.

والله أسأل لى ولك - عزيزى القارئ - كل التوفيق.

د. صلاح مصطفى الفوال

جامعة وهران - الجمهورية الجزائرية
فى: ٢٢ يوليو ١٩٨٢

الباب الأول

الدراسات التى مهدت
لظهور علم الاجتماع البدوى

- كيف كانت نشأة علم الاجتماع البدوى ؟
- المسعودى وأسباب البداوة الرعوية العربية.
- البداوة والتحضر عند ابن خلدون .
- مجتمع القبائل الأسترالية .
- مجتمع الأندمان .
- مجتمعات الإسكيمو .
- الهنود الحمر .
- مجتمع القبائل الكندية .
- مجتمع النوير .
- مجتمع الأزاندى .
- مجتمع البوشمان .

مقـــدمـة

كيف كانت نشأة علم الاجتماع البدوى ؟

علم الاجتماع البدوى لم ينشأ من فراغ .. وإنما مهدت له دراسات كثيرة لرواد عظام على امتداد تاريخ البشرية كله .

ونحن وإن كان لنا شرف الكتابة فى موضوع « الاجتماع البدوى » لأول مرة واعتبرناه علما مستقلا من علوم الاجتماع الخاصة عام ١٩٧٤، إلا أن هناك محاولات كثيرة وإسهامات قيمة للعديد من العلماء والباحثين قد مهدت لنا الطريق وكانت خير عون لنا على إنجاز هذه المهمة الصعبة والشاقة (*) .

وإن كنا سنشير هنا إلى عدد من تلك الدراسات والإسهامات ، فليس معنى ذلك أنها الوحيدة، وإنما توجد إلى جوارها عشرات بل مئات الدراسات التى لم نسعد بالاطلاع عليها أو لم تمكننا الظروف - وهى كثيرة - من عرضها والانتفاع بها .

ولو أن عزاءنا عن هذا التقصير غير المتعمد ، أنه يمكننا أن نحيل القارئ الكريم، إلى أى من كتبنا السابقة مضافا إليها كتابنا عن «سوسيولوچيا الحضارات القديمة» ونأمل أن يجد فيها - القارئ العزيز - بعض العوض عن ذلك التقصير الذى لم نقصده يوما ولا سعينا إليه .

(*) يزعم الكاتب انه أول من أسس هذاالعلم بعد العبقرى ابن خلدون، أو على الأقل كان أول من طرح موضوع «الاجتماع البدوى» كموضوع مستقل على طاولة العلم .

الفصل الأول

المسعودى وأسباب البداوة العربية

- أسباب البداوة الرعوية العربية كما حددها المسعودى .
- لماذا اختار البدو سكنى الصحراء .
- ملامح البيئة الطبيعية التى يعيش فيها البدو .
- ما أخلاق البدو وطباعهم ؟
- خطر المبانى والمدن على حياة البدو الصحراويين .
- لماذا يُفضَّل البدو من العرب على من عداهم ؟
- الخلاصة .

أسباب البداوة الرعوية العربية كما حددها المسعودى

حدد المسعودى أسباب البداوة العربية وقيمها خلال مؤلفه الشهير « مروج الذهب » ضمن حديثه عن « خطيب العرب عند كسرى وهو يعلل اختيار قومه للبداوة » حيث أورد المسعودى ما يلى (١) :

المبحث الأول:

حديث خطباء العرب عند كسرى:

قال المسعودى : « وذكر الهيثم بن عدى والشرقى بن النطاقى وغيرهما من الإخباريين أنه وفد على كسرى أنو شروان بعض خطباء العرب، فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيارها البدو، فقال : أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا عن التحصن بالأسوار، واعتمدوا على المرهفات الباترة، والرماح الشارعة جننا وحصونا، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له يردون منها خيارها، ويقصدون ألطفها.

قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟، قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعدى الجدى مشرقين فى البر بحسب ذلك.

قال : فما رياحها ؟، قال : أكثرها النكباء بالليل، والصبا عند انقلاب الشمس. قال : فكم الرياح ؟، قال : أربع، فإذا انحرفت واحدة منهن قيل : نكباء، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب، وما بإزائها مما يستقبلهما من المغرب شمال، وما جاء من وراء الكعبة فهى دبور، وما جاء من قبل ذلك فهى صبا.

قال : وما أكثر غذائهم ؟، قال اللحم واللبن والنبيذ والتمر.

قال : فما خلائقهم ؟ قال : العز والشرف، والمكارم، وقرى الضيف (*) وإذمام الجار، وإجارة الخائف، وأداء الحملات، وبذل المهج فى المكرمات، وهم سراة الليل، وليوث الغيل، وعمار البر، وأنس القفر، ألفوا القناعة، وشغفوا الفراعة، لهم الأخذ بالثأر، والأنفة من العار، والحماية للذمار.

قال كسرى : لقد وضعت عن هذا الجيل كرما ونبلا، وما أولانا بإنجاح وفادتك فيهم.

فتخيرت العرب فى البر نزلاً منها مشات ومنها مصايف : فمنهم المنجّد والتهامى. فالمنجد منهم هم الذين سكنوا أرض نجد، والتهامى هم الذين سكنوا أرض تهامة. ومنهم من سكن أغوار الأرض كغور بيسان وغور غزة وغيرها من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكن منهم لخم أو جذام » (٢).

★ ★ ★

المبحث الثانى :

أسباب تمايز البدو من العرب على غيرهم :

ويضيف المسعودى قائلا : « ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بأولى العز وأليق بذوى الأنفة، وقالوا : لنكن محكمين فى الأرض ونسكن حيث نشاء، أصلح من غير ذلك، فاختاروا سكنى البدو من أجل ذلك » (٣).

ويمضى المسعودى محدد أسبابا أخرى للبداوة العربية فيقول : « وذكر آخرون : أن القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الأخطار، ونبل الهمم والأقدار وشدة الأنفة، والحمية من المعرة، والهرب من العار، بدأت التفكير فى المنازل، والتقدير للمواطن، فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها مَعَرَّةً ونقصا.

(*) قرى الضيف يعنى إكرام الضيف .

وقال ذوو المعرفة والتمييز منهم : إن الأرض تمرض كما تمرض الأجسام وتلحقها الآفات، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح، إذ الهواء ربما قوى فأخذ بأجسام سكانه، وأحال أمزجة قطّانه (*).

وقال ذوو الآراء منهم : إن الأبنية والتحويط حصّر عن التصرف فى الأرض، ومقطعة عن الجولان، وتقييد للهمم، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة.

وزعموا أيضا أن الأبنية والأظلال تمحق الغذاء وتمنع اتساع الهواء، وتسد سروحه عن المرور وقذاة السلوك، فسكنوا البر الأفيح الذى لا يخافون فيه من حصر ومنازلة ضر، هذا مع ارتفاع الأقذاء، وسماحة القرائح فى التنقل فى المساكن، مع صحة الأمزجة، وقوة الفطنة، وصفاء الألوان، وصيانة الأجسام، فإن العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء، وطبع الهواء الفضاء، وفى هذا الأمن من العاهات والأسقام والعلل والآلام.

فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيداء، فهم أقوى الناس همما، وأشدهم أحلاما، وأصحهم أجساما، وأعزهم جارا، وأحماهم ذمارا، وأفضلهم حوارا، وأجودهم فطنا، لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء ؛ لأن الأبدان تحتوى أجزاؤها على متكاثف الأكدار، وعناء الأقذار، مما يرتفع إليه، ويتلاطم فى عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات، والمستنقعات من المياه، ففى أكنافه جميع ما يتصعد إليه.

لذلك تراكبت الأقذار والأدواء والعاهات فى أهل المدن، وتركبت فى أجسامهم، وتضاعفت فى أشعارهم وأبصارهم.

ففُضلت العرب على سائر من عداها من بوادى الأمم المتفرقة لما ذكرنا من تخيرها الأماكن وارتيادها المواطن (٤).

★ ★ ★

(*) أى: غيَّر أمزجة سكانه الذين يحيون أو يعيشون فيه.

المبحث الثالث:

أسباب وجود البداوة العربية:

يمكننا أن نلخص ما قصده المسعودى من أسباب للبداوة العربية القديمة على الوجه الآتى :

١ ـ إن البداوة - كنمط حياة - مكنت البدو من أن يتجولوا فى الأرض بحرية وبغير عوائق ودون ما حاجة إلى أسوار تحميهم وترد عنهم كيد العدو، لذلك فهم « ملكوا الأرض ولم تملكهم ».

٢ ـ إن تجول البدوى بحرية مكنه من أن يختار من الأرض أجودها - ماء وكلأ - وإذا ما أعجبته وقومه صارت ملكا لهم مادام طاب لهم مقامها وإلا فأرض الله واسعة.

٣ ـ البداوة مكنت البدوى من أن يبرع فى المقاتلة والمدافعة وأن يحسن استعمال رمحه ؛ حتى صار له حصنا وملاذا.

٤ ـ إن البداوة شكلت شخصية البدوى بكثير من الصفات، منها : الكرم، الشرف، حماية الجار، إجارة الخائف، الشجاعة، القناعة، حب القتال، الأخذ بالثأر، الأنفة من العار، وحماية الذمار، هذا فضلا عن شغف البدو الواضح بفصيح الشعر وتمامه « وشغفوا الفراعة ».

٥ ـ إن التجوال أليق بذوى الأنفة وأولى العزم من الناس.

٦ ـ إن سكنى المدن والأبنية يجلب العار للبدوى ويحد من انطلاقته وتفوقه على من سواه من الناس (٥).

٧ ـ إن الأرض تمرض والانتقال الدائم من مكان إلى آخر يمكن البدو من اختيار أصلحها، ويتيح - أى : الانتقال - الفرصة للأرض حتى تسترد عافيتها.

٨ ـ الأبنية تضر الصحة العامة ؛ لأنها تفسد الهواء والغذاء وتورث العلل « الأدواء » والأمراض لكثير من ساكنيها.

٩ ـ لذلك فضل البدو سكنى البوادى ؛ ليكونوا فى صحة أحسن وعقل أنضج ولون أنضر وقرائح أنقى وأمزجة أصفى وفتوة أوضح وشجاعة أصرح (٦).

★ ★ ★

المصادر

(١) المسعودى - مروج الذهب - دار التحرير للطبع والنشر - القاهرة ١٩٦٧ . ص ٢٧٦ وما بعدها.

(٢) د. صلاح مصطفى الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - دار غريب . الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٢ ص ص ١٥ -١٧ .

(٣) د. صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ١٩٦٦ - ص ص ١٥٢ - ١٥٦ ، وفى مواضع أخرى كثيرة منه .

(٤) مروج الذهب للمسعودى - مرجع سابق ص ٢٧٦ .

(٥) مروج الذهب للمسعودى - المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٧٦ ، وانظر أيضا :

(أ) البداوة العربية والتنمية - مصدر سابق - ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(ب) تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة - ١٩٦٨.

(جـ) علم الاجتماع البدوى - دار النهضة العربية - القاهرة -١٩٧٤ - الطبعة الأولى .

(د) المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٢ .

(هـ) علم الاجتماع فى عالم متغير - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٩٦ .

(و) دكتور صلاح الفوال - المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى - دار غريب - القاهرة - ٢٠٠٠ ص ص ١٩٠ - ١٩٦ .

(ز) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - دار الفكر العربى القاهرة - ١٩٩٧ . فى مواضع كثيرة منه .

(ح) دكتور صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية - تطبيقات ميدانية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة - ١٩٦٨.

★ ★ ★

الفصل الثانى

خصائص البداوة والتحضر عند ابن خلدون

- مقدمة حول خصائص البداوة والتحضر كما حددها ابن خلدون .
- المتناقضات التى اشتملت عليها البداوة العربية .
- الاختلافات بين البداوة والحضارة .
- مصير البداوة على ضوء الصراع بينها وبين الحضارة .
- تفسير أسباب البداوة والحضارة .
- رأى نقدى لفكر ابن خلدون .
- الخلاصة .

المبحث الأول :
مقدمة حول خصائص البــــداوة والتحضر كما حددها ابن خلدون

انتهينا فى أكثر من مؤلف لنا إلى أن « البداوة والتحضر » كانتا الأساس للنظرية السوسيولوچية عند ابن خلدون (*) وقلنا : إن ابن خلدون نظر فى أحوال المجتمعات التى عايشها أو قرأ عنها فوجد أن الناس مستقطبون حول نمطين رئيسين.. هما البدو.. والحضر، ثم نظر فى هذين النمطين فوجد أن لكل منهما صفات مغايرة تماما للآخر وتكاد تصل إلى حد التضاد، وتعمق أكثر فوجد أن كلا من البدو والحضر فى تفاعل مستمر، فاستنتج أن المجتمع فى جميع حوادثه الماضية والمستقبلية ليس سوى نتاج لذلك التضاد بين نمطى البدو والحضر المتصارعين دوما .

وعلى كل يمكننا أن نبرز أهم سمات وخصائص كل من البداوة والحضارة كما حددها ابن خلدون على النحو الآتى [1] :

(*) اعتمدنا بشكل أساسى فى كتابة هذا الجزء على عدة مؤلفات لنا من أهمها :

(أ) البداوة العربية والتنمية – مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ١٩٦٧ .

(ب) تنمية المجتمعات الصحراوية – تطبيقات ميدانية – مكتبة القاهرة الحديثة–القاهرة – ١٩٦٨.

(جـ) علم الاجتماع البدوى – الطبعة الأولى – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٧٤ .

(د) المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٨٢ .

(هـ) علم الاجتماع فى عالم متغير – دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٩٦ .

(و) المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى – دار غريب – القاهرة – ٢٠٠٠ .

(ز) دراسة علم الاجتماع البدوى – دار غريب – القاهرة – ١٩٨٢ .

(ح) علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق – دار الفكر العربى – القاهرة – ١٩٩٧ .

(ط) تنمية المجتمعات الصحراوية – أسس نظرية – مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ١٩٦٨.

أوضح ابن خلدون من خلال تحديده لخصائص البداوة، العديد من التناقضات التى تشكل أساس هذه الظاهرة. فالبدو عند « ابن خلدون » شجعان ولكنهم يعيشون على نهب أموال غيرهم من الناس بدوا كانوا أم حضرا، وهم على خلق ولكنهم قطاع طرق، وهم أهل خير ومروءة ولكنهم سفاحون يعشقون الحرب وسفك الدماء !، وهم أهل فطرة يبغضون الابتذال والتسفل ولكنهم ليسوا أهل علم ولا فن، وهم أهل شرف ويهبون أرواحهم لنجدة المرأة وحماية شرفها ولكنهم يعيشون من كدها وعلى ما تقوم به من أعمال، وهم يحتقرون كل عمل يدوى ويحقرونه، كما يحقرون ممارسيه ويسبون الزراعة والفلاحة والفلاحين، ولكنهم حتى يعيشوا.. لا يتورعون عن نهب خيرات تلك الزراعة أو الفلاحة.. رغم حقارتهما !!

ولم يفُت على ابن خلدون أن يقرر أن تلك المتناقضات العديدة التى اشتملت عليها خصائص ظاهرة البداوة، ليست من صنع البدوى بقدر ما هى من صنع الطبيعة أو البيئة الطبيعية التى يحيا فيها [٢].

★ ★ ★

المبحث الثانى :

المتناقضات التى اشتملت عليها البداوة :

أبرز ابن خلدون تناقضا آخر ليس بين مكونات ظاهرة البداوة هذه المرة، ولكن بين خصائص كل من البداوة والتحضر، وبحيث وضع كلا منهما على طرفى نقيض،وضرب ابن خلدون لذلك التناقض.. العديد من الأمثلة، سواء على المستوى الفردى أم المجتمعى، فعلى المستوى الفردى.. أوضح أنه إذا كان البدوى شجاعا فإن الحضرى جبان يؤثر الدعة، وإذا كان البدوى طيب الخلق فإن الحضرى متسفل أفسدته الحضارة وجعلته رخوا ومخادعا كذابا، وإذا كان البدوى يدافع عن نفسه بحد سيفه ويفزع لكل هزة فإن الحضرى قد أوكل أمر الدفاع عن نفسه للدولة، أو قد يستأجر من يتولى عنه هذه المهمة، وإذا كان الحضرى يحترم حقوق غيره

ويشجب السلب والنهب فالبدوى لا يؤمن إلا بغلبة السيف ويمجد السلب والنهب كمظهر من مظاهر القوة والغلبة والسلطان (٣).

وعلى المستوى المجتمعى. أوضح ابن خلدون أن النتيجة المنطقية لذلك التناقض كانت هى الصراع.. حتى صار ذلك الصراع هو السمة الغالبة على العلاقة بين كل من البداوة والحضارة، واتخذ هذا الصراع عدة أشكال لعل من أبرزها موجات الهجوم المتتابعة التى يشنها البدو على الحضر، فالبدو الشجعان ذوو الأنفة وأصحاب العصبية الواحدة يهجمون على أهل الحضر الجبناء المترفين، ونتيجة ذلك الصراع معروفة ومتكررة، وهى حدوث الغلبة والسلطان للبدو الشجعان، وبعد أن تنتهى موجة النهب والسلب وسفك الدماء ينظر الغزاة فى أمر المقهورين فلا يجدون خيرا من تأسيس دولة ترأسها أقوى عصبيات القبيل الغازى (٤).

وولكن بعد فترة ومع انغماس أفراد القبيل الغازى فى متع الحضر وملذاته تأخذ صفات البداوة الحقة تنسلخ عنهم رويدا رويدا فتضعف شوكتهم نتيجة لضعف عصبيتهم وتغير طباعهم، ويجدون أنفسهم معرضين لغزوة ضارية من قبيل آخر جديد ما زالت خصائص البداوة على توهجها لديه، ويكون ذلك الغزو إيذانا بسقوط دولة وميلاد أخرى.

وذلك الصراع بين البدو والحضر هو فى رأى ابن خلدون شىء حتمى نتيجة للتناقض بين خصائص كل منهما، ولكن ذلك الصراع لا يأخذ شكل المواجهة إلا عندما تقوى العصبية - أساس النظام القبلى - بتوحدها نتيجة لدعوة دينية أو ما شابه ؛ لمواجهة العدو المشترك - الحضر - فتحدث للبداوة عندئذ الغلبة والسلطان، وبغير ذلك التوحد فإن العصبيات داخل الإطار أو الكيان القبلى تكون مشغولة بالصراع مع نفسها فى معظم الأحيان.

إذن الصراع هنا.. قد يكون صراعا بين مختلف مكونات القطاع البدوى أو وحداته.. وفى هذه الحالة يكون الصراع صراعا داخليا، وقد يكون كذلك صراعا خارجيا أى : بين القطاع البدوى وبين القطاع الحضرى كنقيض تاريخى له (٥).

★ ★ ★

المبحث الثالث:

الاختلافات بين البداوة والحضارة:

أبرز ابن خلدون إلى الوجود نوعا آخر من الصراع اللامادى الذى خاضته البداوة.. وخصوصا العربية منها، ولقد أطلقنا على هذا الصراع.. صراع القيم (٦)، وقد تكون تلك القيم.. قيما حضارية أو دينية أو عصبية... إلخ، ومن أمثلتها ذلك الصراع الذى فُرض على البداوة العربية إبان ظهور الدعوة الإسلامية، حيث شجب الإسلام كثيرا من قيم البداوة العربية وممارساتها وخاصة ما تعلق منها بالعصبية، والثأر، والسلب والقتل بغير حق، وظلم النساء، والوأد... إلخ، حيث أوضح الكتاب والسُنة، أن هذه كلها من أمور الجاهلية والعصبية.

ولقد كانت لابن خلدون رؤيا واضحة فى هذا المجال، حيث أكد أن أى تناقص أو ضعف يصيب القيم البدوية، معناه : أن يؤدى ذلك بالضرورة إلى تحويل البدوى عن بداوته بنفس درجة تناقص القيم البدوية أو ضعفها لديه (٧).

★ ★ ★

المبحث الرابع:

مصير البداوة على ضوء الصراع بينها وبين الحضارة:

أثار ابن خلدون نقطة على درجة عالية من الأهمية، وهى أن البداوة وإن كانت تمثل - فى عصره - خطرا داهما ومتربصا بالحضارة حيث ينتهى الصراع دوما بانتصار الأولى واندحار الثانية وخضوعها لسلطان البادية، إلا أن الحضارة كانت تنتصر فى النهاية رغم أنف البداوة فى كل مرة يحتدم فيها الصراع بينهما، فبعد أن ينتصر البدو المتوحشون على الحضر المترفين الوادعين، بحد السيف ويؤسسون ملكهم، ما تلبث الحضارة أن تحيطهم بكل ما يبعد عنهم الخشونة ويذهب خصال البداوة فيركنون إلى الدعة ويألفون الاستقرار والراحة ويغترفون من النعيم ويعرفون الرفاهية ووسائل الحضارة فتتبدل عوائدهم وتتغير طبائعهم ولا يصيرون من البدو فى شىء.

صحيح أنهم يصبحون فى النهاية - فى رأى ابن خلدون - نهبا لموجات جديدة من الهجوم البدوى بتوحشه وعصبيته وحد سيفه، ولكن الصحيح أيضا أن الحضارة كانت تكسب فى صفها مجموعات جديدة من البدو ؛ لتحولهم إلى متحضرين أو حضاريين بعد أن كانوا يوما ما أنجادا وشجعانا ومتوحشين.

وأكثر من هذا، فإن الحضر - كما أوضح ابن خلدون - قد صار منطقة جذب للبدو، يستوى فى هذا كون البدوى يأتى للحضر غازيا أو للمنفعة أو حبا فى الرفاهية، حتى صار التحضر أو التمدن غاية للبدوى على حد تعبير ابن خلدون (*).

★ ★ ★

المبحث الخامس:

تفسير أسباب البداوة والحضارة:

هذا وقد فسر ابن خلدون أسباب ظاهرة البداوة والحضارة بإرجاعها إلى عوامل اقتصادية وسياسية وطبيعية ودينية عديدة، كما أوضح ابن خلدون أيضا أن الظواهر الاجتماعية المختلفة لا تتوقف العلاقة بينها على حد التأثر فقط بل تتسع بالضرورة إلى حد التأثير أيضا، وبحيث يستتبع أىَّ تغير فى ظاهرة ما تغير فى غيرها من الظواهر المرتبطة بها بصرف النظر عن حجم ونوع ذلك التغير، ومن هنا كان ابن خلدون أول من فسر وعلل الظواهر الاجتماعية بإرجاعها لظواهر اجتماعية أخرى سواء فى حالة الاستقرار أم فى حالة التغير .

كما أكد ابن خلدون ما للظواهر الاجتماعية بدوية كانت أم حضرية من حتمية قننت مسيرة تطور العمران البشرى سواء كما عايشه ابن خلدون أم كما قرأ عنه من خلال التاريخ [٨].

★ ★ ★

(*) هذه النقطة بالذات تعتبر المدخل المأمون لكل المجهودات التنموية الهادفة إلى تحديث وتنمية الصحراوات العربية وغير العربية .

المبحث السادس:
رأى نقدى لفكر ابن خلدون حول ظاهرتى البداوة والحضارة:

على الرغم من أن استقراءات ابن خلدون اقتصرت على الظواهر الاجتماعية المختلفة على المستوى الإقليمى أو المحلى فقط. وعلى وجه التحديد... على ما استطاع أن يعايشهم أو يقرأ عنهم من « العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » [٩]، على حد تعبير ابن خلدون نفسه، فلم يقصر ابن خلدون استنتاجاته - كما قصر استقراءاته - على النطاق أو المستوى الإقليمى. بل وسع تلك الاستنتاجات لتضم العمران أو الاجتماع البشرى كله، وهذه النقطة بالذات عرضته - أى ابن خلدون - لهجوم ظالم، إلا أننا نرى أن ذلك كان من ابن خلدون شيئا مبتكرا ونافعا فى نفس الوقت حتى مع التسليم برأى من هاجموه واتهموه بالتقصير المنهجى، وذلك لاعتبارين أساسيين هما :

(أ) إنه ليس فى مقدور أحد - حتى فى ظل ثورة العصر التكنولوچية أو المعلوماتية - أن يدرس مختلف الظواهر الاجتماعية على امتداد العالم كله، وإذا كان ذلك مستحيلا أو حتى صعبا اليوم لأسباب لا تتعلق بالإمكانيات وحدها وإنما تعود أيضا لاختلاف وتعدد الظواهر الاجتماعية ؛ باختلاف وتعدد المجتمعات، فضلا عن أن مشكلة التعميم مازالت هى آفة العلوم الاجتماعية والإنسانية وعلى رأسها علم الاجتماع حتى اليوم، نقول : إذا كان ذلك صعبا اليوم أو حتى هناك شك فى استحالة تحقيقه، فإنه كان بالأمس شيئا مؤكد الاستحالة، وخصوصا إذا ما علمنا أن ذلك الأمس يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى وبالتحديد إلى الفترة من ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م. إلى ١٦ مارس عام ١٤٠٦م، وهى الفترة بين مولد ابن خلدون ووفاته (*) ومن هنا كان اقتصار ابن خلدون فى دراساته على المناطق الإقليمية فقط شيئا جديدا ومبتكرا أقره عليه الآن علماء كثيرون معاصرون يرون أن أكمل

(*) تاريخ الميلاد والوفاة مأخوذ عن المرجع السابق ص ٣ ، مع ملاحظة أنه بالتقويم الميلادى .

الدراسات الاجتماعية وأدقها هى تلك التى تتناول مجتمعات تجمعها وحدة أيكولوچية أو ثقافية أو حضارية واحدة أو على الأقل متشابهة.

(ب) أيًا كان الاقتصار فى استقراءات ابن خلدون على الظواهر الإقليمية عبقرية أم قصورا، فإن ذلك الاقتصار مكن ابن خلدون من دراسة ظاهرة البداوة دراسة يمكننا أن نؤكد أنها مازالت على أصالتها وتوهجها حتى اليوم على الرغم من مرور سبعة قرون عليها منذ القرن الرابع عشر الميلادى... أو يزيد.. !!

★ ★ ★

الخلاصة:

قد يكون كل ما ذكره المسعودى وابن خلدون عن أسباب البداوة العربية وقيمها غير صالح كمبرر منطقى ومعقول لتفسير أسباب وجود أو قيام ظاهرة البداوة ولاسيما العربية منها فى الوقت الراهن، ولو أن عدم الصلاحية هذه لا يمنع من اعتبار ما ذكره المسعودى وابن خلدون، اعتباره خلفية تاريخية تعين باحثى البداوة العربية ودارسيها على أن يتعرفوا على مختلف صور تلك البداوة قديما.. ولا شك أن تلك المعرفة سوف تعين كثيرا فى تحديد مختلف أبعاد ظاهرة البداوة العربية المعاصرة (١٠).

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية - تطبيقات ميدانية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) دكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مصدر سابق - الباب الأول كله .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق .

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى ، مرجع سابق ص ٢٦ ص ص ٧٩ -٨٠

(٧) نفس المصدر السابق ، وانظر أيضا مؤلفاتنا عن :

- المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى - دار غريب - القاهرة ٢٠٠٠ ص ص ١٧٥ - ١٨٨ .

- المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى - مرجع سابق - ص ص ١٧١ - ١٨٤ .

(٨) البداوة العربية والتنمية - مصدر سابق .

(٩) عبد الرحمن بن خلدون المغربى - مقدمة ابن خلدون - طبعة دار التحرير للطبع والنشر - القاهرة - ١٩٦٦ .

(١٠) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق .

★ ★ ★

الفصل الثالث

القبائل والعشائر الأسترالية

- مقدمة حول العشائر الأسترالية .
- النظام القبلى لدى الأستراليين .
- الحياة العامة لدى القبائل الأسترالية .
- نظام الثأر لدى القبائل الأسترالية .
- نظام الزواج وأشكاله وتعدد الزوجات لدى الأستراليين .
- طرق تحديد النسل ووسائله عند العشائر الأسترالية .
- أنماط الترويح وأشكاله لدى القبائل الأسترالية .
- بيوت العزاب والحياة الجنسية الخاصة لدى الأستراليين
- أنماط الزواج .
- شعائر الموت والسحر عند الأستراليين .

مقدمة حول العشائر الأسترالية

ليس معروفا على وجه التحديد من أين وفد الأستراليون الأصليون على أستراليا، وإن كان هناك من العلماء من يعتقد أنهم جاءوا إليها بطريق البحر من جنوبى الهند.

هذا ومن الملاحظ أن وسائل معيشة القبائل الأسترالية تختلف باختلاف المناطق التى تعيش فيها تلك القبائل.

ويقال أيضا : إن تأثير البيئة لم يمتد ليشمل فقط وسائل معيشة الأسترايين القدماء وطرائق حياتهم، وإنما امتد كذلك ليضم حتى ألوان بشرتهم وقوامهم وأشكالهم الخارجية وصحتهم العامة أيضا.

★ ★ ★

المبحث الأول:

النظام القبلى لدى الأستراليين:

أوضح « بيدج » خلال مؤلفه عن « الشعوب البدائية »[1]، أن النظام القبلى عند الأستراليين يتسم بالتعقيد لدرجة أن دراسته أعيت الكثير من الأوروبيين وأثارت بينهم الجدل، بينما ذلك النظام لا يستعصى فهمه على أى طفل من أطفال تلك القبائل الأسترالية، على حد تعبير «بيدج» نفسه.

المهم أنه يرى أن النظام القبلى عندهم معقد ويتميز باختلافه من قبيلة لأخرى، وتتكون القبيلة الأسترالية من عدد من الجماعات والأفراد الذين ينتمون إلى أصل واحد كما يشتركون فى ملكية الأرض، وتشكل القرابة محور الصلات الاجتماعية والعلاقات بينهم كما أنهم يتكلمون لغة واحدة بل ولهجة واحدة فى كثير من الأحيان.

كما تنقسم القبائل الأسترالية إلى عدة عشائر تحتوى كل منها على عدد من الجماعات، تضم كل جماعة عائلة أو عائلتين وربما ثلاثا.

ويرى «بيدج» أيضا أن العائلة هى الوحدة الأساسية التى ينهض عليها المجتمع الأسترالى، حيث تعتبر كل عائلة وحدة اقتصادية مكتفية ذاتيا.

هذا وعلى رأس كل قبيلة زعيم.. أتته الزعامة غالبا عن طريق الوراثة، ولو أن الوراثة وحدها لا تغنى الزعيم المنتظر عن أن يظهر بلاء فى الحرب أو رجاحة فى العقل، أو يكون ذا قدرة خارقة للعادة تدعمها طاقات سحرية تمكنه من السيطرة على مختلف الوحدات والأفراد المكونين للقبيلة.

وعادة لا ينفرد زعيم القبيلة الأسترالية بتسيير أمور قبيلته وإنما يعاونه فى ذلك مجلس يضم رؤساء مختلف فروع القبيلة.

★★★

المبحث الثانى:
الحياة العامة لدى القبائل الأسترالية

لم يعرف الأستراليون الأصليون الزراعة ولا استئناس الحيوان، ولم يتخذوا بيوتا يقيمون فيها، وإنما اعتمدوا فى سكناهم على عدد من العرائش يحملونها معهم فى تجوالهم فى رحلة بحثهم عن القوت (٢).

وهم يعيشون على صيد الحيوانات ويأكلون السمك وثمار الجذور والشجر، وحديثو عهد بمعرفة الثياب، ويزينون وجوههم وسائر أبدانهم بالجروح والندوب.

ولكبار السن عندهم مكانة خاصة، ويختصهم الصغار بكل توقير وإجلال واحترام لما لهم من حكمة وخبرة وتجربة، لذلك يتولى كبار السن مهام القيادة والريادة، ليس فقط؛ لأنهم أعلم بمواقع الماء والخصب وأدرى بالعدد المناسب من أبناء القبيلة بالنسبة للعيش فى كل موضع من المواضع، وكذلك بالوقت المناسب للإقامة فيه، وإنما لما لكبار السن أيضا من مكانة روحية كبيرة حيث يقومون بعدد

من المهام الحيوية منها حفظ تاريخ القبيلة وتلقينه للصغار، كما أنهم يعرفون أساطير القبيلة وطقوسها وشعائرها ويستخدمون ذلك كله؛ ليحفظ على أبناء القبيلة سلامتهم وأمنهم، ويضمن لهم ولأبنائهم من بعدهم سبل البقاء والاستمرار.

ولكل قبيلة من قبائل الأستراليين الأصليين أرضها الخاصة التى تعرف حدودها جيدا، وهى أينما رحلت لابد أن تعود يوما؛ لتقيم فى أرضها، وحق كل قبيلة فى أرضها أمر معترف به من الجميع ولا يمكن الاختلاف عليه أو منازعة قبيلة لقبيلة أخرى فى هذا الشأن حتى وإن كانت فى حالة حرب، فكل شىء مباح إلا الاستيلاء على الأرض أو غزوها وطرد أصحابها منها.

والملكية لدى الأستراليين الأصليين ملكية جماعية، تملك خلالها القبيلة كل شىء نظير ما توفره لأبنائها من أمن وحماية ومأوى ومأكل وعتاد أو متاع.

ولكل قبيلة لغتها وفنونها الخاصة، ولديهم كذلك معرفة بأسرار الألوان التى يجلبون خاماتها من الصحارى والجبال ويصحنونها ويرسمون بها على جدران الكهوف مناظر الصيد والقتال والبطولات وغيرها من المناظر البيئية، كما أن لهم رقصات يمثلون خلالها صيد البر والبحر والجو، كما يمثلون مشاهد من عالم الأرواح، وكثيرا ما يقيمون حفلاتهم الموسيقية الراقصة هذه فى ضوء القمر فتسرى أصواتهم فى هدوء الليل؛ ليسمعها القاصى والدانى (٣).

وعندما يبلغ الصغير فيهم مبلغ الرجال لا يصبح رجلا إلا فى حفل له قواعد وأصول، وبعد تأهيل وإعداد خاص يكون الصبى قد أحيط علما خلاله بما توارثته الأجيال من تاريخ وحكمة وأساطير، ثم يعقد له الشيوخ امتحانا يبدأ بقياس قدرته على استيعاب تاريخ القبيلة وتراثها واختبار معرفته بفنون الصيد والقتال، ولا ينتهى ذلك الامتحان إلا بتعريض الصبى لآلام جسدية رهيبة لمعرفة مدى جلده وصبره على احتمال الشدائد والمكاره (*).

★★★

(*) يشارك الاستراليون فى ذلك الاسلوب أو النمط القاسى من التربية معظم القبائل البدوية أو العشائرية المنتشرة فى العديد من أرجاء العالم .

المبحث الثالث:

نظام الثأر لدى القبائل الأسترالية

لو أخذنا قبيلة «المورنجن Murngin» كمثال لدراسة ظاهرة الثأر وما يرتبط به من عادات وطقوس وقيم، وذلك من خلال الدراسة الحقلية التى قام بها «ورنر Warner» لتلك القبيلة؛ لتبينت لنا الحقائق الأتية (٤) :

١ - تعتقد قبائل «المورنجن» أن روح القتيل توجد دائماً فى مخلفاته، ومن هنا كان لتلك المخلفات تأثيراتها السحرية غير المحمودة على العدو سواء كان ذلك العدو فرداً أم جماعة، بمعنى: أنه إذا كانت عملية القتل قد تمت بواسطة فرد، فإن أحدا من أقارب القتيل، لو رمى بإحدى مخلفاته فى نار موقدة أمام القاتل فإن ذلك كفيل - فى اعتقادهم - بأن يجعله يغط فى نوم عميق، وبالتالى يسهل قتله طلبا للثأر، أما إذا كانت إحدى عشائر المورنجن فى حرب مع عشيرة أخرى فإنها تحمل تلك المخلفات فى أفواه محاربيها اعتقادا منهم بأن التأثير السحرى لتلك المخلفات يصيب الأعداء بثقل فى الحركة مع ما يستتبع ذلك الثقل من تعب ييسر هزيمتهم فى الحرب، وبالتالى يجعل قتلهم - طلبا للثأر - أمرا ميسورا.

أما عن مخلفات القتيل التى لها كل تلك الطاقات السحرية لديهم فهى إما أن تكون عظام أصابع القتلى أو بقايا تلك الحراب التى قتلتهم.

٢ - أما إذا كان القاتل مجهولا فإن روح القتيل دائما تكشفه وتحاول تعريته؛ حتى يسهل على طالب ثأر القتيل أن يتعرف على القاتل وبالتالى يثأر منه، أما كيف تساهم روح القتيل فى الكشف عن قاتله فذلك راجع لاعتقاد عشائر «المورنجن» بأن روح القتيل تتسلل إلى جسم القاتل وتنفث أو تنفخ فيه باستمرار؛ حتى ينمو الجسم - جسم القاتل - ويتضاعف حجمه ويترهل فيفقد قوته، أو أن تأتى روح القتيل إلى القاتل فى المنام دائما وتقلق راحته، وقد تتقمص روح القتيل جسد غراب أو ببغاء وتحوم باستمرار حول رأس القاتل، وفى كل الحالات يسهّل ذلك من التعرف على القاتل ويقهره، وبالتالى يتم الثأر أو القصاص منه.

٣ - أما عن مسئولية الأخذ بالثأر فهى أولا وأخيراً مسئولية أقرب أقرباء القتيل(*) وتعمد العشيرة إلى تجميع مخلفات القتيل وخصوصا عظام أصابعه والاحتفاظ بها داخل الألياف المغطاة بريش الببغاء وشمع العسل، ثم ما تلبث العشيرة أن تسلم تلك المخلفات إلى الشخص الموعود، وساعتها يكون لزاما عليه أن يثأر لقريبه، ولسوف تظل دوما روح القتيل المتقمصة فى مخلفاته حافزا ودافعا لطالب القصاص حتى يثأر من القاتل.

٤ - حتى لا يظل الثأر كأسا دوارة يشرب منها الجميع؛ لجأت عشائر «المورنجن» إلى وسيلة غريبة أطلق عليها «وورنر» اصطلاح: «قتال الماكارتا» وقال "Worner" عن هذا القتال: إنه قتال شعائرى صورى، الهدف منه عقد صلح بين طرفى الثأر بالذات، فإذا ما قام فرد من عشيرة ما بقتل فرد من عشيرة أخرى فإن الوسطاء من كبار السن ينتظرون حتى تخف حدة الانفعالات، ثم يبدأون فى اتصالاتهم بين عشيرة القاتل وعشيرة القتيل؛ بهدف إقرار السلام من خلال معركة «الماكارتا» الصورية التى تقام فى الوقت والمكان الذى تم الاتفاق عليه أثناء مفاوضات السلام والذى يأتى إليه المحاربون من الطرفين وقد دهنوا أجسادهم بطلاء أبيض، ويقف كل جانب فى مواجهة الآخر، ثم ما يلبث أن يحضر الشخص الذى عليه أن يأخذ الثأر إلى الساحة وسط رقص وإنشاد أبناء عشيرته، وبعدها يحضر القاتل ومحرضوه على القتل إلى الساحة هم الآخرون ومعهم شخصان يمتان بصلة القرابة إلى عشيرتى القتيل والقاتل، ويجرى هؤلاء وسط الساحة مجردين من حرابهم، وبعد أن يتأكد كبار السن من نزع رءوس الحراب التى تحملها عشيرة المعتدى عليه، يُسمح لهم بأن يسدد كل منهم حربته نحو القاتل ومحرضيه أثناء جريهم فى الساحة، وعادة لا يكتفى أهل القتيل بذلك بل ينهالون بالشتائم والسباب على القاتل ومحرضيه وعشيرته، وهذا حقهم الذى لا ينكره عليهم أهل القاتل كما أنه ليس من حقهم أن يردوا على السباب والشتائم بمثلها وإلا كان ذلك إساءة جديدة موجهة ضد

(*) وهو عادة من أهله المقربين ممن تقع عليهم مسئولية القصاص أو أخذ الثأر ، وهم من يعرفون فى البداوة العربية باسم « أولياء الدم » أو « الموالى » .

أهل القتيل، وتستمر هذه العملية فترة حتى تهدأ نفوس أبناء العشيرة المعتدى عليها، وعندها يأمر كبار السن بالتوقف عن القذف سواء كان ذلك القذف بالسباب أم بالسهام، ثم بعد ذلك تبدأ دورة جديدة يتعرض فيها القاتل أو القتلة وحدهم وسط الساحة لسهام المعتدى عليهم وهى غير منزوعة الحراب وسط تحذير كبار السن من الفريقين للفريق المعتدى عليه؛ حتى لا تصيب السهام أحد الأعداء فتزداد المبلة طينا، ولفريق المعتدى؛ حتى لا يرد على شتائم وسباب وحراب الفريق الآخر - عشيرة القتيل - فتسوء العواقب، ثم ما تلبث هذه المرحلة من قتال «الماكارتا» أن تنتهى بسرعة، حتى لا يترك العنان للعواطف الثائرة ويتحول القتال الصورى إلى كارثة حقيقية.

★★★

المبحث الرابع:

نظام الزواج وأشكاله وتعدد الزوجات لدى الأستراليين:

لو أخذنا سكان «جزيزة تيوكبيا Tikopoia » كمثال - معتمدين على الدراسة الحقلية التي قام بها «ريموند فيرث R. Firth » لهم - لاتضحت لنا الحقائق التالية (٥):

أولا: نظام الزواج وأشكاله:

إنه برغم الحرية الممنوحة للشبان فى إشباع حاجاتهم الجنسية إلا أن الزواج يتم لدى سكان جزيرة تيكوبيا بطريقتين أغرب ما فيهما ما توحيان به من وجود معارضة حقيقية أو مفتعلة لدى أسرة الفتاة لإتمام زواجها بمن تحب، لذلك يلجأ الشاب المحب إما إلى الهروب بفتاته أو خطفها عنوة، وفى كلتا الحالتين يتم الزواج فى مكان قصى لا تمتد إليه يد أسرة الزوجة.

وعموما يمكننا إلقاء الضوء على طرق الزواج لدى التيكوبيين ومن خلال ما ذكره « ريموند فيرث R.Firth » على النحو الآتى :

(أ) الهروب بالزوجة:

ويرى « فيرث » أن تلك هى الطريقة السائدة، وتتم غالبا بعلم ورضى وتدبير أى من الأسرتين - أسرة الفتى أو الفتاة - أو كلتيهما معا، والفتى عندما يفر بمحبوبته ليلا لابد أن تكون إحدى الأسرتين - وغالبا ما تكون أسرة الفتى - على علم تام بكل تحركات الفارين مقدما [٦]، وما يلبث أن ينتشر خبر ذلك الزواج فى الجزيرة مع إشراقة صباح اليوم التالى فيعرفه كل من يهمهم الأمر وخصوصا والد الفتاة.

هذا ويرجع « ريموند فيرث R.Firth » ذلك إلى ضرورة موافقة أسرة الفتى على زواجه عن طريق خطف الزوجة نظرا لما يشكله هذا النمط من عبء على الأسرة، وإن كان يخفف من حدة هذا العبء تمتع زوجة الابن بعدة خصال حميدة لعل من أهمها جميعا أن تكون مجدة فى عملها وأن تكون ذات طباع حسنة وغير عابسة أو من ذوات اللسان السليط وأن تكون غير مسرفة فى الأكل أى : غير أكولة.

(ب) الاستيلاء على الزوجة بالقوة:

ويرى « فيرث » أن ذلك يحدث نادرا، وإن حدث فهو نتيجة إما لرفض أسرة الفتاة أن تزوجها للفتى الذى أحبته، أو لرفض أسرة الفتى أن تزوجه من الفتاة التى أحبها، وقد يحدث كذلك إذا ما رغب شاب ما فى فتاة بعينها ولكنها رفضت الزواج منه [٧].

كما يرى « فيرث » أيضا أن عادة الاستيلاء على الزوجة بالقوة برغم أنها نادرة الحدوث إلا أن ممارستها تكاد تكون مقصورة على العائلات القوية ذات النفوذ داخل الجزيرة.

وفى الحالتين الأولى والثالثة يقوم الفتى بالاستيلاء على محبوبته بالقوة وَطبقا لإجراءات وطقوس معينة، أما فى الحالة الثانية، فإن أسرة الفتى تقوم باختيار فتاة أخرى ترضى عنها ثم تستولى عليها بالقوة حتى تزوجها من فتاها (*).

(*) قارن بين طرق الزواج تلك وبين طرق الزواج التى مارستها الشعوب القديمة والتى تعرضنا لها خلال كتابنا «سوسيولوجيا الحضارات القديمة»، مرجع سابق، فى مواضع كثيرة منه.

ثانيا: تعدد الزوجـات:

عـرف سكان جزيرة تيكوبيا Tikopia تعدد الـزوجات وخصـوصا الرؤسـاء منهم، وإن كان نظام الزواج المونجـامى « أى الاكتفاء بزوجة واحـدة للرجل الواحد » يكاد يكون هو النمط السائد، وخصوصا بعد أن تحول معظم السكان إلى الديانة المسيحية.

★★★

المبحث الخامس:

طرق تحديد النسل ووسائله عند العشائر الأسترالية:

نظرًا لقلة مـوارد الطعام بجـزيرة Tikopia، ولأن الموجود منه بالفعل يكاد يفى بالاحـتيـاجـات الضـرورية للسكان الموجـودين فعـلا ؛ فـقـد لجـأ الأهـالى إلى تحـديد نسلهم أو بتـعـبيـر أدق.. إلى الوقـوف بالعـدد الإجـمـالى للسكان عند حـد مـعين، واعتمدوا فى ذلك على عدة طرق ووسائل منها :

(أ) الإضراب عن الزواج:

بأن يمتنـع الشبـان عن الـزواج – وغـالبـا مـا يكون ذلك بإيعــاز من كبـار السن وأرباب الأسـر – وإن كان هـذا الامتناع لا يأخذ صورة جماعية وإنما تفرضه كل أسـرة على أبنائها حسب مقدرتهـا الاقتصـادية، وفى مقابل ذلك الامتناع أو التـحريض على عـدم الزواج، أو فى مقـابل العـزوبيـة على حد تعبيـر «فيـرث R.Firth » توجد فـرصة متـاحة أمـام هؤلاء الشبـان لإشبـاع رغبـاتهم الجنسيـة مع فتيات الجـزيرة بغيـر موانع، اللهم إلا محظورا واحدا هو ألا يؤدى ذلك الإشباع إلى إنجاب أطفال جدد.

(ب) تحديد النسل:

إلى جانب تحريض الشبان على عدم الزواج، توجد طرق أخرى لمنع زيادة عدد السـكان بصـورة تضـر بالـتناسب المـوجـود بينهـم أى : بين التـيكوبيين وبين مـصــادر القوت، ومن هذه الطرق ما يأتى :

١ - العــزل :

وقد عـرفه الرجـال المتزوجـون وغيـر المتـزوجين على حـد سـواء، حيث كـانوا يلجـأون حـتى لا تحـمل المرأة أثناء العـمليـة الجنسـيـة ؛ إلـى القــذف خـارج فـرجهـا فيمنعون بذلك - غالبا - إتمام عملية الإخصاب أو التناسل.

٢ - الإجهاض :

أمـا إذا مـا عـجـز الرجل لـسبب أو لآخـر عن القذف خـارج فـرج المرأة وحدث الحمل، فإنه لا حل فى هذه الحـالة سوى الإجهـاض، وخصوصا فى حـالات الفتيات غير المتزوجات.

٣ - الــوأد :

رب الأسـرة، ومـقـدرتهـا الاقـتـصـادية، هـمـا المحكـــان الرئيـسيـان لدى سكان جـزيـرة "تيكوبيـا" فيـمـا يـتعلق بوأد الأطفـال، فـرب الأسـرة هو وحده الذى يقـرر هل يعيش الطفل الوليد أم يموت، وهو لا يقـرر ذلك جزافـا وإنما بعد أن يتـأكد له عـجزه عن إطعـامه والإنفـاق عليـه، ولا يهم أن يكون الموءود طفلا أو طفلة ؛ لأن ذلك تحدده حاجة الأسـرة ومـدى تقديرها للذكر أو الأنثى، فقـد لاحظ « فيرث » أن بعض الأسـر التيكوبياتية تئد البنات بينما يئد البعض الآخر الأطفال الذكور.

هـذا وللوأد عندهـم وسيلة واحـدة تكاد لا تتغيـر وهـى خنق الطفل الـوليد عـقب ولادته مباشـرة (*).

٤ - الحروب والأسفار البحرية :

لاحظ « فيـرث » أن أعـدادا غيـر قليلة من شبـان الجـزيرة ينتقلون بحـرا إلى الجزر الأخـرى المجاورة وأن ذلك يعرضهـم - وخصـوصا فـى ظل مـركبـاتهم البـدائية -

---

(*) هذا بخلاف الوأد الـذى تمارسه بعض العشـائر البدوية التى تعتمـد على دس الوليد فى التـراب حتى يموت ، مع اتفاق أسباب الوأد للإملاق أو الفقر عند نمطى البداوة العربية والبداوة التيكوبياتية .

للموت غرقا، وطبعا هذه وسيلة غير مقصودة لتحديد السكان، كما لاحظ « فيرث » أيضا أن الحرب بين مختلف عشائر الجزيرة أحيانا ما تؤدى هى الأخرى بغير قصد كذلك إلى إحداث المواءمة المطلوبة بين عدد السكان وبين مصادر القوت.

★★★

المبحث السادس :

الحياة الجنسية لدى الأستراليين الأصليين :

لو أردنا أن نتتبع الحياة الجنسية عند الأستراليين الأصليين، فلن نجد خيرا من الدراسة الحقلية التى قام بها « مالينوفسكى Malinowski » لسكان جزر "التروبرياند"، والتى توضح بجلاء أن هذاالمجتمع وعلى حد تعبير «مالينوفسكى» نفسه « مجتمع بغير عذارى » وذلك لأن العلاقات الجنسية تبدأ لدى أبناء الجنسين فى سن مبكرة، وبغير زواج فى أحوال كثيرة [٨].

وهذه الحياة الجنسية الخاصة لا تتم من وراء ظهر المجتمع ولا فى غيبة من تقاليده ونظمه، وإنما تتم تحت سمع المجتمع وبصره بل وفى حمايته أيضا، ويكاد يكون لها تنظيم خاص معترف به من المجتمع وهو ما يعرف بنظام « بيوت العزاب »، ولم يلاحظ « مالينوفسكى » فقط وجود تلك الدُّور - دور العزاب - وإنما لمس أيضا دورها كتنظيم خاص فى الحياة الاجتماعية عند التروبرياندين وخصص له جزءا منفردا ضمن كتابه عن «الحياة الجنسية لدى البدائيين» الذى اعتمدنا عليه لتوضيح الحياة الجنسية لدى الأستراليين الأصليين(*).

ومن الجدير بالذكر أن تلك العلاقات الجنسية الخاصة والتى تمارس من

(*) نظام الأسرة السائد لدى التروبرياندين هو النظام الأموى الذى ينتسب فيه الطفل إلى أمه وعشيرتها ، والولد هناك يرث خاله ولا يرث أباه ، ومما لاحظه «مالينوفسكى» أن مجتمع التروبرياند لا يعترف بوجود علاقة فسيولوجية بين الابن وأبيه ، ومن هنا فلا توجد أية صلة للقرابة بينهما ، ومع هذا فالآباء يعيشون مع أبنائهم يرعونهم عند المرض ويذودون عنهم -كآباء- بأرواحهم عند الخطر .

خلال بيوت العزاب - المشار إليها - تكاد تكون مقصورة على غير المتزوجين كما هو واضح من صفة « العزاب » وخصوصا فى مرحلة ما قبل الزواج (*).

وقبل أن نتعرض بشىء من الإيضاح لبيوت العـزاب هذه، نحب أن نبين أن من أهم ما أبرزته دراسة « مالينوفسكى » المشار إليها، أن بيوت العزاب تلك وما ترمز إليه من حرية مطلقة فى ممارسة العلاقات الجنسية قد تكون مؤشرا مضللا للحياة الجنسة عموما لدى التروبرياندين ؛ لأنهم برغم الحرية الممنوحة لهم يفضلون أن تتم علاقاتهم الجنسية من خلال أسر يكون الزواج الشرعى هو دعامتها الأساسية.

ويعود ذلك كما أوضحت دراسة « مالينوفسكى » المشار إليها لعدة أسباب وعوامل اقتصادية واجتماعية وعاطفية ترجح قطعا لدى التروبرياندى لو قورنت بحريته فى ممارسة علاقات جنسية بعيدة عن نطاق الأسرة.

هذا ويمكن أن نوجز تلك العوامل والأسباب على النحو الآتى :

١ - أن أسرة الزوجة تدفع إعانة أو منحة سنوية للزوج وذلك طبقا للأعراف والنظم السائدة هناك (**)، ويرتبط حجم تلك المنحة السنوي بالمكانة الاجتماعية لكل من أسرة الزوجة وأسرة الزوج، وإن كان يجب فى كل الأحوال ألا تقل تلك المنحة عن نصف متوسط الاستهلاك العام لدى الأسرة الجديدة خلال السنة، وتظل هذه المنحة قائمة وملزمة مادام الزواج قائما، وهى لا تنقطع قط إلا فى حالتى الوفاة أو الطلاق (***).

(*) لاحظ التشابه بين هذا النظام وبين ما هو متبع عند الزواج لدى معظم المجتمعات الأوروبية والغربية والأفريقية خاصة .

(**) مع ما لهذه المنح من إلزام أوجبته العادات القبلية إلا أن المجتمع التروبرياندى لم يضع جزاء ماديا أو عقابا محددا على من لا يدفع تلك المنحة ، بل اكتفى باحتقاره وازدرائه كعقوبة معنوية وهى - أى العقوبة المعنوية - فى معظم الأحوال أشد وقعا وإيلاما ، لذلك فعدم دفع تلك المنح كما لاحظ مالينوفسكى ظاهرة نادرة الحدوث .

(***) نعتقد أن ذلك الاهتمام كله من أسرة الفتاة بالزوج وأسرته الجديدة إنما هو ناشىء عن العرف السائد ، ولما تحتله المرأة من مكانة اجتماعية عالية ، بدليل أن النظم والأعراف التى حتمت على أسرة الزوجة أن تقدم كل تلك المساعدات والمنح للزوج ، تحتم على نفس ذلك الزوج أن يقدم مساعدات ومنحا مشابهة لأسر أخواته المتزوجات وبصفة منتظمة كل عام .

ومن أطرف ما ذكره «مالينوفسكى» فى هذا الشأن أن الفتى عندما يريد اختيار شركة حياته يكون عدد إخوتها الذكور هو العامل الحاسم فى اتمام الزواج نظرا لما يتوقعه من زيادة فى المنح الاقتصادية الممنوحة له كلما كثر عدد اخوة زوجته من الذكور .

وليست المساعدات العينية وحدها هى كل ما تقدمه أسرة الزوجة للزوج، وإنما عليها أيضا أن تقدم له يد العون فى مختلف المناسبات ابتداء من مساعدته فى أعماله اليومية إلى التضامن معه ضد أعدائه وحساده (*).

٢ - إن المجتمع التروبرياندى لا يعترف لغير المتزوج بمكانة اجتماعية لائقة، وذلك راجع لأن النظام الأمومى أو الأموى هو السائد من جهة، ومن جهة أخرى لأن غير المتزوجين هم فى نظر المجتمع شواذ بسبب عيب خلقى دائما ونفسى أحيانا (*) - لا يدخل ضمن طائفة الشواذ تلك الأرامل من كبار السن - لذلك يسعى الكل - رجلا كان أو امرأة - إلى الزواج متى كان قادرا عليه يستوى فى ذلك الشبان والأرامل والمطلقون، وعلى كل منهم أن يبحث لنفسه عن شريك مناسب لحياته، الشاب عقب بلوغه والأرملة أو الأرمل عليه أن ينتظر بعد انتهاء فترة الحداد، والمطلق والمطلقة عليه - خصوصا المرأة، أن يبحث لنفسه عن شريك للحياة بعد الطلاق مباشرة، ومن المهم عند المرأة أن تقيم علاقة جنسية غير شرعية عقب طلاقها حتى تعثر على الشريك المناسب (٩).

٣ - علاوة على كل ما سبق من عوامل اقتصادية واجتماعية ترجح كفة الزواج لدى مجتمع التروبرياندين، فقد يكون الحب الناشىء عن المعايشة والمعاشرة الكاملة بين الفتى وفتاته من خلال بيت العزاب - وعلى النحو الذى سنوضحه بعد قليل - هو العامل الأساسى فى حسم قرار كل من الفتى والفتاة بشأن زواجهما واستئثار كل منهما بالآخر على امتداد رحلة العمر الطويلة التى بدأت أولى خطواتها - فى بيت العزاب - بثبوت إخلاص الفتى لفتاته ووفائه لها وتعوده عليها وعدم رغبته فى غيرها ؛ لتعيش معه تحت سقف واحد، وطبيعى حتى يتم الزواج أن تكون للفتاة نفس الرغبة على اعتبار أنها محور الأسرة هناك (١٠).

★★★

(*) أوضح «مالينوفسكى» أن الزواج لدى التروبرياندين لابد أن يتم أساسا برضى وقبول أسرة الفتاة إلا فى حالات محددة كأن تكون الفتاة مخطوبة منذ صغرها لأحد اقاربها ، أو أن تكون سمعة الفتى الذى اختارته غير حميدة أو أن يكون الفتى منتميا إلى طبقة اجتماعية لا تتعادل مع الطبقة المنتمية اليها أسرة الفتاة وتمنع أسرة الفتاة ذلك الزواج غير المتكافئ ولو بالحرب إذا لزم الأمر .

المبحث السابع :

بيوت العزاب والحياة الجنسية الخاصة لدى الأستراليين :

أوضحت دراسة « مالينوفسكى » المشار إليها أن بكل قرية من القرى التروبرياندية توجد عدة بيوت مخصصة لممارسة العلاقات الجنسية بين العزاب من الفتيان والفتيا خصوصا من لم يسبق لهم الزواج، ويختلف عدد البيوت من قرية لأخرى، وذلك بحسب تعداد القرى ونسبة الشباب بينهم، وقد تقام تلك البيوت داخل نطاق القرية أو بالقرب من ساحتها الرئيسة أو تقام خارج ذلك النطاق.

أما عن حكمة إقامة أو وجود تلك البيوت فيقرر « مالينوفسكى » أنها تقام تمكينا للفتيان والفتيات ممن تربطهم علاقات غرامية من الالتقاء فى مكان آمن يستطيعون خلاله إشباع رغباتهم الجنسية.

- ولكن هل يتم ذلك الإشباع بغير تنظيم أو ضوابط ؟!

بالقطع لا.. لأن « مالينوفسكى » يقرر أن ذلك الإشباع يتم وفقا لقواعد وأصول مرعية ومحترمة من الجميع، سواء فى ذلك العائلات أم الشبان أم الشابات أنفسهن، فلا الأهالى يعتبرون ذلك الإشباع شيئا مهينا، ولا أحد من الشبان يعتدى على عشيقة غيره، ولا من حق هذه العشيقة أيضا أن تطمع ولو بالرغبة فى غير عشيقها مادامت تأتيه فى داره أو فى ركنه المخصص له.

إذن ما القواعد التى تنظم العلاقة الجنسية بين البالغين من العزاب فى بيوت العزاب ؟!

يمكن لنا توضيح تلك القواعد المنظمة للعلاقات الجنسية داخل بيوت العزاب، على النحو الآتى :

١ - إن كل بيت مخصص لعدد معروف ومحدد من العشاق، ويختلف ذلك العدد بحسب اتساع كل بيت، وإن كان ذلك يتراوح عادة ما بين زوجين وأربعة أزواج من العاشقين.

٢ - إن لكل عاشقين ركنا خاصا، به سريرهما الذى ينامان عليه باستمرار، ولا يمكن لأحد غيرهما استخدامه.

٣ - إن لكل فتى فتاته المعروفة، ولم يلاحظ « مالينوفسكى » أنهم يتبادلون الفتيات فيما بينهم، بل على العكس من ذلك حيث يوجد اتفاق غير مكتوب بين جميع المقيمين فى كل بيت حتى يحترم كل واحد منهم بموجبه كل الخصوصيات والحقوق الجنسية لغيره من الشبان فلا يغازل شاب فتاة جاره أو يراودها عن نفسها أو حتى يسمح لنفسه بمراقبتها فى لحظة غرام، وإلا اعتبر ذلك جرما ما بعده جرم.

٤ - الإقامة فى بيوت العزاب معروفة الهدف، والصلة بين الفتيان والفتيات إنما تعتمد أصلا على الحب الذى يجمعهما والذى كثيرا ما أشعل الرغبة لدى كل منهما فى أن يكون للآخر وبصفة شرعية ومقبولة من المجتمع.

٥ - إذا ما قرر الفتى أن يتزوج من فتاته، فمن واجبه - فى هذه الحالة وحتى تنتهى إجراءات الخطبة والزواج - ألا يتناول معها أى طعام أو شراب ؛ لأن ذلك يعد فى نظر المجتمع التروبرياندى خروجا على الآداب العامة، فضلا عما فيه من تحقير للفتاة التى قرر الزواج منها (١١).

٦ - ولكن ماذا يحدث لو فض المحبان ما بينهما من علاقة غرامية أو جنسية، ففى هذه الحالة يجب على الفتاة أن تهجر بيت العزاب، وعليها أيضا وفى معظم الأحوال أن تبحث لنفسها عن عشيق آخر ؛ لتقيم معه فى بيت العزاب الذى يقيم فيه عسى أن يعوضها عن حبها الضائع وإلا فعليها بالسحر والسحرة حتى يُرد إليها حبيبها رغم أنفه.

★ ★ ★

المبحث الثامن:

أنماط الترويح وأشكاله لدى القبائل الأسترالية:

يعتمد الترويح لدى الأستراليين الأصليين بصفة أساسية على الألعاب التى يمارسها الأطفال والنساء والرجال، وبعض تلك الألعاب فردى وبعضها الآخر جماعى، ومن الألعاب الفردية لعبة « مهد القط » و«النحلة » وألعاب « التظاهر والتقليد » وكذلك لعبة « الويت ويت » التى تشبه كثيرا رمى الرمح عند البداوة العربية وتلك التى تمارس فى الوقت الحاضر.

هذا وقد عرف الأستراليون ألعاب الكرة والمصارعة والمبارزة بالسلاح والسباحة والعدو وما إليها.

ولقد ذكر « ج. و. بيج » خلال مؤلفه عن «الشعوب البدائية» المشار إليه، أن الأستراليين الأصليين يقضون معظم لياليهم فى حفلات راقصة يسمونها «كروبرى»، وأن تلك الحفلات تقام فى الليالى التى يكتمل فيها القمر وقد تظل مقامة مادام البدر مكتملا، ويشارك فى الغناء والرقص معظم أفراد العشيرة من شيوخ وأطفال ونساء وشبان وإن كان للشباب دوما النصيب الأكبر فيها حيث يقومون بالرقص والغناء والتمثيل بعد أن يخططوا أجسامهم برسوم ذات أشكال خاصة (١٢).

ويضيف « بيج » أن تلك الحفلات الراقصة كثيرا ما تكون تعبيرا عن عادات وتقاليد الأستراليين القدماء، وقد تكون كذلك ذات طابع دينى أو محتوى سحرى على الرغم من هدفها الظاهرى وهو التسلية وإدخال البهجة والسرور على المشاركين فيها (١٣).

★★★

المبحث التاسع:

شعائر الموت والسحر عند عشائر الأستراليين:

ذكر « بيج » خلال مؤلفه المشار إليه، أن العادة قد جرت لدى معظم القبائل الأسترالية على دفن جثة المتوفى عقب الوفاة مباشرة، ولو أن هناك بعض القبائل

التى تترك الجثة معرضة للشمس والهواء حتى تبلى فى مكان ما، قد يكون فوق شجرة، كما قد تلجأ بعض القبائل الأخرى إلى حرق جثة الميت (١٤).

أما كيف يعبر الأستراليون عند حزنهم على موتاهم.. فلهم فى ذلك طرق شتى.. أبسطها حلق شعر الرأس أو صبغه، وأكثرها تعقيدا هو إحداث جروح عميقة فى أماكن متفرقة من الجسم حتى تدميه.

وأرواح الموتى فى اعتقاد الأستراليين الأقدمين.. قد ترحل فى اتجاه الغرب.. وقد تبقى هائمة فى الجو.. أو قد تعيش تحت الماء أو فوق الشجر.. وربما تقمصت شخصا آخر وعاشت من خلاله.

كان ذلك عن الموت.. فماذا عن السحر؟!

يؤكد « بيج » خلال مؤلفه المشار إليه أن للسحر - الأبيض أو الأسود - دورا هاما فى حياة الأستراليين، شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب البدائية.. وأن ذلك السحر أمر مخالط لكل أعمالهم اليومية تقريبا، ويستطيع كل فرد أن يمارس النوع الضار منه.. وهو المعروف « بالسحر الأسود ».. ويقصد به إيذاء الأعداء، خاصة منهم من كان عدوا لممارسى السحر سواء كانت تلك العداوة شخصية أم عشائرية.

كما أن هناك نوعا آخر من السحر لا يمارسه إلا المتخصصون أو المحترفون ويسمى : « السحر الطبى أو التطبيبى » وهو ذو طقوس خاصة ومعقدة ويهدف ذلك النوع من السحر - كما يزعمون - إلى إعادة الحياة ومداواة الأسقام.

هذا وقد عرفت القبائل الأسترالية، شأنها فى ذلك شأن قبائل صحراوية (*) كثيرة غيرها، عرفت استنزال الغيث عن طريق الممارسات السحرية.

★ ★ ★

(*) وهو ما يعرف لدى البداوة العربية المسلمة بصلاة الاستسقاء .

المصادر

(١) انظر : J. W. PAGE, Primititve Races of to - day, 1950 .

(٢) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على ما كتبه الأستاذ ف. جوردن تشايلد ، أستاذ علم الحفريات الأرووربية فيما قبل التاريخ بجامعة لندن ضمن مقاله عن « الصور الأولى للمجتمع » ضمن سلسلة العلم للجميع والمُتَرْجَمة بمعرفة دار التحرير للطبع والنشر - القاهرة - ١٩٦٣ .

(٣) هذا ويمكن لمن يريد الاستزادة حول الأستراليين الأصليين أن يعود إلى المؤلف القيم لـ ج و . بيج عن الشعوب البدائية - مرجع سابق ص ص ٥٩ - ٩٦ .

(٤) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على الدراسة الحقلية التى قام بها و.ل وورنر لقبيلة المورنجن فى الفترة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٢٩ ، والتى تضمنها كتاب :

W.L Warner, A Black Civilization , A Social of an Australian Tribe, Harper and Brothers, 1958 .

(٥) Raymond, Firht, We The Tikopai: A Socidogical stady of Kinship in Polynesia, London, 1957 .

(٦) المصدر السابق ، ص ص ٦ - ١٣ .

(٧) نفس المصدر السابق ، ص ص ١٤ - ١٥ .

(٨) انظر : B. Malinowski, The Sex Life of Sovages, London, 1939.

(٩) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(١٠) بيج - مرجع سابق ص ٤١ .

(١١) بيج - المرجع السابق ، وانظر كذلك - دكتور صلاح الفوال . دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ٤٤ - ٤٧ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ص ٤٢ -٤٣ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ص ٤٨ - ٥٠ .

★★★

الفصل الرابع

مجتمع الأندمان الآسيوى

- مقدمة حول مجتمع الأندمان الآسيوى .
- طرق الزواج عند مجتمع الأندمان .
- الاحتفال بالبلوغ عند الأندمانيين .
- شعائر الموت ومعتقداته وطقوسه عند الأندمانيين .

مقدمة حول مجتمع الأندمان الآسيوى

تقع مجموعة جزر الأندمان Andaman بين خطى عرض ١١ درجة، ١٣ درجة شمالا، وخط طول ٩٢ درجة شرقا عند خليج البنغال، وكانت تلك الجزر حتى وقت قريب تابعة للهند، وتتحد هذه الجزر فى جزيرتين.. الأولى تسمى « الأندمان الكبرى» والثانية تسمى : «الأندمان الصغرى » (*).

وفى إحصاء أجرته حكومة الهند عام ١٩٠١ بلغ عدد سكان جزر الأندمان حوالى ألفى نسمة، أما عددهم اليوم فقد جاوز الأربعين ألف نسمة، تضمهم اثنتا عشرة قبيلة أو أكثر قليلا، حيث تنفرد كل واحدة منها بموطنها ولغتها وعاداتها الخاصة بها، كما تنقسم كل قبيلة إلى عشائر وأفخاذ ولكل منها ما يميزها من الخصائص والسمات.

هذا وقد عرف الرحالة العرب جزر الأندمان ووصفوها وصفا دقيقا منذ أوائل القرن التاسع للميلاد. وقالوا عن أهلها : « إنهم سود الجلود، جعاد الشعر، وفى عيونهم وفى قسماتهم ما يبعث الرعب فى القلوب وهم لا يعرفون السفن، وهذا فضل من الله عظيم..!! » (١).

ويعتمد سكان جزر الأندمان على الموارد الطبيعية المتمثلة فى البحر والغابات، فهم يستخرجون من البحر الأسماك والترسة، ويحصلون من الغابات على الفواكه

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على ما أورده الأستاذ ف. جوردن تشايلد ضمن المرجع المشار إليه قبلا ، وعلى ما ذكره أيضًا «رادكليف براون» ضمن مؤلفه عن «الأندمان» الذى ضم نتائج دراستة الحقلية عن «الأندمان» عام ١٩٠٩ .

والخضروات وعسل النحل، كما يأكلون السحالى والثعابين والقطط والفئران، وذلك للنقص الشديد فى بقية الحيوانات وخصوصا الثدييات منها.

★ ★ ★

المبحث الأول:

طرق الزواج عند مجتمع الأندمان

الزواج هناك يتم بالطريقة التقليدية التي تبدأ بتعلق فتى ما بفتاة معينة فيسعى أهله لتزويجه منها، عن طريق إيفاد رسول إلى أهلها للاتفاق على التفاصيل، وبعد ذلك تتبادل الأسرتان الهدايا حتى يتم الزفاف على أضواء المشاعل ووسط حفل راقص يضم أهل العريس والعروس كما يضم الأصدقاء كل فى ناحية، ثم ما يلبث أحد كبار السن أن يقف فى جو من الإجلال والمهابة مخاطبا العروس مرة والعريس مرة أخرى ناصحا لهما بالإخلاص والوفاء والحب، ومنبها العروس بالذات ؛ حتى لا تغفل عن مراقبة زوجها ؛ كى لا يقع فى حب غيرها، ثم ما يلبث الجميع أن ينخرطوا فى بكاء طويل عالى الأصداء، ولا يملك العروسان إزاء كل هذه المظاهر، غير الخجل الشديد الذى قد يدفع بالعريس إلى محاولة الفرار من جوار عروسه ولا يفشل محاولاته تلك غير منع أصدقائه له وتضييق الخناق عليه ؛ حتى لا يحاول الفرار مرة أخرى(٢).

ولا ينقذ الموقف غير ذلك الرجل المسن المهيب عندما يأخذ يد العروس ويضعها حول عنق العريس لعدة دقائق يجلس بعدها العريس على حجر عروسه بضع دقائق أخرى، ثم ينتقل العروسان بعد ذلك بكل الخجل إلى كوخهما الجديد المزين بالطين الأبيض (٣).

★ ★ ★

المبحث الثانى :

الاحتفال بالبلوغ عند الاندمانيين :

هذا ويحتفل الأندمانيون ببلوغ الشبان والشابات مبلغ الحُلمُ، حيث يقيمون لهم الحفلات والموائد التى تضم كل ما لذ وطاب، وإن كانت طقوسهم تحرم تناول بعض الأطعمة بصفة عامة، وتوصى المحتفى بهم بعدم الإسراف فى أكل الأصناف الشهية الممدودة على الموائد (*).

★ ★ ★

المبحث الثالث :

شعائر الموت ومعتقداته وطقوسه عند الأندمانيين :

للموت لدى الأندمانيين شعائر خاصة ؛ فخبر وفاة أى واحد من السكان ينتشر بسرعة وتتجمع النسوة حول الجثة.. وينخرطن فى بكاء حار ومضن ونحيب مُدو، وبعد أن يغلبهن الإعياء ينصرفن ؛ ليدخل الرجال ويجلسوا حول الجثة ويبكوا، ثم ما يلبث كل البالغين من أفراد قبيلة المتوفى أن يلطخوا أجسامهم بنوع معين من الطين، أما أقارب الميت وأفراد أسرته وأصدقاؤه فيتميزون بوضع بعض من الطين فوق رءوسهم علاوة على ما سبق أن لطخوا به أجسامهم.

ويعتقد الأندمانيون أن الأروح تعيش فى الغابات والبحار، وهى التى تسبب المرض للإنسان، لذلك فهم يغضبون كثيرا ويفقدون أمانهم النفسى عندما يصاب أحدهم - وخصوصا إذا ما كان شابا - بمرض قد يؤدى إلى وفاته ويعتقدون أن الأرواح الشريرة هى التى قتلته، وقد يعبرون عن ذلك الغضب بصب اللعنات على تلك الأرواح الشريرة تارة، وتارة أخرى بنزع بعض الأشجار (٤).

(*) لا يختلف بدو « الأندمان » كثيرا عن جيرانهم فى الممارسات التى يتعرض لها الشباب وهم يعبرُون مرحلة الطفولة إلى مرحلة الفتوة والشباب

ويظل جميع أعضاء أسرة الميت يقظين يبكون ويترنمون بأغان حزينة تستمر حتى صبيحة اليوم التالى، وخصوصا إذا ما رؤى تأجيل دفن الجثة لسبب أو لآخر، وذلك اعتقادا منهم أن تلك الترانيم الحزينة تطرد الأرواح الشريرة التى تجلب لهم المرض والوفاة (*).

وللأندمانيين طرقهم الخاصة سواء فى إعداد الجثة للدفن أم بالنسبة لمكان الدفن ذاته، فهم مثلا يحلقون شعر رأس الجثة ويزينون الجسد بخطوط رفيعة من الطين الأبيض ودهان أحمر اللون، ويُجلسون الجثة القرفصاء على أن تكون قبضتا يد المتوفى ملاصقتين لخديه، ثم تلف الجثة فى حصيرة وتربط الحصيرة بالحبال، وبعد إلقاء نظرة الوداع الأخيرة، يقوم واحد من الرجال بحمل الجثة فوق ظهره فى موكب مهيب لا يسمح للنساء بالاشتراك فيه، ثم يُوارى الجثمان فى مثواه الأخير الذى يكون عادة واحدا من اثنين، إما تحت الأرض أو فوق الأشجار، والطريقة الثانية - أى : الدفن فوق الأشجار - لا تتبع إلا مع شاب أو فتاة فى مقتبل العمر، وبعد إنتهاء مراسم الدفن يعود أهل الميت ؛ ليأخذوا حاجياتهم وممتلكاتهم ويهجروا مكانهم الأصلى هجرة مؤقتة ؛ حتى تنتهى فترة الحداد التى قد تستمر عدة أشهر يظل خلالها أصدقاء الميت وذووه يلطخون أجسامهم بالطين ويكفون عن كل صور اللهو والزينة وعن أكل أنواع معينة من الأسماك ولحم الخنزير (٥).

أما كيف تنتهى فترة الحداد الطويلة، فيتم ذلك عن طريق قيام بعض الأشخاص المقربين من أهل الميت بحفر القبر وإخراج عظام الميت ثم يغسلوها فى البحر محاطين بحفل جنائزى راقص يشترك فيه كل أهل المتوفى من الرجال، ثم يتجهون بتلك العظام إلى مقارهم الأصلية لتستقبلهم النسوة بالبكاء والعويل، ثم تزين

(*) ذكر "ج و بيج" خلال كتابه عن « الشعوب البدائية فى الوقت الحاضر » أثناء حديثه عن الأندمانيين. أنهم يدفنون موتاهم فى البقعة التى يقيمون فيها ويضعونهم فى وضع الجلوس ويلفون أجسادهم بأوراق الأشجار، ثم يهجرون المخيم لمدة ثلاثة أيام يعودون بعدها ليخرجوا جسد الميت ويغسلوه فى البحر ثم يأخذوا عظامه ويصنعوا منها عقودا يلبسها الأقارب والأحباب على سبيل التذكار، أو الحماية، ويعتقدون أنها تشفى الأوجاع والأمراض، كما يعلقون جماجم الموتى حول الأعناق كدلالة على إعزازهم لموتاهم .

الجمـجمـة وعظام الفكين بالطين الأبيض والطلاء الأحمـر، ويُعـد لكل من عظام الفكين والجمجمة رباط ؛ حتى يتيسر لأى من أقرباء المتوفى أن يلف أيهما حول رقبتـه، أما بقيـة العظام فإنها تحفظ بعد طلائها داخل الكوخ. وذلك لاعتقاد الأندمانيين بقدرة هذه العظام على الوقاية من الأمراض بل وعلى الشفاء منها.

والعلامة البارزة لانتهاء فترة الحداد لدى الأندمانيين هى أن تقام حفلة غنائية راقصة تستمر حتى الصباح يزيل خلالها أهل المتوفى وخلصاؤه الطين من فوق أجسادهم ثم يطلونها باللونين الأحمر والأبيض.

★ ★ ★

المصادر

(١) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى . مرجع سابق ص ص ٥٥ - ٥٨ .

(٢) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى . الطبعة الأولى - مصدر سابق - ص ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .

(٣) انظر : R.Radeliffe - Broun, The Andaman Islanders, Cambrige, 1933.

(٤) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق - ص ٣٥٥ .

(٥) للاستزادة انظر : J.W.PAGE Primative Races of to - day op. cit, p. 29 .

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - الطبعة الأولى ، ص ٣٥٧ .

★★★

الفصل الخامس

عشائر وقبائل الإسكيمو

- مقدمة حول عشائر الإسكيمو .
- الخصائص المجتمعية لعشائر الإسكيمو .
- الزواج والأسرة عند قبائل الإسكيمو .
- تقسيم العمل لدى عشائر الإسكيمو .
- وأد الأطفال لدى مجتمع الإسكيمو .
- الثأر لدى مجتمع الإسكيمو .
- حقوق الصيد وقواعده لدى عشائر الإسكيمو .
- الاحتفالات والأعياد لدى مجتمع الإسكيمو.
- عالم الأرواح عند عشائر الإسكيمو .

مقدمة حول عشائر الإسكيمو

تعيش الغالبية العظمى من عشائر الإسكيمو Eskimos على شواطئ البحار، بينما تتوغل قلة منهم فى الأرض تجاه الجنوب مع فصل الخريف، ثم ترتد تجاه الشمال مع الربيع حيث تصطاد غزال الكاريبو، بينما يتركز اهتمام بدو الشواطئ من الإسكيمو فى صيد عجل البحر والحوت الأبيض والفقمة وغيرها من الثدييات البحرية (*).

وهم يأكلون صيد البحر نيئا، ويتخذون خيامهم وملابسهم من جلد هذه الحيوانات وفروها، وهم لا يلجأون إلى الخيام إلا فى فصل الصيف القصير، أما فى الشتاء فإنهم يأوون إلى بيوت الثلج التى صنعوها بإحكام دقيق ومهارة فائقة لدرجة أن كل ما فى بيوت الثلج من أدوات وأثاث مصنوعة هى الأخرى من الثلج.

ويرحل الإسكيمو من مكان لآخر بزلاجات تجرها الكلاب التى تجد منهم أعظم الرعاية والعناية (**).

★ ★ ★

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على ما أورده الأستاذ ف. جوردن تشايلد ضمن المرجع المشار إليه قبلا . وعلى الدراسة الحقلية للإسكيمو التى قام بها الأستاذ فرانز بواس عام ١٨٨٣ ، وعلى ما كتبه « ج . بيج » فى مؤلفه عن الشعوب البدائية المشار إليه قبلا كذلك ، وعلى ما سبق أن كتبناه عند حديثنا عن سكان الصحارى الجليدية ضمن كتابنا « تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية » مرجع سابق .

(**) تعنى كلمة « الإسكيمو » أكلة اللحم النيئ ولا يرتاح الإسكيمو كثيرا إلى هذه التسمية أو يسعدون بها لذلك يسمون أنفسهم « أنوت » ومعناه الرجال .

المبحث الأول:

الخصائص المجتمعية لعشائر الإسكيمو:

مجتمع الإسكيمو من أشد المجتمعات البدوية العشائرية تماسكا وتعاونا، ولا يتردد الفرد فيه عن بذل العون لأخيه، ويعتبر كل منهم أن ما زاد عن حاجته إنما هو ملك للجماعة المباشرة التي ينتمى إليها، بل هى ملك لمجتمع الإسكيمو كله.

والعائلة لدى الإسكيمو تعتبر هى حجر الزاوية فى البناء الاجتماعى ؛ لأنها وحدته الأساسية والمبرزة هناك، وهى تتكون من الأب وزوجته، وأحيانا زوجاته وأولاده وأقاربه الآخرين الذين يعولهم، وخلال شهور الشتاء الطويلة تجتمع العديد من الأسر وتعيش معا فى مكان واحد، وليس معنى هذا أنهم ينتظمون فى عشائر أو قبائل لها تأثير واضح وفعال على مختلف العائلات أو الأسر، وإنما تظل لكل أسرة أو عائلة شخصيتها المتميزة ورئاستها المستقلة، وإن كان يبرز إلى جوارها أحيانا، بعض الزعامات وخصوصا تلك التى تمارس نفوذها عن طريق الطب والسحر، ومن أبرز الخصائص النفسية والاجتماعية لدى مجتمع الإسكيمو أنهم قوم مسالمون ومحبون للنظام، ويميلون للبساطة والصراحة والمرح فضلا عن أمانتهم الشديدة وكرمهم المفرط (*).

هذا وقد ظل الإسكيمو وثنيين حتى أوائل القرن الثامن عشر، حين وفدت عليهم العديد من البعثات التبشيرية التى لم تكتف بتعليم الإسكيمو أصول الدين المسيحى ولا مبادئ القراءة والحساب فقط، ولكن استتبع تلك البعثات غزو سياسى وحضارى واقتصادى، وإن كان لم ينل الإسكيمو من ذلك كله سوى العديد من الأمراض والموبقات التى أفسدت عليهم حياتهم (١).

★ ★ ★

(*) لا يختلف الإسكيمو بدو الصحراء الجليدية فى ذلك عن أقرانهم بدو الصحراوات الجافة اختلافا كبيرا ، بل وتكاد خصائصهم الاجتماعية والنفسية أن تتطابق أو تتماثل وتتشابه وبدرجة كبيرة .

المبحث الثانى :

الزواج والأسرة لدى عشائر الإسكيمو :

تخطب الفتاة وهى طفلة لطفل مثلها ولكن الزواج لا يتم فعلا إلا بعد أن يكبر الولد والبنت ويصبحا قادرين على تحمل مسئولية الحياة الزوجية، وجرت العادة عند الإسكيمو أن يعيش الزوجان فى منزل أسرة الزوجة ويظلا كذلك حتى يتوفى والداها وبعدها يستقلان بمسكنهما، وأثاث بيت الزوجية عندهم لا يخرج عن أدوات الصيد - الخاصة بالرجل - وسكين ومصباح وبعض أدوات المطبخ.

ونظام الزواج السائد عندهم هو نظام الزواج المونوجامى أى : « زوجة واحدة للرجل الواحد »، ولكن نظام تعدد الزوجات معروف عندهم وإن كان ضيق الانتشار، ومن علامات مودة الصديق لصديقه عندهم أن يعيره زوجته لمدة ما تطول أو تقصر تبعا لامتداد حبل الوداد بين أطراف تلك العلاقة.

وليس الصديق وحده هو الذى باستطاعته أن يستمتع بزوجة أحدهم، ولكن الضيف أيضا يمكن أن يكون له نفس الحق، خصوصا إذا ما كان مضيفه متزوجا بأكثر من زوجة واحدة، هذا وتوجد صور أخرى لتبادل الزوجات بين الأصدقاء والمتزوجين، ويصل بعض هذه الصور إلى حد الإلزام عندما تفرض عيهم تقاليدهم الدينية ذلك فى مناسبات بعينها (*).

وهذا كله لا يمنع أن يعامل الزوج زوجته أو زوجاته معاملة طيبة ؛ وإلا فعليها أن تغادر مسكنه ويكون الطلاق واقعا لا محالة، وفى كثير من الأحيان تحتفظ الأم بأطفالها بعد الطلاق (٢).

★ ★ ★

(*) أوضح ج . و . بيج فى مؤلفه المشار إليه ص ٢٧٠ ، بأن المرأة فى مجتمع الإسكيمو يحق لها فى بعض الأحوال أن تتزوج بأكثر من رجل واحد وفى وقت واحد ، وهذه ظاهرة صارت نادرة الحدوث عند الإسكيمو الآن .

المبحث الثالث:
تقسيم العمل لدى عشائر الإسكيمو:

تقسيم العمل لدى الإسكيمو قائم على أساس جنسى، حيث لاحظ « بواس F.Boas » أن الرجل يختص أساسا بصيد الحيوانات، ويسوق مركبة الجليد أثناء رحيل الأسرة من مكان إلى آخر، كما يقوم بصناعة الأدوات اللازمة للصيد، وهو مسئول أيضا عن بناء مسكن الأسرة شتاء وخيمتها صيفا، كل هذا فضلا عن واجبه الرئيس فى إطعام زوجته وأطفاله وأقاربه الذين بغير عائل، علاوة عن مسئوليته فى إطعام كلابه وحيواناته (٣).

هذا عن الرجل أما عن المرأة فهى تقوم بكل الأعمال المنزلية ابتداء من طهى الطعام حتى حياكة الملابس، وصناعة الخيام وإصلاحها، وتربية أبنائها، ورعاية كلابها وماشيتها... إلخ (٤).

★ ★ ★

المبحث الرابع:
وأد الأطفال عند عشائر الإسكيمو:

لاحظ بواس أن قبائل الإسكيمو تمارس عادة وأد الأطفال، وخصوصا الإناث منهم (*)، إلا إذا كان الرجل أو المرأة أرمل فإنهم يئدون الأطفال بغير تمييز، وتمثل سوء الحالة الاقتصادية أهم سبب لوأد الأطفال عند الإسكيمو، ولو أن هناك سببا آخر يتصل بصحة الأم وعدم قدرتها على إرضاع طفلين فى وقت واحد، وخصوصا أن إرضاع الطفل يطول عندهم لأكثر من عامين، وهى عملية تشق على الأم وخاصة مع مهامها الكثيرة الأخرى (٥).

★ ★ ★

(*) لاحظ التشابه بين أسباب الوأد وطريقته عند الإسكيمو والبداوة العربية .

المبحث الخامس :

الثأر لدى مجتمع الإسكيمو :

يلجأ الإسكيمو إلى أخذ الثأر بالدم كوسيلة لتنفيذ قوانينهم وأعرافهم غير المكتوبة ضد أى خارج على إرادة الجماعة أو معتد على حق من حقوقها أو حقوق أى من أبنائها، فإذا ما أساء واحد لآخر فعلى المعتدى عليه أن يقتل المعتدى. وفى هذه الحالة يكون من حق أقرب الناس إلى القتيل أن يثأر له وهكذا (٦).

والثأر من القاتل ليس حقا فقط بل هو شىء واجب الأداء إما من القاتل نفسه أو من أحد أفراد أسرته الأقربين إذا ما تعذر الثأر من القاتل شخصيا لسبب أو لآخر، وهكذا تستمر دورة الثأر (*). جيلا بعد جيل ولا يوقف من حدتها غير رغبة أكيدة لدى أطراف الثأر على إنهاء حالة الصراع المحتدم بينهما وفتح صفحة جديدة من الصفاء والوئام بينهما (٧).

★ ★ ★

المبحث السادس :

حقوق الصيد وقواعده لدى عشائر الإسكيمو :

الصيد لدى مجتمع الإسكيمو تحكمه مجموعة من القواعد والحقوق يعرف خلالها كل فرد ما له وما عليه، وعلى سبيل المثال فإذا ما اصطاد شخص ما فقمة (**). فإنها تكون ملكا خالصا له ولأسرته إلا فى حالة وجود مجاعة فإن من واجبه أن يعطى كل أسرة فى المجتمع جزءا من صيده (***).

أما إذا اصطادت جماعة من الرجال أحد عجول البحر فإنهم يقسمونه عدة أجزاء متساوية تتناسب وعددهم جميعا، على أن يكون من حق الشخص الذى سدد

(*) نظام الثأر لدى عشائر الإسكيمو يكاد يتطابق مع نظام الثأر لدى البدو فى الصحراوات الجافة، ومنهاالبلدان العربية وغيرها .

(**) أحد الحيوانات البحرية هناك .

(***) وهم الذين يعيشون فى الصحراوات السهلية أو الجليدية .

أول طعنة فى الفريسة أن يختار أولا، الجزء الذى يريده علاوة على حقه المطلق فى رأس الفريسة الذى لا ينازعه فيه أحد، أما إذا كانت الفريسة حوتا فإن المناسبة تعتبر مناسبة قومية تقام لها الاحتفالات فى «بيت الغناء» مع تقسيم الحوت على كل أسر وعائلات المجتمع (٨).

★ ★ ★

المبحث السابع:

الاحتفالات والأعياد لدى عشائر الإسكيمو:

يحب الإسكيمو أن يحتفلوا بمناسباتهم صيفا فى الهواء الطلق، وشتاء داخل «بيوت الغناء» (*)، ويقضون ليلتهم عادة بين الرقص والغناء، وأحيانا تقام مباريات لشد الحبل وللمصارعة يشترك فيها القادرون من الرجال.

والاحتفالات قد تقام بمناسبة صيد ثمين كصيد الحوت مثلا، أو عند الأعياد الدينية التى تقام عادة فى الخريف حماية لهم من الأرواح الشريرة التى قد تصيبهم بالمرض أو تودى بحياتهم أو تجلب لهم الحظ السيئ عند الصيد.

وفى خلال الاحتفالات يقوم الرجال بزيارة جميع المساكن وتستقبلهم الزوجات ويلقين عليهم بصحون مملوءة بالهدايا.

وقد لاحظ « بواس » أن الأهالى يتبادلون زوجاتهم أثناء هذه الاحتفالات حيث يقضى كل رجل يوما كاملا فى كوخ المرأة التى اختارها (٩).

هذا ومن الملاحظ كذلك أن تأثير مباريات شد الحبل لا يقتصر على الجانب الترويحى فقط لدى الإسكيمو، بل يمتد ذلك التأثير أيضا ليكون بشير خير أو نذير سوء لديهم، حيث يقسم الأهالى أنفسهم إلى فريقين، مواليد الصيف فى جهة، ومواليد الشتاء فى جهة أخرى، ويبذل كل فريق غاية جهده ليفوز، فإذا ما فاز

(*) وهى بيوت من الثلج أعدت خصيصا لمثل هذه المناسبات ، ويبلغ ارتفاع الواحد منها ١٥ قدما ويبلغ قطر دائرته ٢٠ قدما ويتوسطه عمود من الثلج ارتفاعه ١٥ قدما .

مواليد الصيف هلل الحاضرون واستبشروا خيرا ليس لأن مواليد الصيف قد انتصروا ومواليد الشتاء قد هزموا، وإنما لأن لذلك معنى وحيدا لدى الإسكيمو وهو أنهم يتوقعون شتاء معتدلا فى ذلك العام، وطبعا لا تخرج تلك العملية عن كونها عملية تفاؤل أو تشاؤم [١٠] !!.

★ ★ ★

المبحث الثامن :

عالم الأرواح عند عشائر الإسكيمو :

الإسكيمو شأنهم فى ذلك شأن شعوب بدوية كثيرة.. يحتل عالم الأرواح عندهم مكانة مبرزة، وفى اعتقادهم أن الأرواح وخاصة الشريرة منها تحيط بدنياهم وتتحكم فى كل صغيرة وكبيرة لديهم ابتداء من الأحوال الجوية سوءا أو حسنا، حتى توزيع الرزق سعة أو ضيقا.. إلى جانب غير ذلك من الأمور والأحوال الحياتية اليومية وغير اليومية [١١].

لذلك فلابد من جالب أو ضامن لرضاء تلك الأرواح ومانع لغضبتها، أو شاف أو واق من آثارها الضارة على الأقل، لذلك فقد راجت بينهم فئة من مدعى الطب يطلق على الواحد منهم مصطلح « الشامان »، وقد يكون ذلك «الشامان » رجلا أو امرأة لكنه فى كل الأحوال واسع النفوذ، بل يكاد يكون هو صاحب النفوذ الوحيد نظرا لعدم بروز الزعامة بشكلها التقليدى لدى الإسكيمو.

ووظيفة « الشامان » سحرية ودينية معا.. فهو الشافى من الأمراض والعلل.. كل علة على قدر أسبابها، كما أنه الوسيط بين الإسكيمو وبين الأرواح جلبا للخير ومنعا للضر [١٢].

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق . ص ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٣) المصدر السابق ص ص ٣٥٩ .

(٤) انظر : F. Boas, The Central Eskimo, A Bison Book , 1946 .

(٥) انظر دكتور على إسلام الفار - الأنثروبولوچيا الاجتماعية - الجزء الأول - الشركة القومية للتوزيع - القاهرة ١٩٦٨ ص ص ٣٣ - ٥١ .

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مرجع سابق ، ص ٣٦٠ .

(٧) للاستزادة أنظر . دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق - ص ص ٦٦ - ٦٧ .

(٨) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق ، ص ٣٦٠ .

(٩) أنظر بواس Boas - مصدر سابق - ص ص ١٨ - ٢٨ .

(١٠) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق . ص ٣٦١ .

(١١) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٦١ - ٧٠ .

(١٢) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق .

★ ★ ★

الفصل السادس

عشائر الهنود الحمر وقبائلها

- مقدمة حول عشائر الهنود الحمر .
- أقسام الهنود الحمر .
- هنود السهول ، هنود الغابات ، هنود البحيرات والأنهار.
- أين يعيش الهنود الحمر الآن ؟
- الطوطمية وتقسيم العمل لدى قبائل الهنود الحمر.
  - الطوطمية وأثرها على البناء الاجتماعى عندهم.
  - تقسيم العمل لدى الهنود الحمر ودور المرأة وفقا له.
- الصيد والحرب والفروسية لدى عشائر الهنود الحمر.
  - الصيد
  - الحرب
  - تقاليد القتال وآدابه
- بلوغ الصبى مبلغ الرجال .
- معاملة الطاعنين فى السن عند الهنود الحمر .

مقدمة حول عشائر الهنود الحمر

يطلق اسم الهنود الحمر Red Indians على السكان الأصليين لأمريكا الشمالية، ويرى عدد من الكتاب أنهم ليسوا هنودا كما أنهم ليسوا حمرًا، وما هم إلا عشائر بدائية يتألف منهم السكان الأصليون لقسم من أمريكا، وإن ألوان بشرتهم ليس فيها شيء من الحمرة وإنما تتمايز ألوان بشرتهم وتختلف باختلاف بيئاتهم وقبائلهم، وتتراوح تلك الألوان ما بين الأصفر والأبيض والأسمر والأسود، ولم تكن وجوههم فى يوم ما حمراء أو حتى قريبة من الحمرة (*).

أما من أين وفدت عشائر الهنود الحمر على أمريكا فأمر يختلف فيه الباحثون، وإن كان أقرب الاحتمالات صحة هو أنهم وفدوا إليها من صحراء سيبريا الروسية منذ خمسة عشر ألف سنة.

والسمة الغالبة على حياة الهنود الحمر تشبه إلى حد كبير مظاهر الحياة التى كانت سائدة لدى الصيادين فى العهد أو العصر الحجرى، ومن الهنود الحمر من عاش فى قرى أقاموها، ومنهم من ظل على ترحاله وبداوته، وعلى كل حال فإن الصيد كان ولا يزال قوام الحياة عند المرتحلين والمستقرين ممن بقى من عشائر الهنود الحمر على حد سواء.

وعاش الهنود الحمر فى انتقال دائم ورحلة دائبة، وتواءم كل فريق أو تكيف مع الظروف البيئية السائدة سواء فى ذلك المستقرون منهم أم الرحل، حيث عاش

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على ما أورده الأستاذ « ف . جوردن تشايلد » فى المرجع السابق الاشارة إليه ، وعلى ما كتبه أيضا الدكتور على عبد الواحد وافى ضمن كتابه عن الهنود الحمر – دار المعارف – القاهرة ١٩٥٠ ، وكذلك على ما كتبه «ج.و بيج » ضمن كتابه « الشعوب البدائية » المشار إليه قبلا .

هنود المناطق القطبية حياة الإسكيمو وحذوا حذوهم فى مختلف شئون الحياة، ويعتمدون بصفة أساسية فى معيشتهم على صيد البر والبحر، أما هنود الغابات فقد اتخذوا من خشبها بيوتا ومن لحم حيواناتها طعاما ومن جلود تلك الحيوانات خياما ومن صوفها ووبرها سرابيل تقيهم البرد والحر، أما الهنود الذين أقاموا على الشواطئ فقد برعوا فى صناعة السفن التى تجرى فى البحر بوسائلهم البدائية [١].

★ ★ ★

المبحث الأول:

أقسام الهنود الحمر:

يمكن تقسيم القبائل المختلفة للهنود الحمر إلى الأقسام الثلاثة الرئيسة التالية، وذلك على حسب نمط الحياة السائدة لدى كل منها :

١ - هنود السهول:

وهم الذين يعتمدون على الصيد البرى لحيوانات السهول كمصدر أساسى لسد حاجاتهم، ويحيون حياة بداوة ونجعة، وذلك لأن حيوان السهول بطبعه متنقل ومهاجر، فكان لزاما عليهم أن يرحلوا خلفه ويتبعوه أينما ذهب، وتتألف من هنود السهول أهم قبائل الهنود الحمر.

٢ - هنود الغابات:

وهم الذين يسكنون فى الغابات أو بالقرب منها، ويعتمدون فى سد احتياجاتهم على ما يصيدونه من حيوانات الغابة، ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء أكثر استقرارا من سابقيهم، نظرا لأن الغابات ثابتة بطبعها وبالتالى تكون دورة الحيوان - وهو هدف صياديه - محدودة.

٣ - هنود البحيرات والأنهار:

وهم الذين يقيمون بالقرب من السواحل، ويعتمدون فى معيشتهم على ما يصطادونه من أسماك وخلافه، وطبيعى أن يكون هؤلاء كسابقيهم أهل استقرار نظرا لعدم نضوب معين رزقهم سواء كان نهرا أم بحرا أم حتى بحيرة.

٤ - أين تعيش فلول قبائل الهنود الحمر الآن ؟

تعيش قبائل الهنود الحمر - اليوم - فى مناطق محددة تعرف باسم "Reseruation Areas" تحت إشراف مصلحة الهنود بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث يصل تعدادهم فيها إلى ٧٠٠ ألف نسمة.

ومازال الهنود الحمر يحتفظون بنظمهم وعاداتهم وقيمهم القبلية القديمة، وأهم قبائلهم الموجودة حاليا هى قبائل « نافاهو »، « هوبى »، «بيبلو » و «الأباش » فى ولايتى أريزونا ونيو ميكسيكو، كما توجد قبائل أخرى فى ولايات كاليفورنيا ويوتا ونيفادا وداكوتا الجنوبية حيث توجد قبائل « سيو » (٢).

★ ★ ★

المبحث الثانى :

الطوطمية وتقسيم العمل لدى قبائل الهنود الحمر :

(أ) الطوطمية وأثرها على البناء الاجتماعى لعشائر الهنود الحمر :

يرتكز البناء الاجتماعى لدى الهنود الحمر على أساس القرابة العشائرية، حيث يربط كل أفراد العشيرة رباط قرابة واحد ليس قائما على صلات الدم، وإنما يستمد وجوده على أساس انتماء كل أفراد العشيرة إلى طوطم واحد، وكانت صلة القرابة الدموية التى تربط الابن بأبويه لا تزيد كثيرا على درجة القرابة الطوطمية التى تربط أى فرد بالعشيرة بفرد آخر، وتؤلف كل عشيرة مجتمعا مستقلا منطويا على نفسه معتمدا على أبنائه ومكتفيا بجهودهم فى المدافعة والرزق، ومعتزا بآلهته وتاريخه وتقاليده وعاداته، محتقرا لما سواه من مجتمعات، وينظر لكل غريب عن مجتمعه على اعتبار أنه عدو له.

ولا يخفى ما للطوطمية من آثار مختلفة من أهمها، العمل على تأكيد دور ومكانة كل من العصبية والثأر لدى عشائر الهنود الحمر، والعمل على تثبيتها (٣).

(ب) **تقسيم العمل لدى عشائر الهنود الحمر ودور المرأة وفقا له :**

لا يوجد لدى الهنود الحمر تقسيم للعمل بالمعنى الدقيق، وإن كان تفرغ الرجال منهم لأعمال الصيد والقتال قد وضع أعباء أكثر على كاهل المرأة لدى قبائل الهنود الحمر، حيث تقوم وحدها بكل الأعمال تقريبا سواء داخل المنزل أم خارجه لدرجة أن المرأة لدى الهنود الحمر تكاد تكون هى العامل المنتج الوحيد فى الأسرة، فهى مربية لأولادها وراعية لشئونهم وشئون زوجها ابتداء من إعداد الطعام إلى إعداد الملابس والخيام (*).

هذا فى ذات الوقت الذى تفرغ فيه الرجال لأنبل الأعمال العشائرية فى نظرهم وأكثرها سموا وشرفا ألا وهى أعمال الصيد والقتال (٤) (**).

★ ★ ★

المبحث الثالث :

الحرب والفروسية لدى عشائر الهنود الحمر :

(أ) **الصيد وفنونه :**

واضح من تقسيم العمل أن رجال الهنود الحمر اختاروا أعمال الصيد والقتال، والحق أنهم برزوا فى أعمال الصيد نتيجة لتخصصهم فيها، فكانت لهم أساليبهم المبرزة فى صيد الحيوانات لدرجة أن البعض يرجح استعمالهم لوسائل بدائية للتنويم المغناطيسى للإيقاع بفرائسهم.

(ب) **القتال وأسبابه :**

كان ذلك عن الصيد، أما عن الحرب والقتال، فكان شغلهم الشاغل، لدرجة أن القتال كثيرا ما كان ينشب لأسباب تافهة منها :

(*) ويتشابه ذلك إلى حد كبير مع معتقدات البدو - سكان البوادى - وسلوكياتهم فى الصحراوات الجافة أو الرملية وخاصة العربية منها .

(**) تتشابه تلك الأدوار كثيرا مع قيم البداوة العربية الصحراوية وتقاليدها .

١ - التقاء عشيرتين فى طريق واحد، أو مجرد تجاورهما فى مضارب الخيام كان كفيلا بأن تنشب حروب شرسة بينهما، لا لشىء إلا لإحساس أى من العشيرتين بالإزعاج نتيجة تجاورها مع الأخرى.

٢ - قد تنشب الحرب لمجرد السلب والنهب وخصوصا لسلب ما فى يد الغير من الخيول التى تعد من أعظم نعم الله عندهم وأغلاها قيمة.

٣ - توجد بعض العشائر التى احترفت القتال «كالأباش» مثلا الذين كانوا يستنكفون عن مزاولة أى عمل من أى نوع كان ؛ لأن القتال هو صنعتهم أو حرفتهم الأولى، فعاثوا بين بقية العشائر فسادا ولم يسلم من ضراوتهم أو قسوتهم، أو شرورهم، أو بشاعتهم أحد.

(ج) تقاليد الحرب وآدابها عند الهنود الحمر:

• ولكن هل كانت الحرب تمارس لدى الهنود الحمر بغير تقاليد أو آداب؟!!

والجواب لأول وهلة بالنفى ؛ لأن مختلف عشائر الهنود الحمر كانت تحرص أثناء قتالها على ما يأتى :

١ - إكرام وفادة من يلجأ إليها محتميا بها من أعدائه؛ وربما كان ذلك اللاجئ من صفوف أعدائها الذين تقاتلهم أصلا.

حيث كانت العشيرة توفر لمن يلجأ إليها أثناء الحرب الأمان الكامل، ولا يمكن لأحد أن يؤذيه مهما بلغ أو كان جرمه، أو كانت درجة عداوته لعشيرته، وحتى إذا ما أراد أن يعود إلى عشيرته الأولى مهدت له عشيرة الملجأ، الطريق وسار فى حماية من أجاره حتى يبلغ مأمنه أو مقصده (*).

٢ - احترام غير المقاتلين من الأعداء، كالنساء والأطفال والشيوخ وتحريم إيذائهم خلال الحرب، مهما بلغت وحشية وقسوة المحاربين فى ميدان الصراع أو القتال.

(*) لاحظ ما بين البداوة العربية وبين بداوة الهنود الحمر من تشابه أو تماثل فى موضوع الإجارة أو الحماية أثناء السلم والحرب ، وفى غير ذلك من قواعد القتال وآدابه .

٣ - احترام معاهدات التحالف والتهادن أو المهادنة بين العشائر إلى درجة التقديس، وميثاقهم فى هذا كان ولا يزال قصبة تدخين خاصة، و تعرف تلك القصبة، «بقصبة السلام»، ولا يمكن لأى حادث طارئ أو لأية قوة أن تثنيهم، أو تبعدهم عن ذلك التقديس والاحترام والوفاء بالعهود والمواثيق الحربية العشائرية التى تم إبرامها خلال القتال أو أثناءه أو بعده.

٤ - تحريم القتال ليلا، وفلسفة ذلك، أن القتال نهارا يتيح للجانبين المتحاربين أن يعرف كل منهما قوة الآخر ويكشف خططه ويواجه مكائده وخداعه من جهة، وحتى لا يؤدى القتال ليلا إلى عدم وضوح الأهداف، وبالتالى قد تستباح بعض المحرمات أو الحرمات التى أشرنا إليها قبلا (٥).

★ ★ ★

المبحث الرابع:

بلوغ الصبى مبلغ الرجال لدى عشائر الهنود الحمر:

تحب المرأة من نساء الهنود الحمر أطفالها حبا شديدا، وتحمل الواحد منهم على ظهرها بعد أن تعد له مخدعا خاصا طوال فترة رضاعته، وإذا مات صغيرها تأسى أو تحزن عليه بطريقة غير عادية، وتملأ الدنيا حولها شجنا ونحيبا وعويلا، والأكثر من هذا أنها تحشو سريره الفارغ الذى تحمله فوق ظهرها بالريش وتظل تحمله باكية أياما وشهورا وربما سنوات طويلة (٦).

وحين يكبر الطفل تخرجه أمه من مهده، وتسمح له بالزحف على الأعشاب فى شيء من الحرية والاستقلال، ومتى شب واستطاع المشى والعدو، أطلق له والداه العنان فيذهب للسباحة فى النهر ويرافق والده أثناء صيده فى البوادى، ويبدأ فى سماع قصص الشيوخ عن المعارك التى خاضتها عشيرته وضروب الشجاعة وصنوفها التى أبداها قومه، وأعداد القتلى فى صفوف الأعداء، وكمٌ الأسرى والغنائم والأسلاب التى نالها المحاربون أو حصلواعليها بسهامهم ونبالهم... إلخ.

غيـر أن الغـلام لا يمكنه الانتظام فى سلك الشبـاب أو الرجـال قبل سن السـادسـة عشـرة ؛ لأنه فى هذه الحـالة يكون قد وصل إلى سن المراهقـة وعندمـا يبلغها عليه أن يترك حياة اللعب مع الصغار، ويحاول أن ينخرط مع المحاربين من قومه، إلا أنهم ينكرون عليه ذلك ؛ ويظلون على انكارهم حتى يمتطى الصبى فرسا ويسابق الريح فى طلب صيد برى هائل - وغالبا ما يكون ذلك الصيد جاموسا وحشيا - حتى إذا ما أدركه رماه بسهمه القاتل أكثر من مرة حتى يصرعه ؛ ومنذ هذه اللحظة يصبح الصبى رجلا قادرا على الحب والصيد والحرب [٧].

★ ★ ★

المبحث الخامس :
معاملة الطاعنين فى السن عند الهنود الحمر

من المألوف لدى عشائر الهنود الحمر أنه متى طعن أحد الهنود الحمر فى السن وشاخ أو هرم، أو بلغ من الكبر عتيا، كما قال عبد الله زكريا عليه السلام فى سورة مريم (*)، نقول إذا ما شاخ البدوى الهندى وتعذر عليه الصيد والترحال، أو أصبح غير قادر على القتال والرقص وأصبح عبئا على أولاده وعشيرته، من صار هذا حاله تخلص الجميع منه، والطريقة المتبعة فى التخلص واحدة فهم يأخذونه إلى البادية حيث ينصبون له مظلة ويزودونه بقليل من الطعام والشراب ثم يودعونه وينطلقون لا يلوون على شىء، والعجيب فى الأمر أن ذلك العجوز يرضخ لمصيره راضيا والغريب أيضا أن ذلك الهرم رغم ضعفه وقلة حيلته ولا يبدو مستعطفا ولا متوسلا ولا حتى نادما على ما آل إليه مصيره بعد طول كفاح، ولم لا ؟!.. ألم يفعل هو نفس الشىء مع من هرم من أهله وذويه ؟!! [٨].

★ ★ ★

(*) قال الله تبارك وتعالى على لسان عبده زكريا عليه السلام :
﴿ قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ﴾ (مريم: ٢٤١).

المصادر

(١) انظر دراسة علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ٧١ - ٧٩ .

(٢) انظر دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق ، ص ٣٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

(٥) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع - مصدر سابق - ص ص ٦٩ - ٧١ .

(٦) للاستزادة انظر :

Marden, C. : Minorities in American Society, American Book Company , New Work, 1952.

وانظر أيضا : دكتور عاطف وصفى - الأنثروبولوچيا الاجتماعية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٨ ص ص ١٠٦ - ١١٠ .

(٧) أنظر - سليم كساب - قلادة النحر فى غرائب البر والبحر - الجزء الأول - مطبعة الأمريكان - بيروت - ١٨٩٣ - ص ص ٢٣ - ٣٤ .

(٨) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ٣٦٣ - ٣٦٦ .

★ ★ ★

الفصل السابع

القبائل والعشائر الكندية

- مقدمة حول العشائر الكندية .
- الصيد والزراعة والصناعة والإسكان لدى العشائر الكندية
  - الصيد وأهميته لدى هنود السواحل الكندية .
  - أهمية الزراعة عند العشائر الكندية .
  - صناعة الحراب وأهميتها عند هنود السواحل الكندية .
  - المساكن الدائمة والمؤقتة عند العشائر الكندية .
- أنماط الأسرة والتربية عند العشائر السواحلية .
  - العائلة لدى العشائر السواحلية الكندية .
  - أشكال التربية عند هنود السواحل الكندية .
- الزواج .. أنماطه وكيف يتم لدى العشائر الكندية .
- الطبقات أساس البنية الاجتماعية لدى هنود السواحل الكندية : «النبلاء - الشعب - الرقيق»
  - الإرث وطرقه لدى العشائر الكندية .
- الحفلات ودورها فى تدعيم البنية الاجتماعية لهنود السواحل الكندية .
- الموت وشعائره عند هنود السواحل الكندية .
- الطوطمية والكهانة عند العشائر الكندية .

مقدمة حول العشائر الكندية

تعيش هذه القبائل فيما كان يعرف بكولومبيا البريطانية، ويطلق عليها هنود السواحل تمييزا لها عن غيرها من القبائل الهندية من جهة، ولأنها تعيش فى المناطق الساحلية، إما فى جزر تمتد بحذاء الساحل، أو فى المرتفعات الشاهقة المحيطة بتلك السواحل من جهة أخرى.. لذلك كان البحر هو أسهل طرق المواصلات وأكثرها أمانا للتواصل فيما بينها.

المبحث الأول:

الصيد والزراعة والصناعة والاسكان لدى العشائر الكندية:

(أ) أهمية الصيد لدى هنود السواحل:

وهنود السواحل الكنديون - بدو صيد - يركبون البحر بحثا عن صيدهم.. الذى يعد من أهمه: كلب الماء، وعجل البحر ذو الفراء، وعجل البحر ذو الشعر وسبع البحر، والدرفيل والحوت، علاوة على سمك السالامون الذى توجد منه أنواع عديدة والذى كان يتم صيده فى مواسم متفرقة أثناء هجرته من البحار المالحة إلى الأنهار الحلوة لوضع بيضه هناك (*).

كما توجد إلى جوار السالامون أنواع أخرى أهمها الرنجة والحلبوط وإن ظل السالامون هو صيدهم الأوفر، وغذاؤهم المفضل كذلك.

(*) يمثل هنود السواحل الكنديون نمطا فريدا من أنماط البداوة وهى بداوة السواحل ، ويعد الصيد من البحر أهم حرف هذا النمط ، والذى لا يشاركهم فيه سوى بعض القبائل الخليجية العربية ، فضلا عن بعض بدو سيناء الجنوبية والشمالية بجمهورية مصر العربية.

كما برع هنود السواحل فى صيد أسماك المحار والقواقع وعقارب الماء وذلك بعد انحسار الماء أثناء موجة الجزر عنها، ويأكلون من ذلك الصيد ما يشاءون ثم يجففون الباقى لمبادلته من خلال المقايضة فيما بعد بما يحتاجون إليه مع القبائل الأخرى، خصوصا تلك التى تقيم بداخل البلاد.

(ب) أهمية الزراعة لدى هنود السواحل:

هذا ولم يستزرع هنود السواحل أية نباتات غذائية، وإن كانوا قد زرعوا نباتا مخدرا أطلقوا عليه اسم الطباق - الدخان - ويستخدم عن طريق المضغ بعد التجفيف، كما أنهم لم يستأنسوا غير الكلب على الرغم من وجود حيوانات أخرى كالإبل، والغزال، والأغنام، والماعز الجبلية.

كما تلعب شجرة جوز الهند دورا هاما فى حياتهم.. فمنها تصنع حبالهم وخيوطهم ومساكنهم وملابسهم وفراشهم وخيامهم بل وأثاثهم أيضا، وكذلك صناديق موتاهم وقوارب صيدهم، كما كان الرجال يصنعون منها أقنعتهم التنكرية، أما النسوة فقد صنعن منها أدوات زينتهن، ولاسيما تلك السلاسل والقلائد الجميلة التى اشتهرن بها (١).

(جـ) صناعة الحراب وأهميتها عند هنود السواحل:

وهنود السواحل كانوا يصنعون حرابهم من خشب الشربين « السرو »، كما كانت لهم طرقهم الخاصة فى قنص الحيوانات المائية التى كانوا يخرجون لصيدها جماعات فى معظم الأحيان، وفرادى فى أحيان قليلة، على حسب طبيعة حيوان القنص (*).

(د) المساكن الدائمة، والمؤقتة عند العشائر الكندية:

هذا وقد عرف هنود السواحل المساكن الثابتة ذات الأثاث القليل، والأدوات البسيطة، ولقد كان خشب الشربين « السرو » هو المستعمل بكثرة فى صنع تلك

(*) تقتصر هذه الممارسات على الأطفال الذكور دون الإناث .

المنازل نظرا لمتانته وقابليته للتشكيل، إلا أن هنود السواحل كانوا يهجرون مساكنهم تلك فى فصل الصيف، وهو فصل الصيد والجمع عندهم، ويقطنون أثناء ذلك فى مساكن مؤقتة يقيمونها ببعض ألواح الخشب بالقرب من مناطق الصيد [٢].

★ ★ ★

المبحث الثانى:

أنماط الأسرة والتربية عند العشائر السواحلية:

(أ) العائلة لدى العشائل السواحلية:

والعائلة لدى قبائل هنود السواحل تتكون عادة من أعداد صغيرة، وذلك نظرا لطول فترة رضاع الأطفال عندهم التى كانت تطول دائما لأكثر من عامين وحتى يتمكن الوليد من المضغ الجيد للأسماك واللحوم.

هذا وتتسم العلاقات داخل العائلة الهندية السواحلية بسيادة الرجل واستئثاره بالأعمال الخاصة بالحرب وكذلك بالأعمال الإشرافية بينما تتحمل المرأة معظم الأعباء المنزلية، وخاصة أعمال رعاية الأسرة والحيوان.

(ب) أشكال التربية عند هنود السواحل:

والصغير عند السواحليين يحيا فى حرية تامة وفى الهواء الطلق، ويلعب الصغير السواحلى من الأولاد والبنات معا حتى يبلغوا سن العاشرة. ويتلقون أثناء هذه الفترة بعضا من تاريخ القبيلة وسير أبطالها، كما يتدربون على إجادة بعض المهارات والفنون الخاصة بالصيد بالنسبة للأطفال الذكور. والخاصة بأعمال المنزل بالنسبة للطفلات، ثم ما يلبث الطفل أن يلتقى مع أول حدث هام فى حياته ألا وهو ثقب أذنيه إعدادا لهما للبس الحلى.. ويختلف الاحتفال بذلك الحدث الهام طبقا لمكانة عائلة كل طفل [٣].

وبعد أن يبلغ الأطفال سن العاشرة أو الحادية عشرة، يبدأ تعريض الأطفال الذكور منهم للعديد من الممارسات القاسية أحيانا ؛ لتعويدهم على قوة التحمل

والصبر والمثابرة، ومن صور تلك الممارسات إجبارهم على الاستحمام فى الماء البارد شتاء، وكذلك إلهاب ظهورهم بالسياط.. كل ذلك بهدف ترويضهم على المشاق وطاعة كبار السن (٤).

وبلوغ الطفل سن الحلم.. حدث هام عند قبائل هنود السواحل.. وإن كان ذلك الحدث لا يُحتفى به احتفاء خاصا، إلا أنه يتم خلاله التفريق بين الإناث والذكور.. فالبنت مثلا كان يفرض عليها نوع من العزلة يقال لها « سترة »، وقد تكون السترة لمدة شهر وقد تدوم حتى تخرج منها إلى عش الزوجية، وأثناء العزلة تعد البنت إعدادا يتناسب مع ما عليها من واجبات منتظرة كأم وزوجة.

أما الولد - فإنه ينضم إلى زمرة الرجال، ويسمح له بالإنخراط فى الجماعات الدينية، كما يحصل على الروح الحامية أو الحارسة له، وذلك بعد لمرور بطقوس وممارسات ترويضية شاقة وطويلة تضمن أهلية الشاب لحمل هذه الروح من جهة، وتضمن رضاء تلك الروح وقبولها لحماية ذلك الشاب من جهة أخرى (٥).

★ ★ ★

المبحث الثالث:

الزواج.. أنماطه وكيف يتم لدى العشائر الكندية؟

والزواج لدى قبائل هنود السواحل يتم غالبا بمعرفة الآباء، والسن المناسبة له هى العشرون للذكور والسابعة عشرة للإناث، وأهم مواصفات الشاب المقبل على الزواج هى حظوته بين قومه ومدى ما يتمتع به من نفوذ وشجاعة وما يبديه من مهارة.. وبعد موافقة كبار الأسرتين على إتمام الزواج يتم الزفاف فى احتفال مهيب.

ولو أن بعض الباحثين يرى أن الزواج عند هنود السواحل ما هو إلا عملية تبادل أو مبادلة اقتصادية مصحوبة باحتفال.. حيث يشترى الزوج زوجته ومعها بعض امتيازاتها الخاصة فى سلسلة من الاحتفالات، ويقوم أهل الزوجة برد ثمنها فى السنوات التالية بطريقة مماثلة مع إضافة أرباح مناسبة عن كل طفل أو مولود جديد يكون ثمرة لذلك الزواج.

ويتم الزواج طبقا لعقد وفقا لشروط معتبرة ومتفق عليها.. وفى قدرة الزوجة أن تفسخ ذلك العقد شريطة أن يرد أهلها ما دفع فيها من أموال - فيما يشبه نظام « الخلع » فى الشريعة الإسلامية، وإن كان من حق الزوج دوما أن يجدد العقد بأن يعاود توزيع الهدايا على أهل زوجته من جديد [٦].

وتعدد الزوجات ليس شائعا لدى قبائل هنود السواحل اللهم إلا فيما يخص أبناء الطبقة النبيلة وحدهم [٧].

والحياة الزوجية شركة بين الرجل والمرأة.. كل منهما يؤدى دوره بأمانة وإخلاص وتفان فيها.. الرجل يقوم بالأعمال الخطرة والشاقة كالقنص، « الصيد »، وقطع الأشجار، وتشييد المساكن، وبناء القوارب، وصنع الأدوات المنزلية، أما الزوجة فعليها - أو من أهم مسئولياتها - تجهيز الطعام وإعداده ودبغ الجلود، ونسج القماش، ونقل الصيد وحمله إلى المنزل بغرض إعداد ما يصلح منه كغذاء، وجمع الثمار البرية والأعشاب البحرية علاوة على واجباتها المنزلية الأخرى.

★ ★ ★

المبحث الرابع:

الطبقات.. أساس البنية الاجتماعية لدى هنود السواحل:

والمجتمع لدى قبائل هنود السواحل يتكون من ثلاث طبقات.. واحدة نبيلة والثانية طبقة شعبية والثالثة طبقة مسترقة، ويمكن أن نعطى لمحة موجزة عن كل واحدة من تلك الطبقات على ا لنحو الآتى :

١ - طبقة النبلاء:

وتضم الزعماء الذين عادة ما يكتسبون مكانتهم تلك عن طريق الوراثة، وإن كانت توجد إلى جوار الوراثة عدة طرق أخرى.. فحتى يحمل الرجل لقب نبيل أو أى لقب آخر داخل طبقة النبلاء عليه أن يجزل العطاء أثناء الاحتفالات؛ لأن الثروة كانت - ومازالت - هى المفتاح السحرى ليس فقط لدخول طبقة النبلاء وإنما أيضا للارتقاء درجات خلال نفس الطبقة.

ومن هنا يتضح أن النبلاء لم يكونوا جميعا على نفس المستوى الاجتماعى، وأن التنافس بينهم كان كبيرا.. لدرجة أن يكدح الواحد منهم العمر كله فى سبيل أن يقيم وليمة أو يوزع العطايا ؛ لينال ترقية يرنو إليها منافسوه من المنتمين لنفس طبقة النبلاء (٨).

ومكانات النبلاء والزعماء تورث، للابن عند بعض القبائل.. وللأخ عند القبائل الأخرى.. وعلى الوارث فى كلتا الحالتين أن يقيم وليمة كبرى تأكيدا لجدارته بالميراث وليضمن حقه فيه.. لأن عجزه عن إقامة تلك الوليمة وإجزاله العطايا خلالها لا يعد دليل عجز وبرهان على فقره فقط، وإنما دليل عدم أهليته لحمل اللقب أيضا، وتصير تلك المكانة الرفيعة إلى غيره من الطامحين الآخرين القادرين على البذل والعطاء.

وعلى ذلك قد ينتمى أحد أبناء الشعب إلى طبقة النبلاء عن غير طريق الميراث.. ففى مقدوره بما لديه من مال أن يقيم وليمة فاخرة للحصول على اللقب الذى لم يكن فى مقدور أى من أسلافه الحصول عليه من قبل (٩).

لكن هل يستحق لقب « النبالة » كل هذا العناء ؟ !.. والجواب : إنه بالقطع يستحق.. لأن من يحصل عليه يعتبر رئيسا على قومه وزعيما لعشيرته مع ما لتلك الرئاسة والزعامة من امتيازات مادية وأدبية بدءا من حق النبلاء، خصوصا من جاء منهم عن طريق الوراثة - فى امتلاك أماكن الصيد «القنص»، وانتهاء بالشارات الخاصة التى تميزهم عن السواد الأعظم من الشعب، علاوة على تفردهم بطواطم خاصة للتبرك والحماية والعبادة والانتماء.

٢ - طبقة الشعب:

وهم السواد الأعظم من القبائل الهندية الساحلية.. وهم دون النبلاء منزلة، ولو أن الحدود الفارقة بين طبقتى الشعب والنبلاء لم تكن فاصلة وذلك لعدة اعتبارات لعل من أهمها أن درجة « النبالة » ليست دائمة ويمكن زوالها بنفس طريقة اكتسابها - عن طريق المال والقدرة على العطاء - علاوة على أن معظم عامة الشعب

هم من نسل أولئك النبلاء، يضاف إلى ذلك أن جسر التزاوج بين طبقتى النبلاء والشعب كان ممدودا دوما، فضلا عن وجود قطاع لا يستهان به من أبناء الشعب هم فى الأصل أبناء غير شرعيين لأولئك النبلاء.

٣ - طبقة الرقيق:

ينتمى الرقيق لدى قبائل هنود السواحل - مثلهم فى ذلك مثل كثير من القبائل غير الهندية - إلى مصدرين أساسيين أولهما : الحروب.. وثانيهما : الشراء.. فأسرى الحروب.. هم أرقاء.. والعبيد الذين يشترون بالمال.. هم أرقاء.. صحيح أنهم يعاملون معاملة حسنة. لكن لم تكن لهم حقوق من أى نوع فى حين كان لأسيادهم مطلق الحرية أن يصنعوا بهم ما يشاءون بدءا من السخرة والبيع حتى القتل.

الإرث لدى العشائر الكندية:

وللإرث عند القبائل الكندية الساحلية نظم غير متجانسة أو موحدة تطبق لدى كل أو جميع تلك القبائل.. فعندما يموت المورث.. قد تئول ثروته كلها إلى أبنائه وحدهم، وقد يشاركهم فيها أبناء إخوته، وقد لا يرث أبناء المتوفى شيئا من ثروته على الإطلاق، حيث تئول ثروته برمتها إلى زوج ابنته أو أزواج بناته، وقد تورث ثروة المتوفى بالكامل إلى أبناء أخت الفقيد.

ويتم توزيع الإرث دائما أثناء احتفال مهيب تتخلله الولائم الراقصة وخاصة التنكرية منها.. ولابد من توزيع الهدايا على الضيوف ؛ حتى تبارك الآلهة إرث الوارثين.

★ ★ ★

المبحث الخامس:

الحفلات ودورها فى تدعيم البنية الاجتماعية لدى هنود السواحل:

وللحفلات عند العشائر الكندية دور ترويحى وترفيهى هام.. فهى تقام دوما.. سواء عند السعى للانضمام إلى طبقة النبلاء أو حتى للترقى خلالها، أو عند استلام الإرث وتوزيعه، أو عند استقبال مولود جديد، أو عندما يبلغ صبى مبلغ الرجال أو عند إتمام بناء منزل أو حتى عند إتمام مراسم دفن ميت ذى حيثية (١٠).

وتكثر الحفلات عادة فى فصل الشتاء.. ولها طقوس ومراسم خاصة حيث يعلن عن وصول كل مدعو باسمه ولقبه ويختار له المكان الذى يليق به وبطبقته ويقوم على خدمة المدعوين أصغر الرجال والنساء من عشيرة صاحب الحفلة.

وبعد أن يفرغ الجميع من الطعام يبدأ الحفل التنكرى الراقص الذى يستعد الجميع للمشاركة فيه بملابسهم التنكرية وأقنعتهم، وبعد الانتهاء من الرقص لابد لصاحب الدعوة أن يوزع الهدايا على ضيوفه، ويجب مراعاة أن تكون الهدايا المقدمة على قدر مقام ومكانة ودور كل ضيف من الضيوف.

وهذه الهدايا تتراوح ما بين الدقيق وقوارب الصيد وبعض الأدوات المنزلية، ولكنها دوما تكون هدايا من ذلك النوع الملزم الذى يجب رده فى مناسبات أخرى.. لأن من يأخذ هدية ولا يرد بمثلها أو بأحسن منها تتعرض مكانته الاجتماعية داخل المجتمع الهندى السواحلى للخطر، والأغرب من هذا أن تلك الهدايا كانت تعتبر دينا يورث من الآباء للأبناء، لهم أو عليهم وعلى المدين أن يرد ديونه وما يستجد عليها من أرباح.. وإن عجز فعليه أن يؤدى دينه من خلال خدمة يحددها صاحب الدين (١١).

★ ★ ★

المبحث السادس:
الموت وشعائره عند هنود السواحل:

وللموت عند قبائل هنود السواحل شعائر خاصة لكنها لم تكن موحدة لدى مختلف العشائر.. فبعضها كان يحرق جثة الميت.. وبعضها الآخر كان يضعها فى توابيت فوق أعمدة محفورة.. وكانت بعض العشائر تحنط جثث موتاها بغرض الاحتفاظ بها لمدد أطول فى أحد الكهوف أو فوق الشجر.

وكانت جثث النبلاء والزعماء تعامل معاملة خاصة.. حيث تلبس أفخم ملابسها وتترك فى نفس مجالسهم بمنازل المتوفين لمدة عام كامل تنقل بعدها إلى مقرها الأخير (١٢).

★ ★ ★

المبحث السابع:
الطوطمية والكهانة عند العشائر الكندية:

وهنود السواحل لا يدَّعون انتماءهم إلى الكائن الطوطمى الذى يتخذونه شعارا لهم، وعليه فإن النسب أو القرابة عندهم لا ترتبط بذلك الطوطم.

وإن كانوا يعتقدون أنهم محاطون من كل جانب بكائنات ما وراء الطبيعة، كما يسعون للاتصال بتلك الكائنات عن طريق الكهان ورجال الطب والسحر المعروفين باسم « شامان » الذى قد يكون رجلا أو امرأة.

والكهانة تورث غالبا وتكتسب أحيانا، وتمارس وفقا لطقوس خاصة.. ويدعى هؤلاء « الشامان » قدرتهم على شفاء المرضى والتحكم فى الجو عن طريق طاقات سحرية يزعمون قدرتهم عليها (١٣).

وعلى كل فإن اعتقاد هنود السواحل فى قدرة هؤلاء « الشامان » هى التى جعلتهم - أى الشامان - يتحكمون فى مقدرات هنود السواحل فلا يمكن للواحد من عشائر هنود السواحل، إبرام شىء دون استشارتهم ودفع العطايا أو الهدايا لهم (١٤).

★ ★ ★

المصادر

(١) للاستزادة انظر - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مرجع سابق ص ١٨٠ .

(٢) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) انظر - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق - ص ص ٥٨ - ٨٦ .

(٤) Diamond Jenness, The People of The Twiligrt. 1930.

(٥) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ٥٨ .

(٦) للاستزادة حول نظام « الخلع » انظر :

دكتور صلاح الفوال - التصوير القرآنى للمجتمع - الكتاب الأول : « الأنساق والنظم الاجتماعية - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٥ - ص ص ٤٧٣ - ٤٧٩ .

(٧) انظر : J.W. Page, Op. Cit., PP 85 -90 .

(٨) دراسة علم الاجتماع البدوى ، مرجع سابق ص ٨٩ .

(٩) المرجع السابق ص ٩٠ .

(١٠) J. W. Page , Op. Cit. PP 91-92.

(١١) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٨٠ - ٨١ .

(١٢) دراسة علم الاجتماع البدوى . مصدر سابق ص ٩١ .

(١٣) المصدر السابق - ص ٩٣ .

(١٤) المصدر السابق - ص ٩٤ - ٩٥ .

★ ★ ★

الفصل الثامن

عشائر الأزاندى السودانية وقبائلها

- مقدمة حول عشائر الأزاندى السودانية .
- الحياة الاجتماعية لدى عشائر الأزاندى السودانية .
- الطبقات لدى المجتمع القبلى الأزاندى .
- أنماط السحر ودور السحرة فى المجتمع البدوى الأزاندى .
- العين الشريرة .
- السم العراف .
- أخوة الدم لدى عشائر الأزاندى وكيف تتم ؟
- التفكير الغيبى والسلوك الاجتماعى عند الأزانديين .

مقدمة حول عشائر الأزاندى السودانية

يشغل الأزاندى Azande (*) منطقة واسعة من وسط أفريقيا، ولكنها تقع بالنسبة للسودان فى أقصى جنوبه الغربى، وتتسم المنطقة التى يعيشون فيها «المديرية الاستوائية» بوجود أعشاب السافانا والغابات، ودرجة الحرارة هناك مرتفعة دائما وتسقط الأمطار فى أغلب شهور السنة وإن كانت السنة تنقسم لدى الأزانديين إلى فصلين رئيسين أولهما: فصل المطر الذى يمتد من شهر مارس حتى شهر أكتوبر، وأحيانا إلى أوائل شهر نوفمبر، وثانيهما : فصل الجفاف ويضم بقية شهور السنة.

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على الدراسة الحقلية التى قام بها « إيفانز بريتشارد Evans Prithard والتى استمرت عشرين شهرا متقطعة على امتداد المدة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٣٠ ، والتى نشرت عام ١٩٣٧، وليس إيفانز بريتشارد وحده هو الذى درس عشائر الأزانديين بل هناك إلى جواره كل من عالم الأنثربولوجيا الاجتماعى المصرى المرحوم الدكتور على أحمد عيسى الذى زار منطقة الازاندى عام ١٩٥٤ ونشر نتائج زيارته ضمن محاضراته عن نتائج بعثة جامعة الإسكندرية إلى مجتمع الأزاندى « المحاضرة السابعة لموسم ١٩٥٥ -١٩٥٦» ، كما قام الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد العالم المصرى ورائد الأنثربولوجيا المعاصرة بدراسة حقلية لمنطة الأزاندى أو الزاندى كما يحب أن يسميها وكان ذلك عام ١٩٦٢ بتكليف من مكتب العمل الدولى بجنيف ونشر نتائج هذه الدراسة ضمن كتابه عن البناء الاجتماعى بجزأيه الأول والثانى اللذين نشرا عام ١٩٦٦، ١٩٦٧ ، كما قام كذلك الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر بنفس العمل البحثى ، حيث مثلت قبائل الأزاندى - كحالة دراسية - أحد اهتماماته الرئيسة لا بحكم أنه سودانى فقط ولكن بحكم مسئوليته العلمية من خلال عمله السابق كرئيس لقسم تنمية المجتمع بمركز تنمية المجتمع فى العالم العربى بسرس الليان منوفية ، هذا وقد ساهم الدكتور محيى الدين صابر - سواء من حيث التخطيط أو التنفيذ أو المتابعة - فى المشروعات المختلفة للنهوض بالمجتمع الأزاندى ، ولقد نشرت بعض نتائج جهوده ضمن مؤلفه « عن التغير الحضارى وتنمية المجتمع » الذى نشر عام ١٩٦٥ .

كما اعتمدنا أيضا على التلخيص الذى أعده « إيفانز بريتشارد » بنفسه لكتابه عن الأزاندى والذى أورده ضمن محاضراته عن « الأنثربولوچيا الاجتماعية » والتى ترجمها ونشرها بعد أن جمعها تحت نفس العنوان الدكتور أحمد أبو زيد - منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٦٠، كما اعتمدنا أيضا على الدراسة الحقلية التى قام بها « سلجمان Seligman» للأزاندى .

ومجتمعات الأزاندى تكتظ بالعديد من أنواع الحشرات الضارة، ولعل أخطرها جميعا ذبابة « التسى تسى » التى تسبب مرض "النوم" للإنسان والحيوان على حد سواء، ويرجع كثير من العلماء السبب فى أن الأزانديين زراع وليسوا رعاة كغيرهم من بقية قبائل السودان الجنوبى ؛ يرجعون ذلك إلى ذبابة «التسى تسى» هذه حيث باعدت بينهم وبين تربية الحيوانات الأليفة ولم تترك أثيرا لديهم سوى الكلاب والدجاج (١).

المبحث الأول:

الحياة الاجتماعية لدى عشائر الأزاندى السودانية:

الأزانديون يعتمدون على الزراعة المتنقلة فى معيشتهم نظرا لأن الزراعة المستقرة، وإن كانت لا تتناسب سلفا مع الأحراش والغابات التى تسود بلادهم إلا أنها تعتمد أيضا على الحيوان غير المتوافر أو المستأنس لديهم، ومن هنا كان الواحد من الأزاندى يعكف على تطهير منطقة ما يراها مناسبة، وبعد ذلك يزرعها لمدة تطول أو تقصر حسب خصوبة الأرض ومقدرتها الإنتاجية، ولكنه على كل حال ما يلبث أن يهجرها إلى قطعة أرض أخرى وهكذا.

وإلى جانب الزراعة المتنقلة يمارس الأزانديون قنص حيوانات الغابة. علاوة على صيد الأسماك المختلف أنواعها من النهيرات القريبة من زراعتها، كما يمارس الأزانديون إلى جوار ذلك، أنماط الجمع والالتقاط حيث يجمعون ثمار الغابات ويقتاتون منها.

ويعيش مجتمع الأزاندى فى عزلة شبه تامة عن العالم الخارجى، وذلك بسبب موقعه الجغرافى وصعوبة المواصلات واتساع المسافات، فضلا عن وعورة الطرق بها.

وزاد من عزلتهم الحرب القائمة الآن فى الجنوب السودانى والتى فرضت عليهم القحط والجدب والجفاف والجوع والفقر والجهل والمرض.

والأزانديون شبه عراة يميلون إلى السكنى متفرقين وإن كانت الإدارة القائمة آنذاك - فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضى -، وهى

الإدارة المصرية الإنجليزية للسودان قد أجبرتهم على السكنى متجاورين فعرفوا نظام القرى من خلال المستعمرات التى أقامتها السلطة لهم خصوصا ضمن المشروعات التنموية (٢).

والأسرة الأزاندية تتكون من الزوج والزوجة والأبناء، وإن كان الملاحظ أن نظام تعدد الزوجات منتشر هناك وبصفة خاصة بين الرؤساء، كما أن المسنين يتمتعون بمكانة عالية، وإن كان الملاحظ أيضا أن المرأة الأزاندية تحتل منزلة أقل من الرجل (٣).

★ ★ ★

المبحث الثانى:

الطبقات لدى المجتمع القبلى الأزاندى:

المجتمع الأزاندى ينقسم إلى ثلاث طبقات رئيسة أهمها طبقة «الأفونجارا - Avongara » التى تعتبر الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الأزاندى، وهى طبقة مغلقة والانتماء إليها يورث ولا يكتسب بمعنى أنها تعود إلى عامل المولد فقط.

وتنفرد طبقة "الأفونجارا" بالحكم، ويتصف أعضاؤها بقدر كبير من التعالى والغطرسة والمحافظة على القديم، كما أنهم يحتقرون كل من لا ينتمى إلى طبقتهم سواء من مواطنيهم أم من الأجانب.

ومن أبرز سمات أعضاء هذه الطبقة أيضا احتقارهم للعمل اليدوى ولكل عمل يؤدى إلى إنتاج الطعام أو يخدم غيرهم ؛ لأنهم يعتمدون فى ذلك على أبناء الطبقتين الأخريين، بل يعتبرون المنتمين للطبقات الأخرى قد خلق لخدمة الأفونجارا باعتبارهم الأقوى والأعز وتتمركز فيهم السلطة والجاه.

وضرب « إيفانز بريتشارد » مثالا للتعرف على الأزاندى من طبقة "الأفونجارا Avongara " عن طريق ملاحظة طريقة مشيه وحديثه وتعبيرات وجهه ويديه الناعمتين اللتين لم تتعودا على الكدح.

أما عن الطبقتين الأخريين فهما طبقة "الأمبامو Ambamo "وهى تلى الطبقة السابقة فى المكانة والجاه، ثم تأتى أخيرا طبقة "الأورو Auro " لتقبع فى نهاية السلم الاجتماعى للعشائر الأزاندية (٤).

★ ★ ★

المبحث الثالث :

أنماط السحر ودور السحرة فى المجتمع الأزاندى :

تلعب ظواهر السحر والسحرة والعرافين دورا هاما فى حياة الأزانديين ويمكن ملاحظة هذا الدور بسهولة من خلال متابعة نشاطهم اليومى، ولعل أهم تلك الظاهرات جميعا وأخطرها ما يعرف بالعين الشريرة والتى خصص لها « ايفانز بريتشارد » جزءا كبيرا من بحثه، وشكلت سمة رئيسة للنتائج التى نشرها عن ذلك البحث، ويحسن هنا أن نتعرض لظاهرتين تلعب كل منهما دورا هاما فى حياة الأزانديين، الأولى هى العين الشريرة والثانية هى السم العراف وذلك على الوجه الآتى :

(أ) العين الشريرة :

يعتقد الأزانديون بقدرة بعض الناس على إصابة الآخرين بالضرر عن طريق العين الشريرة، أما عن العين الشريرة ذاتها فيعتقد الأزانديون أنها مادة توجد داخل جسم صاحبها ويسمونها : « مانجو »، ويتراوح وجود تلك المانجو ما بين الأمعاء والمرارة، وإن كان الأزانديون يقولون : إنها - أى : المانجو - تقع عند طرف الكبد.

الأهم من ذلك كله أن الأزانديين يعتقدون بأن العين الشريرة هذه، وراثية أى يمكن أن تورث من الآباء إلى أبنائهم الذكور، ومن الأمهات إلى بناتهن، بمعنى : أن الرجل الشرير يورث عينه الشريرة لأبنائه الذكور دون بناته، والمرأة الشريرة تورث هى الأخرى عينها الشريرة إلى بناتها دون أبنائها الذكور.

وتتركز خطورة المانجو عند كبار السن والشيوخ ؛ لأن المانجو مادامت جزءا من جسم الإنسان فإنها لابد أن تكون صغيرة لدى الأطفال وبالتالى يكون خطرها ضئيلا، على العكس عند الكبار فإنها عادة ما تكون نامية وبالتالى يتسع خطرها ويتأكد.

أما كيف تصيب العين الشريرة ضحيتها بالأذى والضرر، فذلك راجع إلى اعتقاد الأزانديين بأن المانجو لها روح تخرج من صاحبها ليلا أو نهارا معتمدة على توجيه واع منه بمكان ضحيته بالضبط وكيفية وصول الروح الشريرة إليها لإصابتها، وإن كان الاعتقاد السائد أيضا أن مدى قوة العين الشريرة ليس بعيدا لا من حيث الزمن ولا من حيث المسافة.

أما عن الطرق التى يتفادى بها الأزانديون الإصابة بالعين الشريرة أو كيف يعالجون منها ويتجنبون مضاعفاتها، فذلك له سبيل واحد عن طريق السكنى متقاربين وتركهم لمنازلهم سرا عند المرض، ولجوئهم إلى أماكن مجهولة داخل الغابة خشية الإصابة بأضرار العين الشريرة مع عدم الرحيل أو السفر إلا قبيل الفجر ؛ لأن صاحب العين الشريرة يكون عادة نائما فى مثل هذا الوقت وبالتالى يكون عاجزا عن إصابة غيره بضرر ؛ لأن الروح أو العين الشريرة كما قلنا سلفا : تحتاج حتى تصيب هدفها إلى توجيه واع من صاحبها.

ومن أطرف ما لاحظه « إيفانز بريتشارد » عن العين الشريرة.. تلك الصلة القوية بينها وبين النظام الطبقى لدى الأزاندى، حيث لا يجرؤ الفرد من عامة الشعب على اتهام أحد من أفراد طبقة "الأفونجارا" الحاكمة بأنه صاحب عين شريرة، وإلا فإن الملك والأمراء يوصمون بنفس التهمة، كما لا تنسحب هذه التهمة أيضا على حكام الأقاليم ونوابهم وقادتهم العسكريين، وليس لهذه القاعدة من استثناء إلا رغبة الحاكم نفسه فى اتهام شخص ما - أيا كانت طبقته - بتهمة العين الشريرة (٥).

(ب) السم العراف:

وهو طريقة للتنبؤ لدى عشائر الأزانديين ويتم - ذلك التنبؤ - عن طريق وضع نوع من السم على هيئة مسحوق أحمر يجلب خصيصا من الكونغو، حيث يوضع فى منقار دجاجة على دفعات لا تزيد عادة على أربع جرعات، ويسأل العراف الدجاجة

عن أمور بعينها فإن ماتت كان ما سأله العراف عنها غير صحيح.. أو قد يكون صحيحا على حسب نية السائل قبل إلقاء السؤال على الدجاجة.

ويستشير الأزانديون السم العراف فى معظم ما يخص حياتهم تقريبا، فالكل يستشيرونه - أى : السم العراف - فى الزواج والحمل والولادة والختان وقبل السفر وعند المرض والصيد والحرب، وعند القيام ببعض الأعمال والمهام الخاصة، وعند الزنا، وحتى قبل أن يعين الأمير حكامه وموظفيه، عليه أن يستشير السم العراف إذا ما أراد لمهام كل هؤلاء النجاح.

ويحبذ الأزانديون أن تتم استشارة السم العراف فى جو من السرية ويفضلون أن يتم ذلك فى الغابة أو فى المزرعة أو فى أى مكان به أعشاب، هذا عن المكان، أما عن الوقت أو الزمان المناسب للاستشارة فهو دائما بين الثامنة والتاسعة صباحا، وإن كان ذلك لا يمنع من أن تتم الاستشارة ليلا بشرط اطمئنان الزوج - على سبيل المثال - إلى استغراق زوجته فى سبات عميق، وذلك لأنه محرم على المرأة أن تشترك فى عملية الاستشارة (٦).

وليست المرأة هى المحرم الوحيد من الوجود أثناء عملية استشارة السم العراف، بل يجب على الشخص الممارس لهذه العملية أن يمتنع عن أكل لحم الفيل والسمك وأنواع معينة من الخضروات، كما يجب الامتناع عن تدخين الحشيش والاتصال الجنسى بالنساء قبل إجراء الاستشارة بفترة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وستة (٧).

ولابد للسم العراف حتى يتنبأ من وجود دجاجة، لذلك كان الدجاج - مع الكلاب - من أهم الدواجن والحيوانات وأحبهم لدى الأزانديين، والدجاج لا يربى فى معظم الأحوال للأكل ولكن لاستخدامه عند استشارة السم العراف، وقد يذبح الدجاج أحيانا، ولكن فى المناسبات الجليلة فقط كزيارة والد الزوجة أو أحد الأمراء وخاصة إذا ما كان الزائر من طبقة "الأفونجارا" (٨).

أما كيف تتم عملية الاستشارة فهى دوما تبدأ بجلوس شخصين أحدهما

مسئول عن إعداد السم العراف ووضعه فى منقار الدجاجة، والآخر مسئول عن توجيه الأسئلة للسم العراف، ويجلس حولهما من يرغبون فى الاستشارة، ويضع الشخص الأول الدجاجة تحت قدمه ثم يسقيها السم ويحرك رأسها إلى أعلى وأسفل " ليجبرها على ابتلاعه، ويبدأ الشخص الآخر بسؤال السم العراف الذى ابتلعته الدجاجة، ثم يعطى الدجاجة جرعات أخرى تصل إلى أربع جرعات وبين كل جرعة والتى تليها يوجه السائل إلى السم العراف الرابض فى جوف الدجاجة، يوجه سؤاله، طالبا إثبات أو نفى أمر ما بقتل الدجاجة أو الابقاء على حياتها حسب إرادة السائل، ومع آخر جرعة يأمر صاحب السؤال الشخص الآخر بأن يرفع الدجاجة إلى أعلى ثم يلقيها على الأرض ويتابع الحاضرون تشنج الدجاجة التى قد تموت بعد الجرعة الأولى أو الثانية أو الثالثة، أو تتقيأ بعد الجرعة الرابعة ثم تموت، وأحيانا لا تتأثر الدجاجة بالسم العراف إلى درجة الموت (٩).

★ ★ ★

المبحث الرابع:

أخوة الدم لدى عشائر الأزاندى:

ويطلق الأزانديون على أخوة الدم مصطلح « Bakore » وتؤدى أخوة الدم Blood-Brotherhood هذه عندهم إلى إيجاد روابط وثيقة بين الأفراد تشبه فى مدلولها وشكلها تلك الروابط الناشئة عن الأخوة الحقيقية الوراثية أو الموروثة، ويحترم الأزانديون أخوة الدم احترامهم للأخوة الحقيقيــة، فعند أية خيانة لأخوة الدم يحق للمعتـــدى عليه أن يلجأ ؛ للسحرة ليأخذوا له بثأره ممن خان أخوة الدم.

أما عن تبعات أخوة الدم هذه فتتمثل فى تدعيم صلة الأخ بأخيه، ويكون من واجب كل منهما أن يشد أزر الآخر عند الشدائد وخصوصا ضد أعدائه، وعلى كل منهما أيضا أن يكون كريما مع أخيه ويؤثره حتى على نفسه، وعليه أيضا أن يشاركه أفراحه وأتراحه بقلبه وماله، وأكثر من هذا فإن أخوة الدم تعطى حقا للأخ العازب أن يتزوج من ابنة شقيقه - فى أخوة الدم - إذا ما رغب فيها (١٠).

ولكن كيف تتم أخوة الدم ؟! :

قرر « سلجمان Seligman » أن أخوة الدم تحدث عندما يرغب شخصان فى تبادلها وفق إجراءات وطقوس خاصة.. من أهمها أن يجلس الشخصان الراغبان فى ذلك وجها لوجه وبالقرب من كل منهما شخص آخر قريب قرابة وراثية، ثم يقوم الشخص الواقف بجوار الرجل الأول بإحداث قطع صغير فى الصدر أو فى الذراع يسمح بخروج الدم، وبعدها يغمس قطعة صغيرة من الخشب أو حبة من الفول السودانى فى الدم ويعطيها للرجل الثانى الراغب فى أخوة الدم الذى يغمسها فى الملح فورا ويقوم بمضغها عدة دقائق ثم لا يلبث أن يبتلع الدم ويبصق على الأرض بقايا قطعة الخشب أو حبة الفول التى كان يلوكها فى فمه وبغير هذه الطقوس لن تتحقق أخوة الدم أو يتم المراد أو المستهدف منها.

وواضح من تلك الطقوس والإجراءات أن أخوة الدم هذه عملية اختيارية أو مكتسبة وإن كانت تلقى على طرفيها نفس أعباء الأخوة الوراثية غنما وغرما.

وكل الحالات التى بُحثت من خلال الدراسات الحقلية لنظام أخوة الدم تشير إلى أنها - أى أخوة الدم - تكاد تكون مقصورة على الرجال وحدهم دون النساء (١١).

★ ★ ★

المبحث الخامس :

التفكير الغيبى والسلوك الاجتماعى عند الأزانديين :

قام الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر ما بين عامى ١٩٥٣، ١٩٦٣م بدراسة حقلية تناولت « التفكير الغيبى والسلوك الاجتماعى عند الأزاندى »، ونشرت نتائج هذه الدراسة ضمن كتاب « قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية »، والتى تعرض فيها - الباحث - لوصف البيئة الطبيعية والاجتماعية للأزاندى كمقدمة لتوضيح التفكير الغيبى الدينى والسحرى لديهم، ولقد انتهى الدكتور محيى الدين صابر إلى أن التفكير الدينى وما اتصل به من غيبيات هو الذى يحكم حياة

الأزانديين فى كل تفاصيلها، فالتنظيم الاجتماعى الطوطمى عند الأزانديين، تنظيم قائم على التصورات الدينية، كما أن نظام الملكية والنشاط الاقتصادى زراعيا كان أم صيديا « أى معتمدا على الصيد » يرتبط هو الآخر بتلك التصورات، كما أن القيم الجمالية، مرتبطة أو متصلة هى الأخرى كذلك بتلك التصورات، وحتى ممارسة الحرف وتعلمها أو تعليمها للغير لها نفس الاتصال الوثيق بتلك التصورات الدينية الغيبية (١٢).

كل ذلك إذن يدور فى فلك دينى، كما أوضح الدكتور محيى الدين صابر أن الدين « الأزاندى » يعتمد على ركيزة أساسية تعرف بـ « المدية » أى : البيولوچية الروحية،وتلك الركيزة ما هى فى جوهرها إلا عبادة الأسلاف أو عبادة الأجداد، كما أن الدين الأزاندى (*) يخلو من فكرة العقاب والثواب فى العالم الآخر وإنما الجزاء أو المثوبة الحقيقية عندهم هى تلك التى تتم فى الحياة الدنيا داخل نظام لتبادل المنفعة أثناء الحياة الدنيا لا بعدها، وطبقا لتصور عام هو أن فعل الخير من شأنه أن يطيل العمر فى الدنيا، بل إن العالم الآخر عند الأزانديين هو صورة لهذا العالم الحسى ذاته، فالموت ينقل الواحد منهم إلى عالم الأسلاف أو الأجداد حيث يعيش الميت مع من سبقه من أهله، وحين يمـــوت الواحد من الأزاندى ويقوم أهله بدفنه يقولون : إنه مات وذهب إلى اللـــه فى الأرض، وذلك أنهم يعتقدون أن الله «الذات العليا» إنما يقيم تحت الأرض، ولذلك تتجه كل صلواتهم إلى منابع الأنهار والمهاوى السحيقة فى الأرض وعند سفوح الجبال والهضاب والوديان (١٣).

ويوضح الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر فى دراسته المشار إليها أن الأزانديين حريصون كل الحرص على أن يؤدوا للميت شعائر النار، وتتلخص شعائر النار تلك فى أن يُبكر أهل الميت غداة دفنه فى مطلع الفجر إلى القبر حاملين جذوة من نار يحملها شقيق الميت أو ابنه إذا كان الميت ذكرا، أما إذا كان الميت امرأة فإن

(*) أى ما يعتقده الأزانديون من معتقدات وتصورات وما يمارسونه من خلال تلك المعتقدات والتصورات الغيبية من سلوكيات وطقوس وإجراءات وشعائر تعبدية.

تلك مسئوليـــــة أختها أو ابنتها الكبرى، وإذا ما وصل أهل الميت إلى مكان الدفن أوقدوا النار فوق القبر قائلين له : هذه روحك الخيرة. ويقرر الدكتور محيى الدين صابر : إن الأزانديين بعد أن تأثروا بالمسيحية والإسلام يكتفون بإشعال عود واحد من الكبريت فوق رأس المتوفى عند دفنه قائلين : هذه نار روحك (١٤).

وترجع أهمية النار لدى عشائر الأزاندى وقبائلها فى رأي الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر إلى أنهم يعتقدون أن الواحد منهم بعد الموت يبدأ حياته الجديدة بهذه النار ؛ لأنها وسيلته حتى يتعـــــرف عليه أهله وذووه عندما يصل بالموت إلى عالم الأجداد، ثم ما يلبث المتوفى وفقا لتصور أو اعتقاد الأزانديين، أن يبنى بيته ويحضر زوجته ؛ لتعيش معه - إن كانت قد ماتت قبله - وإلا سينتظرها حتى تموت - وعندما يجتمع الزوجان سيمارس الزوج الزراعة وينجب أطفالا جددا لتبدأ دورة الحياة من جديد « فى العالم الآخر بطبيعة الحال » (١٥).

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) للاستزادة انظر - تنمية المجتمعات الصحراوية - تطبيقات ميدانية ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٠- ١٠٦ لنتعرف على المشروعات التنموية لدى الأزاندى ضمن حديثنا عن البداوة السودانية.

(٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى ، مصدر سابق ، ص ص ٣٦٨-٣٦٩.

(٤) إيفانز برتشارد - محاضرات فى الأنثربولوچيا الاجتماعية - ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد - منشأة المعارف - الإسكندرية ١٩٦٠ .

(٥) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٦) المرجع السابق ، ص ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ص ٣٧٢ - ٣٧٤ .

(٨) C. G. Seligman, Pagan Tribes of The Nilotic Sudan, London, 1932, pp.501-511.

(٩) انظر دكتور على إسلام الفار - الانثروبولوچيا الاجتماعية - مرجع سابق - هامش ص ١٩٦ .

(١٠) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ١٠٠ -١٠١ .

(١١) سلجمان Seligman - مصدر سابق ص ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(١٢) للاستزادة انظر : دكتورمحيى الدين صابر فى دكتور لويس كامل مليكه - قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ - ص ص ١٦٣ - ١٩٣ .

(١٣) المصدر السابق - ص ص ١٨٩ -١٩١ .

(١٤) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق ، ص ص ٣٧٤ .

(١٥) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

★ ★ ★

الفصل التاسع

قبائل النوير الأفريقية وعشائرها

- مقدمة حول عشائر النوير الأفريقية .
- الحياة الاجتماعية لدى عشائر النوير ودور الماشية فيها .
- مساكن النوير .
- التكريس كظاهرة عند مجتمع النويريين .
- الزواج وأنماطه عند عشائر النويريين .
- المهر مقدمة ضرورية للزواج عند النويريين .
- أنماط الزواج وأشكاله عند المجتمع النويرى :
  - زواج المرأة بالمرأة .
  - زواج الشبح .
  - الزواج الليفيراتى
- الانفصال والزنا عند مجتمع النويريين .
- نظام طبقات العمر لدى القبائل النويرية .

مقدمة حول عشائر النوير الأفريقية

للطبيعة كما للماشية دور هام فى حياة "النوير The Nuer " ففى خلال شهر يونيو من كل عام تتحول معظم مناطقهم إلى مستنقعات ؛ فيلجأ النوير إلى قراهم المبنية فوق الروابى العالية ويعملون بزراعة الذرة ورعى الماشية، وعندما ينتهى فصل الأمطار وتتحسر المياه يعود الأهالى إلى مسارحهم ويتركون ديارهم ويقيمون فى الخيام أينما حلوا، ويتفرغ النويريون فقط لرعى مواشيهم التى يعتمدون عليها اعتمادا كبيرا كمصدر من مصادر الطاقة، وخصوصا اللبن واللحم، وإن كانوا يأكلون أيضا لحم الميتة والدم، بشرط أن تكون الميتة ميتة طبيعية [1]. !!

★ ★ ★

المبحث الأول:

الحياة الاجتماعية لدى عشائر النوير ودور الماشية فيها:

دلل « إيفانز بريتشارد E.Evans Pritchard » على أهمية الماشية في حياة النوير بقوله المأثور : « فتش عن البقرة » فمنها دفع المهر والدية، وهى قربانهم للأرواح، وهى سميرهم ومحط أمانيهم ومحور أحاديثهم، والماشية لها تأثير واضح وقدرة غريبة على توحيد كلمة عشائر النوير، ولها نفس القدرة الغريبة أيضا على تفريق هذه الكلمة إلى حد القتال والحرب.

وبيئة مجتمع النوير غنية بالحيوانات وهم يأكلون لحومها جميعا عدا آكلة اللحوم منها كالسباع وغيرها، علاوة على أكل لحوم القردة والحمار الوحشى.

وقد لاحظ « إيفانز بريتشارد » أن النوير - على الرغم من هذا الغنى الفاحش فى الثروة الحيوانية الكثيرة والمتنوعة - ليسوا صيادين مهرة، وربما كان

ذلك القصور راجعا إلى أن النويريين يحتقرون أعمال الصيد ؛ والنوير لا يربون كذلك الدجاج فى منازلهم ولا يحبونه على العكس من الأزانديين (*).

هذا ويؤكد « إيفانز بريتشارد » أيضا أن النوير شأنهم فى ذلك شأن القبائل التى تعمل بالرعى فى شرق أفريقيا، يأكلون الدم مشويا ومتجمدا، وأن لهم فى ذلك طريقة خاصة - سواء فى استخلاصه أم طهيه - تتلخص فى أن يقوم الواحد منهم بربط حبل حول رقبة بقرته بكثير من الإحكام حتى تبرز عروق الدماء بها، وعندئذ يطعن أحد تلك العروق الظاهرة بسكين فتسيل منه الدماء فى إناء أعد خصيصا لهذا الغرض وبعد ما يمتلئ الإناء يوضع على النار فترة من الوقت حتى يصير كتلة واحدة أو يتماسك، وقد يقدم للأكل على هذه الصورة أو قد يشوى على بعض الجمر ثم يقدم للأكل بعد أن يقطع إلى أجزاء صغيرة، هذا عن الدم، أما عن البقرة فبعد امتلاء الإناء يفك الحبل من حول رقبتها ويترك جرحها ليلتئم بعد غمره بروث الماشية.

ويقول « إيفانز بريتشارد » كذلك : إن أكل الدم لا ينتشر عند النوير إلا فى فصل الجفاف وإن كان لا يوجد ما يمنع من تقديمه للأكل فى بقية فترات السنة الأخرى (٢).

★ ★ ★

المبحث الثانى :

مساكن النويريين :

يتكون منزل الأسرة النويرية من كوخ أو عدة أكواخ وحظيرة للماشية، وتستمد الحظيرة أهميتها من أهمية الحيوان لدى النوير، ومن الطبيعى أن تنام الماشية فى الحظيرة، ولكن الحظيرة تتسع ليس فقط لنوم بعض شبان الأسرة بها، وإنما تتخذ أيضا من باب التكريم لها - أو للضيوف - مكانا لاستقبال الضيوف وللترحيب بهم،

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على ما كتبه الأستاذ « إيفانز بريتشارد » ضمن دراسته الحقلية للنوير والتى استغرقت اثنى عشر شهرا متقطعة على امتداد ست سنوات من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٦م ، والتى نشرت نتائجها في جزأين صدرا عام ١٩٤٠ ، وعام ١٩٥١ م .

ويرى « إيفانز بريتشارد » أن ذلك كله يحدث ؛ لأن الحظيرة تعتبر مركزا للحياة الاجتماعية لدى النويريين، ففيها يقضون وقت فراغهم ويستقبلون ضيفانهم. فالنويرى يحرص دوما على أن تكون حظيرته قبلة أنظار الكل ؛ لأن عدم الإقبال عليها أو مشاهدتها أو الجلوس بها يعنى واحدا من اثنين - وكلاهما مر على نفسية النويرى - إما أن تكون الحظيرة محطمة والأسرة لم تقم بإصلاحها وهذا عيب، وإما أن تكون الأسرة فقيرة ولا تملك ماشية أو تملك عددا قليلا منها لا يستحق عناء بناء حظيرة مستقلة..!

وتكاد تكون الحظيرة ملتقى وحيدا خاصا بالرجال من أفراد العشيرة، أما نساؤها فيلتقين فى « ستار » خارج كوخ الزوجة، ويكاد يكون للستار هذا مكانة اجتماعية ربما تعادل مكانة الحظيرة لدى الرجال من النويريين.

والنوير شبه عراة تقريبا، وتنتج أسرهم معظم ما تحتاج إليه فى تعاون وتكاتف وخصوصا عند رعى الماشية وصيد الحيوانات، وخاصة منها الغزلان والزرافة علاوة على صيد الأسماك، وحفر قنوات لتوصيل المياه للحدائق الملحقة بالأكواخ.

وملكية الماشية لدى النويريين تكاد أن تكون مقصورة على الأزواج فقط، وإن كان هذا لا يمنع أن يقوم كل زوج بتوزيع ما يمتلكه من ماشية على زوجاته ليس بغرض الملكية ولكن بهدف الاستغلال أو الانتفاع فقط (٣).

★ ★ ★

المبحث الثالث:

التكريس كظاهرة عند مجتمع النويريين:

عملية « التكريس » تلك هى دليل انتقال الفتى من مرحلة الصبا إلى مرحلة الرجولة، وهى عملية قاسية لابد أن يمر بها الصبى ؛ ليثبت قدرته على تحمل المكاره، وهى عبارة عن تقطيع الجبهة بواسطة سكين صغير « ست مرات » بحيث يمتد القطع الواحد من الأذن اليمنى إلى الأذن اليسرى، ولا تقف آثار هذه الجروح

على بقائها واضحة على الجبهة مدى الحياة بل يقول « إيفانز بريتشارد » : إن بعض الأهالى قد أخبروه بأنهم رأوا آثار هذه الجروح على جماجم المتوفين وبصورة دقيقة جدًا وواضحة (٤).

ولأن عملية « التكريس » هذه عملية جماعية فلابد أن تجرى لمجموعة أو لعدد من الفتيان الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ - ١٦ سنة مرة واحدة وفى وقت واحد، ويسمى العام الذى تجرى فيه هذه العملية بعام « التكريس » والذى يتوقف تحديده هو الآخر على مدى ما يتوافر لدى الأهالى من لبن وذرة، وغيرهما من المؤن والذبائح التى تقدم بعد ذلك لتكون غذاء فى الاحتفالات والمهرجانات التى تقام بعد نجاح عملية « التكريس »، ولابد لمن يقوم بعملية «التكريس» هذه أن يكون مدربا على ذلك، ويأخذ نظير قيامه بهذه العملية من كل صبى حربة ؛ لصيد الأسماك، ويتراوح ما يحصل عليه من حراب بعد كل عملية للتكريس ما بين ٤، ١٢حربة بعدد الفتيان المسموح بتكريسهم معا والذين يعيشون سويا بعد ذلك لمدة شهرين حتى تلتئم جراحهم (٥).

أما عن السر فى أن تكون عملية التكريس جماعية فذلك راجع لإيمان الأهالى بأن الصبى الذى يكرس وحده يظل أيضا طوال عمره وحيدا، وبالتالى يكون أمر هلاكه واقعا لا محاله، كما أن الأهالى يفضلون أن تجرى عملية «التكريس » فى نهاية فصل الأمطار ؛ حتى تكون المؤن متوافرة من جهة، ولتساعد من جهة أخرى رياح الشمال التى تهب فى هذه الفترة على أن تندمل الجراح (٦).

★ ★ ★

المبحث الرابع :

الزواج وأنماطه عند عشائر النويريين :

يبدأ الفتيان فى التودد إلى الفتيات ومطارحتهن الغرام بعد أن تكون البنت قد بلغت سن السادسة عشرة، وبعد أن يكون الفتى قد مر بعملية التكريس المشار إليها قبلا، وأنه من الطبيعى فى هذه السن أن يكون للفتاة عشيق واحد على الأقل، وإن

ذلك شيء عادى لدى عشائر النوير ؛ لانتشار العلاقات الجنسية بين الفتيات والفتيان فى مرحلة ما قبل الزواج.

وعموما فإن البنت تتزوج فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، أما سن الزواج عند الفتى فإنه يرتبط بحجم ومكانة أسرته ومقدار ما تمتلكه من ماشية، ثم ترتيبه بين إخوته الذكور، ولابد على أية حال من موافقة أسرة الفتاة على من يتقدم للزواج بها، وليس معنى هذا إجبار البنت على أن تتزوج بشخص لا تحبه.

وعلى أسرة العريس أن تدفع مهرا لا يتناسب فقط ومكانة أسرة الفتاة بل ويتناسب أيضا مع مكانة ومقدرة أسرة الفتى، وتقام بهذه المناسبة عدة حفلات للخطوبة والزواج، وإن كان النويريون يميلون إلى إتمام الزواج فى موسم الأمطار لسبب اقتصادى بحت يرتبط بتوافر « الثريد » وغيره من ألوان الطعام ؛ حتى يمكن لبقية الأهالى أن يأكلوا ويشربوا ويرقصوا ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة (٧).

ولا يقلل من بهجة هذه المناسبة أن يجد العريس عروسه ليست عذراء فى ليلتها الأولى، فالزوج لن ينزعج لذلك قط، ولكن فى الصباح يقوم أحد أفراد أسرة العريس بتجريد رأس الزوجة من شعرها ليس عقابا على فعلتها ولكن إعلانا بأنها قد صارت زوجة.. !! (٨).

ويشير « إيفانز بريتشارد » إلى أن الزوجة - بعد الليلة الأولى طبعا - تعيش فى مسكن والديها كما يظل الزوج كذلك مع أسرته حتى تنجب الزوجة طفلها الأول، ومن الطبيعى ألا يمنع هذا التفريق بين الزوجين من تسلل الزوج إلى كوخ زوجته ليقضى معها الليل. ولا تقبل الزوجة ذلك التفريق برغبتها بل إذعانا لمشيئة أسرتهاحتى تطمئن الأسرة إلى أن الزواج قد تم فعلا أو قد صار أمرا واقعا، وآية ذلك الاطمئنان هو الطفل الذى تنجبه الزوجة ؛ لأنه فى هذه الحالة فقط تنشأ صلة قرابة حقيقية تربط ما بين الزوج وزوجته من جهة وبينه وبين أسرتها من جهة ثانية، ولكن برغم آية الاطمئنان تلك تظل الزوجة لدى أسرتها حتى تفطم مولودها الأول وبعدها يسمح للزوج بإحضار زوجته لتعيش معه فى كوخهما المشترك مودعة من

أسرتها العزيزة عليها بقلة وملعقة واحدة.. ! ولا يهم فى هذه الحالة أن يكون لدى العريس بقية من مهر مستحق (*).

★ ★ ★

المبحث الخامس:

المهر كمقدمة ضرورية للزواج عند النويريين:

يلعب المهر دورا هاما فى استقرار الأسرة النويرية، لذلك يغالى النوير فى مهورهم حيث يبلغ المهر المثالى عندهم أربعين رأسا من الماشية ما بين ثور وبقرة وعجل صغير تأخذ منها أسرة الفتاة « الأب والأم والإخوة والأخوات » نصفها، أما النصف الباقى فيوزع مناصفة بين أسرة الأب « والده، وأخواته » وأسرة الأم، وواضح أن ذلك مهر مثالى ؛ لأنه لا يحدث إلا نادرا، لأن عدد الماشية المدفوعة كمهر يبلغ فى المتوسط عشرين رأسا بشرط أن تكون الماشية من لون وحجم ومواصفات خاصة تستدعى للاتفاق عليها عقد عدة جلسات للمفاوضات، ومن هنا كان على الزوجة التى تهجر بيت زوجها أن ترد أو تعيد للزوج ليس فقط ما حصلت عليه أسرتها من ماشية، بل وما أنتجته هذه الماشية أيضًا من عجول وأبقار ويصر الزوج دائما على أن تعود له نفس ماشيته وبنفس مواصفاتها الخاصة (٩)، الأمر الذى يدفع بكثير من الأسر النويرية إلى الضغط على بناتها للعودة إلى عش الزوجية لا بسبب الحب أو الحرص على كيان الأسرة، وإنما بسبب العجز عن رد ماشية الزوج بعينها لسبب أو لآخر، وفى غير حالة الانفصال فيعتبر الحب - لا الماشية - وحسن النية والسمعة الطيبة للزوج أهم دعائم استقرار الأسرة النويرية (١٠).

★ ★ ★

(*) اعتمدنا أيضا فى كتابة هذا الجزء على التلخيص الذى أورده الأستاذ ايفانز بريتشارد نفسه لكتابه عن «النوير» ضمن المحاضرات التى ألقاها تحت عنوان « الأنثربولوجيا الاجتماعية » . والتى جمعها وترجمها ونشرها تحت نفس الاسم الدكتور أحمد أبو زيد - فى المرجع المشار إليه قبلا .

المبحث السادس :

أنماط الزواج وأشكاله عند المجتمع النويرى :

ولكن هل الصورة الوحيدة للزواج عند النويريين فقط هى أن يعجب فتى بفتاة فيوسط أسرته لدى أسرتها حتى تخطبها ثم تزوجها له ؟!!

يجيب « إيفانز بريتشارد » على السؤال قائلا : إن ذلك هو النمط العادى للزواج، ولكن توجد إلى جواره أنماط أخرى منها زواج المرأة بالمرأة، وزواج الشبح، والزواج الليفيراتى، ويمكن إيجاز هذه الأشكال على النحو الآتى :

★ ★ ★

١ - زواج المرأة بالمرأة Women - Marriage :

أحيانا ما ترغب امرأة عاقر فى الزواج - لأن معتقدات النويريين تعتبرها فى هذه الحالة رجلا - من امرأة أخرى، فعندما تعجب تلك المرأة بفتاة ما تتقدم لخطبتها بنفس طريقة الرجال وتتم لزواجهما نفس الشعائر والتقاليد والمهر، وليس الاتصال الجنسى مشكلة فى هذه الحالة، فما على المرأة الزوج إلا أن تنيب أحد أقاربها الذكور للقيام بهذه المهمة بدلا عنها، ولكن تبقى الحقوق الشرعية محفوظة ومكفولة للمرأة الزوج التى قد تتزوج عدة زوجات إذا ما كانت ثرية، وهى لهن جميعا الزوج القانونى الذى يمنح أولاده - الذين أنجبوا باتصال الزوجات بأقارب المرأة الزوج - اسمه ويورثهم ثروته، ولا يحق لأية زوجة من زوجات المرأة الزوج أن تتصل اتصالا جنسيا بأى من الرجال من وراء ظهر المرأة الزوج أو بدون إذنها، لأن هذا معناه وقوع جريمة زنا تحصل المرأة الزوج بمقتضاها على تعويض مناسب مع استرداد كل ما أنفقته على عملية الزواج (١١).

والمرأة الزوج تكون فى هذه الحالة - حالة زواجها من امرأة أخرى - تكون أبا اجتماعيا أو شرعيا، أما الرجل الذى اتصل جنسيا بزوجة المرأة الزوج فهو مجرد أب فيزيقى، والأول ينتسب إليه الطفل فعلا ويرث اسمه وثروته، والثانى اقتصر دوره

فقط على الاتصال الجنسى والإنجاب، ومن الطبيعى أن يكون الأب الاجتماعى هو نفسه الأب الفيزيقى، ولكن الحادث فى بعض الحالات لدى مجتمع النوير، ولدى غيره من المجتمعات العشائرية وخصوصا من خلال العلاقات غير الشرعية، ألا يكون الأب الاجتماعى هو بالضرورة الأب الفيزيقى، والعكس صحيح أيضا.

وينادى الصغار المرأة الزوج بأبى، وعندما تكبر إحدى هؤلاء الصغار وتخطب فإن المهر يقدم من أسرة الفتى للمرأة الزوج التى تحصل على نصف المهر بصفتها والد الزوجة، أما الرجل الذى حملت منه الزوجة فعلافيعطى بقرة واحدة عن كل فتاة تتزوج ويطلقون عليها بقرة الإنجاب، وفيما عداهذه فليست له أية حقوق أخرى لأن دوره قد انتهى، هذا ومن المسلم به لدى المجتمعات التي ينتشر فيها ذلك النمط من الزواج، أن المرأة الغنية يمكنهاأن تتزوج عدة نساء وبنفس الطريقة (١٢).

هذا وتمارس كذلك قبائل « الجوس » التى تعيش فى كل من « تنزانيا وكينيا » تمارس نفس النمط من الزواج « زواج المرأة بالمرأة » ولكن مع اختلاف بسيط فى وضعية المرأة الزوج، فهى عند النوير امرأة لا تنجب أما عند «الجوس Gusi» فهى أرملة، هذا وتتطابق نفس حقوق المرأتين الزوجين فى كلا المجتمعين النويرى والجوسى.

والشىء نفسه تمارسه قبائل «اليوروبا Yoruba »، و«الياجبا Yagba»، و«الأكوكى Akoke»، و«النوبى Nupe»، و« الجاناجانا GanaGana» النيجيرية، وكذلك عند عشائر «السرير Sariere » السنغالية (١٣).

٢ - زواج الشبح Ghost-Marriage :

إذا مات نويرى دون أن يكون له وريث، فمن واجب أحد أقاربه من جهة الأب أن يتزوج فتاة باسم ذلك المتوفى، وفى هذه الحالة يكون الشخص المتوفى هو الزوج الشرعى للزوجة وبالتالى فإنه يكون والد أطفالها من الشخص الذى تزوجها باسمه، وكما يكون الشخص المتوفى أبا اجتماعيا يحمل الأبناء اسمه ويرثون ماله، بينما يكون الزوج القريب مجرد وسيلة لإنجاب أطفال عجز المرحوم عن إنجابهم فى حياته

أو حالت الظروف دون أن يتزوج قبل مماته أو قد يكون ميتا وأمنيته فى ولد ذكر لم يمتد به العمر ليراه.. !

وعندئذ فقط - وخاصة عند إنجاب أطفال ذكور - تهدأ روح المتوفى ويستكين شبحه وينام ذووه قريرى الأعين فقد أدوا الواجب تجاهه، وإلا فإن شبح المتوفى لن يكّن أو يستكين وسيظل مصدر إزعاج لأهله، بل ولذويه جميعا، وقد يكون ذلك الشبح مصدر قلق وازعاج لسكان المنطقة كلها وقد يظل كذلك إلى أبد الآبدين.. !!

ومن مضار هذا الزواج أن الرجل المتزوج باسم ذلك الشبح - أى قريبه المتوفى - قد لا يتمكن لسبب أو لآخر من اتخاذ زوجة شرعية تنجب له أبناء يحملون اسمه ويرثونه ؛ لأنه من خلال هذا النمط - زواج الشبح - يعد الزوج فى نظر المجتمع النويرى شخصا لم ينجب أطفالا، ومن هنا يجب على أحد أقربائه - استمرارا للمسيرة - أن يتزوج له بعد أن يموت وإلا فإن روحه سوف تظل معذبة تجلب القلق والإزعاج لنفسها وللآخرين.

٣ - الزواج الليفيراتى Leviratic- Marriage :

يرتكز هذا الزواج على عرف سائد لدى النويريين، وهو أنه ليس من حق الزوجة التى يتوفى عنها زوجها أن تتزوج من بعده، وأن عليها أن تقضى بقية عمرها أرملة وإن كان هذا لا يمنع من استمرارها فى إنجاب الأبناء باسم الزوج المتوفى. وهؤلاء الأبناء الجدد يعتبرون فى رأي المجتمع أبناء شرعيين للزوج المتوفى شكلا وموضوعا.

أما كيف يحدث هذا، فإن العادة قد جرت أن يقوم شقيق الزوج المتوفى بواجب الاتصال الجنسى بأرملة أخيه، وأن ينجب له منها أبناء يحملون اسم الشقيق الراحل، والمجتمع النويرى يحنو على هذه العلاقة الجنسية بين الأرملة وشقيق زوجها ويعتبر أسرتها أسرة شرعية تضم إلى جانب الأرملة، شقيق الزوج والأطفال إلى جانب الزوج المتوفى باعتباره زوجا قانونيا واجتماعيا.

وقد فرق « إيفانز بريتشارد » بين زواج الشبح والزواج الليفراتى، على أساس أن الزوج فى الحالة الأولى « زواج الشبح » يدفع مهرا ويقيم حفلا لزواجه باسم

الشخص المتوفى، أما فى النوع الثانى من الزواج « الزواج الليفراتى » فلا يدفع شقيق المتوفى لأرملته شيئا " لأن المهر سبق أن دفعه شقيقه من جهة، ولأن الزوج المتوفى من جهة أخرى ما زال هو الزوج القانونى، لدرجة أن الأطفال الذين ينجبهم هو من أرملة أخيه لا يعتبرونه أبا لهم وكثيرا ما يرفضون الاعتراف به كواحد من أفراد الأسرة(١٤).

هذا ويرى بعض الباحثين أن ذلك النمط من التنظيم الاجتماعى يشيع فى كثير من المجتمعات التقليدية فى أفريقيا، وبخاصة عند الشعوب النيلية والنيلوحامية، حيث تعتمد وحدة المجتمع على ما يعرف « بنظام طبقات العمر».

ويرون أيضا أن نظام التفاضل الطبقى على أساس السن، هو العامل الحاسم الذى يمكن أن ترد إليه مختلف صور التضامن والتماسك لدى كل الأقسام الإقليمية والقرابية والاقتصادية المختلفة داخل تلك المجتمعات، وعلى هذا فإن نظام طبقات العمر يتألف نتيجة توحد مجموعة من الناس ذوى الأعمار المتقاربة. ويختار أعضاء الطبقة من مختلف أرجاء المجتمع الكبير بدون النظر إلى اختلاف الموطن أو العائلة، ويتولون جميعا - كطبقة واحدة - إحدى الوظائف الاجتماعية داخل المجتمع النويرى، مثل وظائف الحرب أو الاغارة أو الفصل فى المنازعات بين الناس... إلخ (١٥).

★ ★ ★

المبحث السابع:

الانفصال والزنا عند مجتمع النويريين:

لسبب ما، قد يحدث عدم اتفاق أو انسجام بين الزوج وزوجته، فتضع الزوجة حدا لتعاستها بأن تهجر زوجها وتبحث لنفسها عن عشيق تعيش معه، وعندما تُرد لها سعادتها المفقودة، هنا يكون على أسرة الزوجة أن ترد بالتالى كامل مهرها إلى الزوج المهجور (*). - نفس بقراته بلونها وحجمها وعددها ونتاجها - خصوصا إذا لم

(*) فى كثير من الأحيان تضاف إلى رد المهر كل الهدايا العينية التى أهداها الزوج إلى زوجته ، أو ما يوازى قيمتها المادية نقدا ، فضلا عن أية مصروفات أخرى صرفها الزوج على زوجته غير مصروفات الإعاشة والعلاج .

يكن الزوج هو المتسبب الأصلى فى الانفصال، وإلا فمن حق الزوج المهجور أن يوقع على هاجرته عقوبة رادعة تتمثل فى اعتباره - أى الزوج وبتأييد من المجتمع - لأبناء زوجته من عشيقها أبناء شرعيين له يحملون اسمه ويرثون ماله.

ويعلل « إيفانز بريتشارد » هذه الظاهرة بأن المهم لدى المجتمع النويرى ليس الأبوة الفسيولوجية وإنما المهم أن يكون للرجل أبناء من زوجته بصرف النظر عن مصادرهم الحقيقية، ومن هنا فليس من العار عند الرجل النويرى أن يربى طفلا لم ينجبه هو لأن الأبوة القانونية أو الشرعية عندهم تفوق فى الأهمية التفكير فى زنا الزوجة أو فيمن اتصل بها جنسيا وأنجب منها أبناء.

وليس معنى هذا أن المجتمع النويرى يعتبر الزنا عملا قانونيا أو مشروعا، ولكنهم - أى النويريين - فى نفس الوقت لا يعتبرونه عملا غير أخلاقى أو عملا مشينا يجلب لهم عارا أو خجلا، أو يستحق حتى أن يعكروا صفو علاقاتهم بسببه.. !!

ولكن إذا ما أراد الزوج أن يتمسك بحقه فى حالة ثبوت الزنا فإن على الزانى أن يسوق للزوج المخدوع ست بقرات تعويضا له عن فسقه بزوجته، وإن كان مكان الزنا أو الفسق يلعب دورا هامًا فى تحديد شكل ومدى غضبة الزوج لزنا زوجته، بمعنى أنه إذا فسقت الزوجة فى مكان ما بعيدا عن بيتها كان زناها أقل خطرا، أما إذا فسقت فى بيت الزوجية فيكون ذلك شيئًا فظيعًا له - أى للزوج - حيث يعتقد أن زنا زوجته فى منزله يجلب له المرض، ويعتبر اعتداء صارخا على حقوقه.. !![١٦].

وحتى نتعرف أكثر على طبيعة الزنا فى المجتمع النويرى نستعيد ما قاله « إيفانز بريتشارد » : إنه فى حالة ثبوت الزنا على الزوجة ودفع الزانى للست بقرات كتعويض للزوج المخدوع، يمكن أن ترد للزانى خمس بقرات من الست السابق إعطاؤها تعويضا للزوج، وذلك فى حالة إنجاب الزوجة الزانية لطفل ذكر سليم البنية نتيجة لاتصالها الجنسى بعشيقها، ولا يستبقى الزوج البقرة السادسة حفاظا على كرامته أو حتى كرمز يردع زوجته، وإنما يحتفظ بها كتميمة تحفظ على الطفل

- ثمرة الزنا - حياته لأنه لو مات - بسبب رد كل البقر - فإن شبحه لن يزعج غير والده الاجتماعى أى الزوج الشرعى لأمه (١٧)...!

★ ★ ★

المبحث الثامن:

نظام طبقات العمر لدى القبائل النويرية:

يلعب نظام طبقات العمر The Age-Set System دورا مؤثرا فى حياة النوير - فعندما ينتقل الفتى من مرحلة الصبا إلى مرحلة الرجولة - طبقا لنظام التكريس الذى أشرنا إليه - فإن واجباته العائلية وعلاقاته الاجتماعية تتغير كثيرا، كما أن سلوكه يتحدد بشكل دقيق سواء بالنسبة لأقرانه من نفس الطبقة أو بالنسبة للأفراد الآخرين من أعضاء الطبقات الأخرى، ويرجع وهذا الاعتقاد إلى أن دماءهم قد سالت واختلط بعضها ببعض فى وقت واحد أثناء عملية التكريس وعلى النحو المشار إليه قبلا.

ولقد حدد « إيفانز بريتشارد » عدة نقاط تصلح لأن تكون إطارا لنظام طبقات العمر يمكن أن نوجزها فيما يلى :

١ - يحرم على الفتى أن يتزوج ابنة أحد زملاء طبقة عمره أو أن يتصل بها اتصالا جنسيا حيث إنها تعتبر ابنته كما يعتبر هو أباها (*).

٢ - كل أعضاء الطبقة الواحدة سواء أو متساوون فيما بينهم، وتجمعهم رابطة قوية توحدهم وتجمع شملهم بل وتجعل مصيرهم واحدا، لذلك فالنويريون يساعدون بعضهم بعضا فى السعى على الرزق وفى الحرب وفى غير ذلك من صور وعلاقات التكافل الاجتماعى.

(*) هذا الاعتقاد يعود إلى أن دماءهم قد سالت فى وقت واحد واختلطت ببعضها أثناء عملية التكريس وعن النحو المشار إليه فى غير هذا المكان .

٣ - يلقى أعضاء طبقة العمر الأكبر سنا الاحترام اللائق بهم من أعضاء الطبقات الأصغر سنا، ويبرز ذلك من خلال علاقاتهم المختلفة معهم بما يغلفها من إكبار وتقدير خاصين (١٨).

ومن هنا تكون الطبقات لدى النوير ليست كغيرها من الطبقات عند الأزاندى، فالسن ركيزتها فى الأولى «النويريين» ، بينما الوراثة عصبها فى الثانية «الأزانديين».

هذا ويقدر عدد أفراد قبائل النوير فى الوقت الحالى بحوالى مليونى شخص إلا قليلا، ويعيش النويريون حاليا فى مديرية أعالى النيل السودانية عند ملتقى بحر الغزال بالنيل الأبيض وعند ملتقى الحدود السودانية الأثيوبية المشتركة (١٩).

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق - ص ٢٧٥ .

(٢) E. E. Evans . Pritchard, The Nuer, A Description of the Model of linclihood and Political, Institutions of People, Oxford , 1940 .

(٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى ، مصدر سابق ، ص ص٢٧٦-٢٧٧.

(٤) E. E. Evans . Pritchard kinships AndMarriage Among The Nuer, Oxford, 1951.

(٥) دكتور على إسلام الفار - الأنثربولوچيا الاجتماعية - مرجع سابق ص ص ٢٠٦ - ٢٤١ .

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٧٩ المتن والهامش .

(١٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١١) انظر « إيفانز بريتشارد » مصدر سابق ص ٢٠ ، فى دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(١٢) E. E. Evans . Pritchard, The Nuer, opcit. PP. 108- 110.

(١٣) استزادة انظر :

(أ) E. E. Evans . Pritchard, Rinohip and Marriag A mong the Nuer. 1951, p.p 105-110.

(ب) Coutu miere Jurdiques de L'Aprique , Occidontale, Francoisc T.Ip220.

فى دكتور محمود زناتى - نظم وعادات « مجموعة مقالات » -١٩٩٣ ، غير موضح الناشر .

(١٤) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٢٨٠ -٢٨١ ،

(١٥) للاستزادة انظر : دكتور : أحمد أبو زيد - دراسات أنثربولوچية فى المجتمع الليبى - مطبعة دار نشر الثقافة - الإسكندرية ١٩٦٢ - ص ص ١٩ -٢٠ .

(١٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(١٧) « إيفانز بريتشارد » مصدر سابق ص ص ٣٢ - ٤٠ .

(١٨) أنظر : دكتور على إسلام الفار - الأنثربولوچيا الاجتماعية - مرجع سابق ص ص ٢٢٢ - ٢٢٧ .

(١٩) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

★ ★ ★

الفصل العاشر

عشائر البوشمان فى الجنوب الأفريقى

- مقدمة حول عشائر البوشمان فى الجنوب الأفريقى .
- مكانة المرأة ودورها داخل الأسرة البوشمانية .
- فنون البوشمان .
- الحياة الاجتماعية لدى البوشمان :
  - الزواج .
  - الاحتفال بالمواليد .
  - وداع البوشمان لموتاهم .
- بعض الخصائص النفسية للبوشمان .

مقدمة حول عشائر البوشمان الأفريقية

البوشمان : هم سكان صحراء كلهارى فى الجنوب الأفريقى، وهم يعتمدون على الصيد، لذلك فحياتهم حياة بداوة وترحال دائمين سعيا وراء الحيوان وخصوصًا حيوان الصيد؛ لأنهم عازفون عن ممارسة الزراعة وتربية الحيوان بشكل عام، ولكن البوشمان وهم يسعون لصيد الحيوانات بكل الجد لدرجة أنهم يهيمون على وجوههم فى سبيل صيده، نقول إن البوشمان يهيمون على وجوههم فى طول صحراء كلهارى وعرضها، وعندما يحطون الرحال فى بقعة ما، يقوم أكبر الرجال سنا باختيار موقع حلهم.. ومن ثم تقام فيه الأكواخ حول شعلة النار التى يوقدها كبير القوم كعلامة على صلاحية المكان، وتترك للنساء عملية تشييد الأكواخ وتهيئتها للسكنى.. وفى كل الأحوال يشترط فى موقع الأكواخ أن تكون بعيدة عن موارد المياه حتى لا يكون وجودها بالقرب منها سببا فى شرود الحيوانات التي هى الهدف النهائى لحل البوشمان أو ترحالهم (*).

أما كيف يوقع البوشمان بصيدهم من الحيوانات فإن لهم فى ذلك خبرة طويلة.. بدءا من معرفة كل أسرار الظواهر الطبيعية والمناخية والبيئية المحيطة بهم.. وانتهاء بمعرفتهم بطبائع حيوان الصيد وإجادتهم لطرق تقليده (**)، علاوة على مهارتهم بمختلف طرق الإيقاع به والتحايل عليه.

★ ★ ★

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على ما كتبه « ج . و . بيج » خلال مؤلفه عن « الشعوب البدائية » السابق الإشارة إليه .

(**) تعتبر عملية محاكاة أو تقليد حيوانات الصيد للإيقاع بها من أكثر حيل البوشمان مدعاة للاستغراب وجلب المتعة سواء للمشاهدين أم المتابعين من صغار البوشمانيين ، وإن كان الصغار لا يتسلون فقط . وإنما يعد هذا نوعا من أنواع التدريب الميدانى لهم على حيل الصيد ووسائله المختلفة .

المبحث الأول:

مكانة المرأة ودورها داخل الأسرة البوشمانية:

المرأة هى المسئولة عن إقامة وإعداد الأكواخ.. كما أنها مسئولة أيضا عن جمع الحطب وجلب الماء وإحضار الخضر للطعام وصيد صغار الحيوانات التى تصلح للطهى، والمرأة البوشمانية ماهرة فى صنع الأرز من النمل الأبيض، والخبز من لباب النخيل، والإسباكيتى من الديدان والسحالى والثعابين، ولا مانع من أن تخلط المرأة البوشمانية كل ذلك ببعض الجراد والحشرات والضفادع والسلاحف كفواتح للشهية [١]. !!

وكثيرا ما تحتاج المرأة البوشمانية إلى بعض العسل فيذهب الرجال فى سبيل إحضاره كل مذهب حتى ولو كلفهم ذلك حياتهم ؛ لأن خلايا النحل البرى عادة تكون على ارتفاعات شاهقة.. وتلك المشقة يعانيها الرجل البوشمانى إذا ما رامت زوجته بيض النعام.. إذ عليه فى كلتا الحالتين أن يركب الوعر بحثا وتنقيبا عنهما - العسل والبيض - ثم عليه بعد ذلك أن يثبت ملكيته لهما عن طريق غرس أحد سهامه بالقرب من مصدرهما.

ولا تقف معاونة الرجل لزوجته فى إحضار العسل وبيض النعام فقط.. بل عليه أيضا فى كثير من الأحوال أن يعاونها فى إعداد الأكل وخصوصا أن الكثير من عشائر البوشمان قد اعتادوا على أنهم لا يتناولون الأكل إلا مطبوخا.

والمرأة البوشمانية تعالج العسل البرى وتجيد صنع شراب مخمَّر منه وذلك الخمر يعين كثيرا مع التدخين على هضم تلك الوجبات الدسمة من الأرز أو المكرونة التى أشرنا إليها قبلا.. [٢]. !!

★ ★ ★

المبحث الثانى:

الفنون المختلفة لدى البوشمان:

أكدت بعض الدراسات أن زعماء البوشمان كانوا يسكنون فى أكواخ صخرية « كهوف » زخرفت بالعديد من الألوان ونقشت على جدرانها العديد من الصور والرسوم التى تحاكى الحيوانات، ولا سيما قطعان الماشية وبعض الطيور كالنعام، كما كانت بعض تلك الرسوم تمثل عمليات الصيد وفنونه، وتسجل جانبا من صور الحياة الاجتماعية عندهم.

كما أن للبوشمان ولعا خاصا بالموسيقى والرقص، ولهم فى ذلك العديد من الآلات الموسيقية، ولا سيما تلك القيثارة ذات الأربعة أوتار والناى فضلا عن الطبول والدفوف.. إلخ (٢).

★ ★ ★

المبحث الثالث:

الحياة الاجتماعية لدى البوشمان:

سنتحدث هنا - بإيجاز - عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لدى البوشمانيين من خلال كيفية الزواج عندهم، فضلا عن معرفة كيفية تعاملهم مع أولادهم، وطرق وداعهم لموتاهم، وذلك على النحو الآتى :

(أ) كيفية الزواج:

يختار الرجل عروسه من بين نساء الجماعات البوشمانية المجاورة، وقد يقدم لها أو يهديها بقرة وحشية أو إزارا من جلد الحيوان على سبيل المهر أو الهدية، ولكن الرجل البوشمانى فى كل الأحوال يجب أن يثبت لأهل عروسه أنه جدير بها، وقد يكلف ذلك الإثبات جراحا دامية، إذ تقضى التقاليد البوشمانية أنه أثناء حفل العرس، أن يمسك العريس بعروسه فى ذات الوقت الذى يهجم فيه أهلها عليه شارعين أسلحتهم نحوه، وعليه كذلك أن يرد سهامهم وألا يدع أبدا عروسه تفلت

منه.. لأنه إذا حدث وأفلتت منه فإن ذلك يكون علامة أو دليلا على عدم قدرته على حمايتها، وبالتالى يكون غير جدير بها.. وعليه أيضا إن أراد إن يفوز بها أن يعاود نفس التجربة من جديد خلال حفل عرس آخر، وإذا ما قدر له النجاح فإنه - على سبيل التعويض - يقيم عند أهل عروسه عدة أسابيع ثم ما يلبث بعدها أن يأخذ زوجته ليعيش وسط قومه.

وتسود لدى عشائر البوشمان ظاهرة أو نظام الزواج بامرأة واحدة وإن كانت التقاليد لا تمنع ولا تحرم الزواج بأكثر من واحدة.

(ب) مراسم الاحتفال بالمواليد :

يحتفل البوشمان باستقبال مواليدهم احتفالا كبيرا.. حيث يقيمون لهم الولائم الراقصة التى يستمر فيها الطرب والغناء حتى يحين موعد تسمية المولود الجديد بعد فترة زمنية محددة.

ولا يعترف للصبى البوشمانى ببلوغه مبلغ الرجال دون أن يمر بفترات إعداد وتمرين خاصة واختبارات قاسية - أشبه بتلك التى ينهض عليها نظام التكريس - وعلى الصبى البوشمانى أن يثبت خلالها رجولته وقدرته على قهر الصعاب، وبعدها يكون من حقه أن ينال شرف تشريط وجهه عن طريق إحداث عدد من الجروح الغائرة لتكون علامة مميزة لصاحبها فيعرف بها وفقا للعلامات الخاصة لدى قبيلته [٤](*). !!

(جـ) إجراءات وداع البوشمانيين لموتاهم :

عند الموت تدفن جثة الميت قرب كوخه فى وضع النائم على جنبه على أن تكون الركبتان مثبتتين بالقرب من الصدر، هذا وتدفن مع الميت كل ممتلكاته قبل وضع الحجارة على قبره حماية لجثته من الحيوانات الضارية، وعلى جماعة المتوفى أن تغادر المكان الذى تم دفن الجثة فيه وعليها كذلك ألا تعود إلى القبر إلا بعد مضى عامين على الأقل من تاريخ الوفاة أو عملية الدفن.

(*) تكاد عملية التكريس التى يمر بها شباب البوشمان تشبه إلى حد كبير عمليات التكريس التى يمر بها كثير من شباب العشائر القبلية الأخرى ، وخاصة عند عشائر النوير .

(د) بعض الخصائص النفسية للبوشمانيين:

أكدت الدراسات التى أجريت على البوشمان أن الواحد منهم له العديد من الخصائص والصفات النبيلة التى من أهمها الشجاعة التى لا تعرف الخوف، والكرم الزائد عن الحد، والاعتزاز بالوطن، والتقدير العظيم للحرية، كما أن البوشمانيين يتسمون بالإخلاص الشديد للزعماء والولاء الأشد لجماعاتهم، والبوشمانيين لا يختلفون كثيرا فى هذا الشأن عن البدو فى العديد من المجتمعات الصحراوية (٥).

★ ★ ★

المصادر

(١) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) نفس المصدر السابق وانظر أيضا مؤلفنا عن : علم الاجتماع البدوى - الكتاب الثانى - البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية - مكتبة غريب : القاهرة ٢٠٠٠ فى مواضع كثيرة منه .

(٣) دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر سابق ، ص ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٤) انظر المرجع السابق - ص ١٢٧ .

(٥) دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر سابق ، ص ص ١٢٥ - ١٢٦ .

★ ★ ★

الباب الثانى

علم الاجتماع البدوى
الملامح والعلاقات والمهام

- مقدمة .. نحو علم اجتماع بدوى .
- علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى .
- ماهية علم الاجتماع البدوى .
- علم الاجتماع البدوى والعلوم الاجتماعية .
- علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع الريفى .
- علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية.
- علم الاجتماع البدوى وتحديث المجتمعات البدوية .
- التوطين ومهامه فى المجتمعات البدوية .

مقـــدمـة
نحو علم اجتماع بدوى

نحن خلال هذا الباب سوف نتعرض لمجموعة من القضايا التي نعتقد أنها سوف تسهم إلى حد كبير فى تحديد ماهية وملامح وخصائص علم الاجتماع البدوى، وكذلك فى توضيح طبيعة العلاقة التى تربط العلم الوليد بغيره من العلوم الاجتماعية، إلى جانب تحديد طبيعة المهام والأدوار التى يجب على علم الاجتماع البدوى - فى رأينا - أن يؤديها. وخاصة ما تعلق منها بتحديث المجتمعات البدوية تنمية وتوطينا وفى إطار تنموى متكامل.

ونحن فى هذا المجال نود أن نؤكد على أن علم الاجتماع البدوى علم قديم وعلم جديد فى ذات الوقت.

علم جديد إذا ما اعتبرنا محاولتنا عام ١٩٧٤هى أول محاولة علمية منظمة منذ ثمانية قرون خلت وعلى وجه التحديد منذ أيام العبقرى ابن خلدون، والتى تحظى من خلالها - أى المحاولة - ظاهرة البداوة باهتمام مركز يستهدفها مباشرة وباعتبارها مطلوبة لذاتها.

أما عن اعتبارنا لعلم الاجتماع البدوى علما قديما.. حيث تحددت الكثير من ملامح هذا العلم وخصائصه وموضوع الدراسة فيه على يد "ابن خلدون" من خلال تناوله لظاهرة البداوة أثناء تفاعلها مع الحضارة باعتبارهما الضدين أو النقيضين الأزليين، أو باعتبارهما محورى الارتكاز لبقية المجتمعات البدوية الصحراوية وغيرها من المجتمعات خاصة الريفية والحضرية.

كما كانت لنا ثلاث محاولات سابقة، وكان لها فضل التمهيد حتى رأى علم الاجتماع البدوى النور، ونعنى بها كتاب « البداوة العربية والتنمية » الذى صدر لنا عام ١٩٦٧، من خلال مكتبة القاهرة الحديثة. والمحاولة الثانية كانت مع كتاب « تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية » - وتوأمه كتاب « تنمية المجتمعات الصحراوية - تطبيقات ميدانية» الذى صدر عن نفس الدار عام ١٩٦٨، وكانت تلك المؤلفات الثلاثة مدخلاً غنيا مهد لظهور علم الاجتماع البدوى لأول مرة عام ١٩٧٤ عن دار النهضة العربية بالقاهرة.

ولو أننا للحق وللتاريخ نضيف أنه كانت هناك محاولات غير كثيرة سبقت، منها ما تعرض لظاهرة البداوة بشكل مباشر وخاصة فى وطننا العربى، ومنها ما تعرض لها فى سياق حديثه عن ظواهر أخرى كانت هى المطلب الأساسى لتلك الدراسات أولاً... ثم بعد ذلك تأتى ظاهرة البداوة فى رتبة أقل من الاهتمام.

هذا، ومن أبرز من ساهموا نظريا وعمليا وبشكل مباشر فى موضوع الاجتماع البدوى الأستاذ المرحوم الدكتور محمد عوض محمد والأستاذ الدكتور محيى الدين صابر وله فى هذا المجال كتاب عن « البدو والبداوة » بالاشتراك مع الدكتور لويس كامل مليكة، صدر عام ١٩٦٦ عن مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى بسرس الليان منوفية، وكانت للدكتور محى الدين صابر قبل ذلك « مقدمة فى الاجتماع البدوى» ضمن كتاب « البدو والبداوة » للأستاذ مكى الجميل الذى صدر عام ١٩٦٢ عن المركز السابق أيضًا، هذا علاوة على العديد من الدراسات الميدانية التى أشرنا إليها فى حينها، كما ساهم الأستاذ مكى الجميل بمجموعة من الدراسات والكتب لعل من أبرزها كتاب « البدو والبداوة » المشار إليه وكتاب « البدو والقبائل الرحالة فى العراق » الذى صدر عن مطبعة الرابطة ببغداد سنة ١٩٥٦، كما ساهم أيضا الأستاذ عبد الجليل الطاهر من خلال كتابه « البدو والعشائر فى البلاد العربية » والذى صدر عن معهد الدراسات العربية العالمية بالقاهرة عام ١٩٥٥. ساهم بجهد علمى واضح فى تحديد البنيان الاجتماعى للمجتمع العشائرى فى البلاد العربية،

ومن أبرز الدراسات التى أسهمت بشكل غير مباشر فى إثراء موضوع الاجتماع البدوى تلك الدراسات المستفيضة لأستاذنا المرحوم أبو خلدون "ساطع الحصرى" والتى دافع فيها عن ابن خلدون وشرح فكره وقربه للناس خلالها.

كما ساهم فى هذا المجال الأستاذ الدكتور على الوردى من خلال كتابه « منطق ابن خلدون » الذى صدر عن معهد الدراسات العربية عام ١٩٦٢، والذى حدد خلاله خطا واضحا لنظرية ابن خلدون الاجتماعية ووافقناه عليه ضمن كتابنا « البداوة العربية والتنمية » المشار إليه قبلا.

هذا وقد أسهم كتاب الأنثربولوچيا الاجتماعية، وعلماؤها فى مصر بدور كبير ساعد بغير شك فى تحديد موضوعات علم الاجتماع البدوى، وخصوصا تلك الدراسات الميدانية التى قام بها كل من المرحوم الأستاذ الدكتور على أحمد عيسى والأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد فضلاً عن الإسهام النظرى فى مجال الأنثربولوچيا الاجتماعية لكليهما سواء باللغة العربية أم الأجنبية أم بما نقلاه إلى العربية من أمهات الكتب والدراسات الأنثربولوچية، وأخص بالذكر هنا المؤلف القيم عن «البناء الاجتماعى بجزأيه» للأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد، وكذلك كتاب « دراسات أنثربولوچية فى المجتمع الليبى »، كما أسهم أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد الخشاب إسهاما بارزا فى هذا الشأن من خلال كتابه « دراسات أنثربولوچية » الذى صدر عن دار المعارف عام ١٩٧٠، كما أسهم بنصيب وافر (*) فى هذا المجال الأستاذ الدكتور إبراهيم رزقانة من خلال كتبه الأنثربولوچية العديدة وكذلك أبحاثه ودراساته المتنوعة، ومن الهيئات التى أسهمت بدور بارز ومباشر فى تحديد موضوعات علم الاجتماع البدوى، وكذلك فى التعرف على مشكلات المجتمعات البدوية العربية ومحاولة وضع الحلول لها، جامعة الدول العربية وأجهزتها المختلفة عن طريق العديد

(*) ومن أبرز الذين ساهموا بجهد مشكور فى هذا المجال أستاذنا المرحوم الدكتور محمد طلعت عيسى من خلال مؤلفاته الاجتماعية والأنثربولوچية سواء منها المؤلفة أو المترجمة وخاصة كتابه عن « الهدايا الملزمة » والذى صدرت ترجمته القيمة عام ١٩٧٢ تحت عنوان «علم الاجتماع والأنثربولوچيا بحث فى الهبات والهدايا الملزمة » عن مكتبة القاهرة الحديثة .

من المؤتمرات وحلقات الدراسة والبحث التى عقدت لهذا الغرض والتى كان من بينها الندوة التى عقدتها «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» حول «ابن خلدون والفكر العربى المعاصر» بتونس فى إبريل عام ١٩٨٠، حيث تعرضت هذه الندوة لكثير من آراء ابن خلدون حول البدو والبداوة والحضارة والتحضر. وقد طمأنتنا تلك الندوة كثيرا على سلامة ما انتهجناه لتأسيس «علم الاجتماع البدوى».

ولاشك أن كل تلك الإسهامات المباشرة أو غير المباشرة (*) كانت لها تأثيراتها الواضحة التى مهدت لنا الطريق حتى ظهر «علم الاجتماع البدوى» كعلم له اليوم مكانته واهتماماته على امتداد العالم وخاصة فى منطقتنا العربية حيث ضمت جامعات عربية كثيرة كراسى وأقسام وبرامج خاصة تهتم بدراسة علم الاجتماع البدوى، وقد لمست ذلك بنفسى سواء خلال وجودى فى فرنسا لطلب المزيد من العلم، أم أثناء عملى كأستاذ فى العديد من الجامعات العربية والأجنبية.

وعلى الجانب الآخر توجد قلة من الباحثين الذين اعتمدت دراساتهم بشكل مباشر.. ويكاد يكون حرفيا على كتابنا «علم الاجتماع البدوى» ولكن عدم توافر الأمانة أو الضمير العلمى لديهم عقد ألسنتهم وأقلامهم فلم يذكروا شيئا عن ذلك. ومن دواعى

(*) من أكثر تلك الإسهامات برزوا ما قام به كل من المرحومين الأستاذ الدكتور محمد على محمد، والأستاذ الدكتور سيد الحسينى أستاذى الاجتماع بجامعتى الإسكندرية وعين شمس، رحمهما الله، من جهد خارق لإثراء علم الاجتماع تأليفا وترجمة وخاصة فى مجال الأنثربولوجيا الاجتماعية، وقد كانت كتبهما وأعمالهما سواء الفردية أم المشتركة خير عون لنا على اجتياز درب البداوة الموحش.

ولا يفوتنى فى هذه العجالة أن انوه بجهد الزميل العزيز الحبيب المرحوم الدكتور محمد عبد الله أبو على أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة واذكر بالفضل دوره المميز حتى صدر «علم الاجتماع البدوى» بالصورة المشرفة التى ولد عليها أننا تعاوننا معا مع الأستاذ المرحوم طلعت عيسى والزميل الدكتور عادل مختار الهوارى لإصدار سلسلة كتب «علم الاجتماع والتنمية» عام ١٩٧٤ والتى كان «علم الاجتماع البدوى» باكورتها.

كما أننى لا أنسى الدور الرائد للأستاذ الدكتور محمد الجوهرى رئيس جامعة حلوان الأسبق والدكتور محمود عودة نائب رئيس جامعة عين شمس ومعهما الأستاذة الدكتورة علياء شكرى أستاذة الاجتماع البدوى بكلية البنات جامعة عين شمس خاصة بالنسبة لجهدهم المشكور فى إصدار سلسلة كتب علم الاجتماع المعاصر، ودور السلسلة الذى لا ينكر ليس بالنسبة لعلم الاجتماع البدوى وحده ولكن بالنسبة لعلم الاجتماع عموما والأنثربولوجيا الاجتماعية خصوصا.

الأسف أن الكثير منهم أكاديميون يتولون مسئولية تدريس علم الاجتماع البدوى فى العديد من الجامعات العربية الآن. وهم معروفون لى ولكثيرين غيرى وبالاسم.

وبقدر ما أحزننا ذلك السلوك غير العلمى لأن قيمة أى مؤلف إنما تتوقف بالدرجة الأولى على كمِّ مصادره وتنوعها، نقول بقدر ما كان ذلك عبئا حزينا وثقيلا على النفس، إلا أنه رسَّخ لدى الكثير من المنصفين مدى أصالة وعمق وسبق « علم الاجتماع البدوى » بطبعاته المختلفة أعوام ١٩٧٤، ١٩٧٨، ١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٨٤، ١٩٨٨، ١٩٩٤، وعام ٢٠٠١.

وعفوا - عزيزى القارئ - إن طالت هذه المقدمة بعض الشىء.. إلا أنها كانت ضرورية لإحقاق الحق على « أمل » أن يُرد الفضل لأهله.. وإلا فسأنشر قائمة باسمائهم جميعا خلال الطبعات التالية مع صورة مما سُرق بغير وجه حق.. والله حسبنا هو مولانا ونعم الوكيل.. وهو سبحانه لا يستحى من الحق.. وكيف ذلك - حاشا لله ومن أسمائه الحسنى سبحانه وتعالى أنه « الحق ».

والله نسأل أن يجعلنا على « الحق » اعتقادا وسلوكا.

★ ★ ★

الفصل الأول

علم الاجتماع البدوى
وعلم الاجتماع العام

- مقدمة .
- ماهية علم الاجتماع :
  - مفهومات تقليدية لعلم الاجتماع .
  - مفهومات متطورة لعلم الاجتماع .
  - مفهومات معاصرة لعلم الاجتماع .
  - مفهومات حديثة لعلم الاجتماع .
- المفهوم الأمثل لعلم الاجتماع .
- موضوعات دراسة علم الاجتماع .
- العلاقة بين علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى .

علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى

مقدمة :

يحسن فى البداية أن نتعرف - ولو فى إيجاز - على الموضوع الأصلى الذى يتفرع عنه موضوع هذا الكتاب، إذ يجب أن نضع أمام القارئ العزيز، آخر معطيات العلم فى مجال «علم الاجتماع العام» بما يتناسب ومعطيات القرن الحادى والعشرين، وقبل أن نخوض معه غمار حديث طويل وشاق عن «علم الاجتماع البدوى»، لأن دراسة «علم الاجتماع البدوى» والتعرف عليه تعتبر بغير شك أحد الاهتمامات الفرعية لعلم الاجتماع العام باعتباره علما كليًا وعامًا فى آن واحد.

ونحن فى سبيل ذلك، سنلقى بعض الضوء على علم الاجتماع العام بالقدر الذى يمكننا من تحديد ما بينه وبين علم الاجتماع البدوى من صلات ووشائج.

ونقول بعض الضوء: لأنه كان لنا مع علم الاجتماع العام حديث طويل وشاق.. استغرق أكثر من ثمانية مؤلفات ما بين قديمة وحديثة صدرت لنا (*)، وبحيث نجد

(*) لنأخذ فكرة أوضح عن مسيرة علم الاجتماع العام أنظر مؤلفاتنا الآتية :

(١) علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٩٦ .

(٢) علم الاجتماع فى عالم متغير - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٩٧ .

(٣) سوسيولوچيا الحضارات القديمة - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ .

(٤) المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ .

(٥) معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ .

(٦) علم الاجتماع - المفهوم والموضوع والمنهج - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ .

(٧) علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٢ .

(٨) البناء الاجتماعى - دار الفكر العربى - القاهر - ١٩٨٢ .

(٩) علم الاجتماع البدوى - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٧٤ .

(١٠) منهجية العلوم الاجتماعية - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٢ .

(١١) مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية - دار غريب - القاهرة - ١٩٨٣ .

(١٢) دراسة علم الاجتماع البدوى - دار غريب - القاهرة - ١٩٨٣ .

(١٣) المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى - دار غريب - القاهرة - ٢٠٠٠ .

أنه ليس لدينا جديد نضيفه على ما سبق أن قلناه من جهة، وبحيث يصبح التكرار إعادة ممجوجة وغير مقبولة من جهة أخرى.. !!

هذا وإن كنت أحب - عزيزى القارئ - أن أضيف نقطتين على جانب كبير من الأهمية.

أولهما: أننى قد عقدت النية - بإذن الله - على تجميع كل كتبى عن « البدو والبداوة» فى دار نشر واحدة هى « دار غريب للطباعة والنشر » وضمن « مكتبة البداوة» وفى نطاق « الموسوعة العربية التنموية » التى يصدرها « مركز البحوث والدراسات التنموية » بالقاهرة.

وثانيهما: أننى قد عزمت - بعون الله وتوفيقه - على اصدار كتابى « علم الاجتماع الصحراوى » ليشد من أزر « علم الاجتماع البدوى » بكتابيه الأول والثانى، خاصة بالنسبة للمجتمعات الصحراوية العربية، وما تشهده تلك المجتمعات من برامج وخطط تنموية وما يستتبعها من تغيرات حضارية لابد من مواكبتها فضلا على التعرف على بنيان تلك المجتمعات البدوية، بما يحقق الغايات التنموية المستهدفة.

ولكننا على كل حال.. سنبذل غاية الجهد، حتى تكون الصورة متكاملة لدى القارئ الكريم عن كل من علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى وعلى قدر الجهد والطاقة، ووفقا لما وقع تحت أيدينا من مؤلفات حديثة عن علم الاجتماع العام سواء صدرت فى العالم العربى أو خارجه.

★ ★ ★

المبحث الأول:

ماهية علم الاجتماع؟

سنتعرف على هوية علم الاجتماع العام من خلال استعراض سريع لمفهوم ذلك العلم وفقا لتصورات رواده وعلمائه، وهى - أى التصورات - والحمد لله كثيرة ومنوعة، ولكننا هنا سنصنفها بين تعريفات تقليدية قديمة، وأخرى متطورة وثالثة حديثة أو معاصرة، وذلك من خلال النقاط المحددة الآتية :

(أ) مفهومات تقليدية لعلم الاجتماع:

تراوحت التعريفات التقليدية لعلم الاجتماع حول أنه :

١ - الدراسة العلمية للمجتمع [١] .

٢ - علم المجتمع [٢].

٣ - علم الظواهر الاجتماعية [٣] .

(ب) مفهومات متطورة لعلم الاجتماع:

تطورت تعريفات علم الاجتماع وصارت تصفه بأنه :

١ - دراسة التفاعل الذى ينشأ من اجتماع الكائنات الإنسانية [*] الحية [٤].

٢ - دراسة الإنسان وبيئته الإنسانية من خلال علاقة كل منهما بالآخر [٥].

٣ - الدراسة الوصفية المقارنة والتفسيرية للمجتمعات الإنسانية حسب ما تسمح به مشاهدتها فى الزمان والمكان [٦] .

٤ - العلم الذى يدور حول العلاقات الاجتماعية [٧] .

(جـ) مفهومات معاصرة لعلم الاجتماع:

ثم بدأت تعريفات علم الاجتماع تأخذ شكلا أكثر علمية ومباشرة على النحو الآتى:

١ - علم الاجتماع هو العلم الذى يتناول بالدراسة الجماعات الاجتماعية من حيث صور أو نماذج تنظيماتها الداخلية والعمليات التى تميل إلى استقرار أو تغيير هذه الصورة التنظيمية والعلاقات بين مختلف الجماعات [٨] .

٢ - علم الاجتماع هو علم دراسة النظام الاجتماعى، أى دراسة انتظام السلوك الاجتماعى الإنسانى [٩] .

(*) يقصد الحياة الاجتماعية للناس .

٣ - علم الاجتماع هو العلم الذى يستهدف كشف الاتجاهات الرئيسة للتطور الاجتماعى وبيان شروط الرفاهية الاجتماعية للإنسان [١٠] .

٤ - علم الاجتماع علم يتوسط علوم الاقتصاد والقانون والسياسة والأخلاق. ويهدف فى المقام الأول إلى كشف طبيعة الارتباط بين تغير الظروف الاقتصادية وتباين الأخلاق والقانون والسياسة [١١] .

(د) مفهومات حديثة لعلم الاجتماع:

حاولت عدة تعريفات حديثة أن تحدد ملامح ومفاهيم ودور علم الاجتماع والغايات التى يسعى إلى تحقيقها وسط غيره من العلوم، وذلك على النحو الآتى :

١ - علم الاجتماع هو العلم الذى يسعى إلى صياغة قوانين عامة للحياة الاجتماعية [١٢] .

٢ - علم الاجتماع علم موضوعى تجريبى نظرى، يبحث من وجهة نظر عامة فى تفكير الإنسان وسلوكه وإنتاجه من ناحية الصفات الشائعة وانتظام حدوثها فى حياة الناس معا [١٣] .

٣ - علم الاجتماع عبارة عن مجموعة من التعميمات المترابطة التى تدور حول السلوك الإنسانى الاجتماعى والذى لا يمكن فهمه إلا من خلال استخدام المناهج العلمية [١٤] .

٤ - علم المجتمع الإنسانى والقوانين الاجتماعية [١٥] .

٥ - علم الاجتماع عبارة عن « نظرية عامة فى المجتمع أو فى العملية الاجتماعية الكلية ».. [١٦] .

٦ - علم الاجتماع هو العلم الذى يبحث فى وضع نظرية عن المجتمع والثقافة [١٧].

٧ - علم الاجتماع هو الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية [١٨] .

٨ - علم الاجتماع هو العلم الذى يهتم بدراسة، أو هو علم « دراسة الخصائص العامة المشتركة بين جميع أنواع الظواهر الاجتماعية،

والعلاقة بين هذه الأنواع، وكذلك العلاقة بين الظواهر الاجتماعية وغيرها من الظواهر غير الاجتماعية » داخل المجتمع.. [١٩] .

★ ★ ★

المبحث الثانى :
ما المفهوم الأمثل لعلم الاجتماع ؟!

على الرغم من أن ما قدمناه من تعريفات عديدة لعلم الاجتماع، ليست هى التعريفات الوحيدة، بل توجد إلى جوارها تعريفات أخرى كثيرة [٢٠] ، إلا أننا سبق أن قلنا من خلال مؤلفنا « علم الاجتماع فى عالم متغير - عام ١٩٩٧»، و « علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق عام ١٩٩٦ »، وفى كتب أخرى قبله مثل كتاب « علم الاجتماع البدوى » عام ١٩٧٤، سبق قلنا إن التعريف الذى قدمه «سوروكين » يعتبر فى رأينا تعريفا أمثل لعلم الاجتماع، ولقد وافقنا على ذلك زملاء نعتز بهم خلال العديد من مؤلفاتهم السوسيولوچية [٢١].

المهم أننا مازلنا نعتبر ذلك التعريف هو التعريف الأمثل أو المقبول والمتفق عليه حتى الآن لعلم الاجتماع ؛ لأنه يوضح أن علم الاجتماع هو :

١ - علم عام.. لأنه علم يدرس الخصائص العامة للعالم الاجتماعى الثقافى ككل.

٢ - علم خاص.. لأن دراسة هذه الخصائص الاجتماعية فى حالاتها المختلفة، تخصص لا يقل عن التخصص فى علم الطبيعة، أو علم الاقتصاد، أو علم الكيمياء، أو أى علم طبيعى آخر.

٣ - علم ذو طبيعة تعميمية.. وتحتم عليه تلك الطبيعة أن ينقسم إلى فروع أو علوم اجتماع خاصة (*)، يتناول كل منها نوعا معينا من الظواهر يركز

(*) منها على سبيل المثال علوم الاجتماع الريفى والبدوى والمدنى والقانونى والصناعى والأسرة وعلم الاجتماع الصحراوى والدينى والثقافى والحضارى ... إلخ .

علم الاجتماع الخاص المعنىُّ على دراستها، وفى الذهن دائما ترابط الظواهر المجتمعة وتساندها حتى مع غيرها من الظواهر غير الاجتماعية (٢٢) .

٤ - كما أوضح سوركين خلال مؤلفه عن :

«المجتمع والثقافة والشخصية Society, Culture and Personality» أن العالم الاجتماعى الثقافى الذى هو موضوع دراسة علم الاجتماع يتكون من حقيقة ثلاثية الزوايا، ويتشكل بناء تلك الحقيقة من الشخصية والثقافة والمجتمع، وأن دراسة تلك الحقيقة المثلثة من وجهة نظر بنائية ووظيفية وديناميية، هى التى تميز علم الاجتماع كعلم خاص وعام فى نفس الوقت (٢٣) .

★ ★ ★

المبحث الثالث :

ما موضوعات دراسة علم الاجتماع ؟

لقد كان لنا مع موضوع دراسة علم الاجتماع حديث طويل امتد خلال مؤلفاتنا عن « علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج » و « علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية »، « علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق »، و « علم الاجتماع فى عالم متغير ». لذلك سنوجز هنا أهم موضوعات الدراسة فى علم الاجتماع العام من خلال استعراضنا السريع للنقاط الآتية :

١ - الجماعات الاجتماعية Social Groups.

٢ - العمليات الاجتماعية Social Prosses.

٣ - الثقافة Culture.

٤ - الشخصية Personality.

٥ - التغير Change.

٦ - الظواهر الاجتماعية Social Phenomenas (*).

★ ★ ★

المبحث الرابع:

العلاقة بين علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى:

يتضح من استعراضنا لمختلف مفهومات علم الاجتماع، وخاصة تعريف «سوروكين»، تتضح عدة حقائق تعتبر هى الأساس المحورى للعلاقة ما بين علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى، وذلك على النحو الآتى :

١ - علم الاجتماع العام لايقصر اهتماماته عند دراسته للمجتمع على جانب واحد أو على مظهر واحد من مظاهر الحياة المجتمعية، وإنما تستوجب الظواهر غير الاجتماعية من علم الاجتماع اهتماما يكاد يعادل اهتمامه بالظواهر الاجتماعية.

ولا شك أن ظاهرة البداوة - فى رأينا - بمحتواها المادى والبشرى تعتبر مع ظاهرتى التحضر والتريف من أبرز مظاهر الحياة المجتمعية للعديد من المجتمعات المعاصرة.

٢ - علم الاجتماع العام يتناول دراسة العديد من الأنساق والنظم الاجتماعية السائدة فى المجتمعات البشرية من وجهة نظر كلية، وكذلك يدرس مختلف مكونات البناء الاجتماعى للمجتمع بهدف اكتشاف مختلف أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها بشكل عام، كما يدرس الثقافة وتأثيراتها فى الحياة المجتمعية من وجهة نظر كلية كذلك.

ونظرا لأن أنساق وبناءات وثقافات المجتمعات البدوية أو العشائرية تختلف أو تتفق حينا وتتمايز أحيانا عن مثيلاتها فى المجتمعات الريفية

(*) لمن أراد الاستزادة عليه أن يعود لأى من مؤلفاتنا في علم الاجتماع المشار إليها قبلا .

والحضرية، لذلك فإنه لابد من توافر أحد فروع علم الاجتماع على دراسة كل تلك الأنماط دراسة أكثر تأنيا وبالتالى تكون أكثر تخصصا وتحديدا.

٣ - إنه ليس فى مقدور علم واحد أن يحيط بكل الظواهر المجتمعية دراسة وتقنينا، لذلك فدراسة المجتمع بشكل عام تعد موضوعا مشتركا للعديد من العلوم التى ينتمى معظمها للعلوم الاجتماعية أو الإنسانية (٢٤)، وينتمى بعضها كذلك إلى علوم طبيعية، بينما ينتمى بعضهاالآخر إلى علوم تزاوجت خلالها الاهتمامات الطبيعية بالاهتمامات البشرية والتى من بينها على سبيل المثال لا الحصر، الجغرافيا البشرية وبعض أفرع الأنثربولوچيا، والحفريات منها على سبيل المثال،وجانب من علم الحيوان وكذلك البيولوچيا الحيوية. فضلاً عن علوم الطب والبيئة والاقتصاد وعلوم النفس والتربية والخدمة الاجتماعية، وكل ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

٤ - وما دام الأمر كذلك، فإن علم الاجتماع العام بحكم طبيعته التعميمية يضم بين ثناياه مجموعة من علوم الاجتماع الخاصة التى يتوفر كل واحد منها على دراسة نوع معين من الظواهر المجتمعية، وذلك فى إطار النظرة الكلية لعلم الاجتماع، وفى الاعتبار ما بين مختلف الظواهر البيئية والاقتصادية والاجتماعية من تساند وترابط فضلاً عن الخصوصية المعترف بها لكل علم من العلوم طبيعية كانت أم اجتماعية.

وعلم الاجتماع البدوى من هذا المنطلق.. هو واحد من تلك الفروع الخاصة لعلم الاجتماع العام، ومن أولى مهامه أن يتوفر على دراسة ظاهرة البداوة وأن يتتبع مختلف صورها ومظاهرها وأنماطها ونظمها، اجتماعية كانت أم غير اجتماعية.

ومن مهام علم الاجتماع البدوى أيضًا أن يتعرف على طبيعة البنيان

الاجتماعى للمجتمع البدوى ككل، ويكشف كذلك عن الخصائص الاجتماعية والنفسية والحضارية للجماعات البدوية بصفة خاصة.

٥ - وعلى كل حال. سوف تتضح العديد من محاور تلك الصلة المفترضة، بين علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى من خلال الفصول التالية لهذا الباب [٢٤] .

★ ★ ★

المصادر

(١) Henry Giddings, Introductive Sociology, New York, 1901, P.9.

(٢) Lester Ward, Popular Science, Monthly, June, 1902, P. 113

(٣) Edward Ross, Foundation of Sociology , New Yourk, 1905, P.6

(٤) J. Lewis, Cand J. Philip G., Cultural Sociology, New York, 1954, P.5.

(٥) H.P. Fairchild, General. Socilolgy, New York, 1932, P. 90.

(٦) René Mannier Introduction a la Sociologie, Paris, 1929.

(٧) R. Maciver & C. Page, Society, London, 1955.

(٨) Johanson, H., Sociology, London, 1961, p.2.

وانظر كذلك :

(أ) دكتور عبد الحميد لطفى - علم الاجتماع - مؤسسة الثقافة الجامعية . الإسكندرية ١٩٦٥، ص ٢٧.

(ب) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق ، ص ص ٤٠٤ - ٤٠٩ .

(٩) Alre Inkeles, whit is Sociology : An Introduction To the Discipline and profession prentice-Hall, Inc' Englewood cliffs, N.J., U.S.A ; 1964.

(١٠) Nicholas. S. Timacheff, Sociological Theory; New York, 1967.

(١١) المصدر السابق .

(١٢) المصدر السابق .

(١٣) Zdenek, Ullrich, Lectures of Social. Methodology, in the Institure of Social Sciences, Alexandria University , 1950.

(٤) G.A.Lundberg; Social Recearch, 2 nd., Longmans, Green, New York, 1942. P.24

(١٥) تيماشيف - مرجع سابق .

(١٦) Manhiem. K.K.Essays on Sociology and Social Psychology, New York, 1955.

(١٧) تيماشيف - مرجع سابق .

(١٨) Ogburn, & Nimkoff, A Handbook of Sociology, London, 196, PP. 13-15.

(١٩) Sorokin P., Sociely, Culture and Personality, Harperd, New York, 1947, P. 17

(٢٠) أنظر مؤلفنا عن : علم الاجتماع .. المفهوم والموضوع والمنهج - مصدر سابق ص ص ٩-٢٩، لنأخذ فكرة متكاملة عن مفهوم علم الاجتماع من خلال الحصر شبه الكامل الذى أعددناه عن وجهات نظر معظم علماء الاجتماع عن مفهوم علم الاجتماع .

وانظر أيضًا مؤلفنا عن : علم الاجتماع فى عالم متغير ، وانظر كذلك مؤلفنا - «علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق » - مصدر سابق - حتى تتكامل لديك الصورة عن مسيرة علم الاجتماع ودوره فى المجتمع .

(٢١) انظر على سبيل المثال : دكتور عبد الباسط محمد حسن - علم الاجتماع - الكتاب الأول - المدخل - مكتبة غريب - القاهرة - ١٩٧٧ - ص ١٢٨.

(٢٢) للاستزادة أنظر : Sorokin, op. cit., pp. 3-10

وانظر كذلك : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - مصدر سابق ص ص ٢٧- ٦٤ .

(٢٣) المرجع السابق ، وانظر أيضا : دكتور محمد عاطف غيث - علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٣٨ .

(٢٤) د. صلاح الفوال : منهجية العلوم الاجتماعية - عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٢ .

(٢٥) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق ، ص ص ٧٠ - ٧١.

★ ★ ★

الفصل الثانى

ماهية علم الاجتماع البدوى

- مفهوم علم الاجتماع البدوى .
- خصائص علم الاجتماع البدوى .
- البداوة هى الاهتمام الرئيس لعلم الاجتماع البدوى .
- مفهوم المجتمع البدوى .
- الغايات التى يسعى إليها علم الاجتماع البدوى .

المبحث الأول:

حول مفهوم علم الاجتماع البدوى:

يمكن أن نعرِّف علم الاجتماع البدوى على النحو التالى :

« علم الاجتماع البدوى هو العلم الذى يهدف إلى تحديد هوية ظاهرة البداوة وتتبع مختلف مظاهرها وخصائصها ونظمها الاجتماعية وغير الاجتماعية، فضلا عن التعرف على طبيعة البنيان الاجتماعى للمجتمعات البدوية بوجه عام (*)، والتعرف كذلك على الخصائص الاجتماعية والنفسية والحضارية للجماعات والعشائر والقبائل البدوية بوجه خاص (١) ».

خصائص علم الاجتماع البدوى:

يمكننا أيضا أن نوضح عناصر أو خصائص هذا التعريف لعلم الاجتماع البدوى من خلال :

(أ) إن علم الاجتماع البدوى، علم باعتباره أحد علوم الاجتماع الخاصة التى تتوفر على دراسة ظاهرة أو مجموعة ما من الظواهر المحددة سلفا، وعلم الاجتماع البدوى فى تناوله لظاهرة البداوة لا يتناولها مجردة وإنما على اعتبار أنها واحد من كل عليها أن تتساند وتترابط مع غيرها من الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية المختلفة.

(ب) تعتبر ظاهرة البداوة إذن هى محور الاهتمام الأساسى لعلم الاجتماع البدوى، والأمر يستلزم هنا تحديدًا واضحا أو على الأقل متفقا عليه للبداوة باعتبارها الاهتمام الرئيس لعلم الاجتماع البدوى وذلك من خلال التحديد الدقيق لمفهوم البداوة وما يتصل بها من خصائص وملامح (٢).

★ ★ ★

(*) ستكون البنية الاجتماعية محور ارتكاز الكتاب الثانى بإذن الله « البنيان أو البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية » النظم والأنساق .

المبحث الثانى:

مفهوم البداوة وخصائصها:

(أ) تعريف البداوة:

البداوة هى نمط من أنماط الحياة المجتمعية، توجد أو تسود بوجه خاص فى المجتمعات البدوية - القبلية أو العشائرية - محلية كانت أم قومية أم عالمية، وتعتبر ظاهرة البداوة بداية التكيف الاجتماعى لكل من الفرد والجماعة والمجتمع مع الظروف البيئية الصعبة والقاهرة التى أحاطت بمختلف وحدات المجتمع البدوى، وارتكز ذلك التكيف سواء بالنسبة للإنسان أم الجماعة أم المجتمع، على مجموعة من القيم والعادات والتقاليد والأعراف والنظم التى مكنت ذلك المجتمع القبلى فى النهاية من أن يحيا ويستمر على الرغم من كل الظروف الصعبة والقاهرة، وبصفة خاصة ظروف عدم الاستقرار والعزلة شبه التامة المفروضة عليه (*).

(ب) بعض خصائص البداوة وملامحها:

البداوة كانت تمثل منذ القدم حضارة ما قبل التاريخ أو طفولته، وهى وإن كانت تختلف - فى الماضى العتيق - فى معظم صورها عما هى عليه اليوم إلا أن جمهرة المؤرخين قد أجمعت على أن الإنسانية المبكرة قد نشأت بين أحضان البداوة القديمة، حيث كانت بداوة إنسان ما قبل التاريخ ترتكز على عدم الاستقرار والتنقل سعيا وراء الماء والعشب والصيد العشوائى، ومن هنا، من استمرار تميز حياة البداوة بالترحال وبالتنقل طلبا للماء والعشب، وصيد الحيوان البرى، علاوة على عدم الاستقرار، تؤكد تلك الجمهرة (**) على أنه كان هناك ما يشبه إجماعا من العلماء - وخاصة الأنثربولوچيين منهم، على أن الإنسان بدأ حياته بدويا وظل على بداوته وتجواله حتى استقر على شواطئ الأنهار بعد اكتشافه للزراعة، وكان ذلك قبل آلاف السنين (٣).

(*) سنتناول هذا التعريف بشىء من الشرح والتحليل فى فصل تال بإذن الله .

(**) أى جمهرة المؤرخين .

واتسمت بداوة ما قبل التاريخ بأنماط مختلفة مازالت بعض صورها أو حلقاتها متصلة حتى اليوم، فقد عرفت البداوة الصيد وجمع الثمار والرعى والزراعة البعلية (*)، ومازالت معظم أنماط هذه النشاطات على أصالتها حتى اليوم، وعلى الأخص الرعى والصيد، الذى يشكل كل منها جانبا أساسيا وهاما من ملامح البداوة فى عصرنا - على الرغم من ولوج العالم للألفية الثالثة وفقا للتقويم الميلادى - مع ما يتطلبه ذلك النشاط من حركة وتنقل تحدده طبيعة الحيوان السائد أو الراعى لدى الجماعات والعشائر البدوية، فرعاة الإبل والخيل والرنة هم أكثر البدويين تجوالا أو ظعنا فى الصحراء، على العكس من رعاة الأغنام والماعز والبقر الذين يميلون إلى الاستقرار حول منابع المياه ومصادر العشب، وخصوصا عند أطراف الصحارى حتى لا تنفق حيواناتهم (٤).

(جـ) المجتمع القبائلى هو مجال دراسة علم الاجتماع البدوى:

يعتبر المجتمع البدوى - القبلى أو العشائرى - هو المجال الرئيس الذى يمارس فيه علم الاجتماع البدوى نشاطاته المختلفة، لذلك يحسن أن نتفق على تعريف محدد لماهية المجتمع البدوى، ولسوف نذكر هنا التعريف الذى توصلنا إليه فى عجالة، لأن ماهية المجتمع البدوى كانت الاهتمام الرئيس لفصل آخر من هذا الكتاب.

وعلى كل فنحن نرى أن المجتمع البدوى أو العشائرى هو : « ذلك المجتمع الذى يضم العشائر والقبائل وغيرها من الوحدات الاجتماعية القبائلية الرحل وأشباه الرحل، أو يضم - أى المجتمع البدوى - تلك المجتمعات البدائية المحلية التى تحيا فى عصرنا الحاضر حياة تقليدية غير مستقرة تتميز بالبساطة وعدم التعقيد، فضلا عن تشابك العلاقات والنظم الاجتماعية والأدوار وتعدد وظائفها، وتمثل تلك المجتمعات البدائية حالة حضارية أقل تقدما لو قورنت بحالات حضارية أخرى متقدمة، سواء كانت سالفة أم معاصرة، هذا فضلا عن أن البداوة بصورهاالمتعددة

(*) الزراعة البعلية هى التى تعتمد بصفة أساسية ومباشرة على مياه الأمطار .

وبمحتواها المادى والبشرى تعتبر هى حجر الزاوية بالنسبة للمجتمعات القبائلية أو العشائرية البدوية »[٥].

★ ★ ★

المبحث الثالث:

توضيح عدد من المفردات والمصطلحات المتضمنة فى التعريف:

ولو أردنا توضيحا لبعض المصطلحات أو المفردات التى يتكون منها التعريف السابق لعلم الاجتماع البدوى، أو تلك التى تحدد ملامحه لتبين لنا أن[٦] :

أولا - المجتمع:

لعل اصطلاح مجتمع Society من أكثر المصطلحات إثارة للجدل بين علماء الاجتماع، ولكنا سنعرض هنا لتلك التعريفات على سبيل التوضيح والاسترشاد فقط:

(أ) تعريف « موريس جينزبرج M. Ginsberg »، حيث يرى أن كلمة مجتمع تعنى « مجموعة من الأفراد تربطهم أو تجمعهم صلات معينة أو طرق من السلوك تميزهم عن أفراد آخرين لا تشملهم أو تربطهم هذه الصلات أو يختلفون عنهم فى السلوك[٧].

(ب) يرى « روبرت ماكيفر وشارلزبيج Page and Maclver » أن المجتمع - أى مجتمع - ما هو إلا نسق من العادات والإجراءات والسلطة والمعونة المتبادلة، كما يتكون أيضا - ذلك المجتمع - من تجمعات وأقسام عديدة من ضوابط السلوك الإنسانى والحريات، والمجتمع لذلك نسق معقد دائم التغير، ومن هنا كان المجتمع فى رأيهما هو « نسيج من العلاقات الاجتماعية الذى يتطور ويتغير باستمرار »[٨].

ثانيا - المجتمع المحلى:

من رأى « روبرت ماكيفر وشارلزبيج Page and Maclver » أن المجتمع المحلى Community هو مجموعة من الناس يحتلون بقعة معينة من الأرض يربطهم معا نظام

عامٌ من القواعد التى تنظم حياتهم وتحدد الصلات بينهم، على ألا يمنع هذا من أن يكون المجتمع المحلى جزءا من مجتمع محلى أكبر، وتصبح المجتمعات المحلية بهذا المفهوم مجتمعات صغيرة تعيش داخل مجتمعات محلية أكبر (٩).

ثالثا - خصائص المجتمع :

اعتبر « هارى جونسون Johanson . H » أن المجتمع بصفة عامة ما هو إلا جماعة تتميز بأربع مواصفات أو خصائص رئيسة هى (١٠):

(أ) أن يكون للمجتمعات إقليمها المحدد الذى تقيم وتتحرك فيه، واعتبر المجتمعات البدوية أو البدائية مجتمعا وإن كان يتحرك داخل إقليم مترامى الأطراف، فضلا عن أن ملامحه غير محددة بدقة، وبصرف النظر عن كبر أو صغر حجم الأرض التى يشغلها ذلك المجتمع فى وقت ما عن الوقت الآخر، وبرر « هارى جونسون » أيضا موقفْ أعضاء هذه المجتمعات البدوية حيث ينظرون إلى كل مكان يذهبون إليه باعتبار أنه بلادهم، كما أوضح « جونسون » كذلك أنه يوجد داخل كل مجتمع بدوى أو قبلى جماعات إقليمية كالعشائر أو الوحدات الإدارية والسياسية الأخرى مثل المحافظات والمدن والقرى.. إلخ (١١) .

(ب) أن تتكاثر هذه المجتمعات عن طريق الجنس أو التوالد، بمعنى أن يحصل المجتمع على أعضائه عن طَريق التكاثر الجنسى داخل الجماعة وإن كان ذلك لا يمنع أن يحصل المجتمع على أعضاء جدد بطرق أخرى كالهجرة أو التبنى أو الغزو أو الاسترقاق (*).

(ج) أن يكون لتلك المجتمعات ثقافة جامعة، بمعنى أن يكون للمجتمع اكتفاؤه الثقافى الذاتى حتى لا يكون عالة - ثقافيا - على غيره من المجتمعات، وليس المقصود بأن تكون للمجتمع ثقافة جامعة أن تنعدم الثقافات الفرعية المتصلة بالجماعات الإقليمية المندرجة تحت الجماعات الرئيسة التى تشكل البنية الأساسية للمجتمع (١٢).

(*) الاسترقاق عن طريق الغزو من خلال أسر المهزومين يؤدى إلى اعتبار الأسرى عبيدا وسبايا .

(د) أن يكون للمجتمعات استقلالها الخاص بها، بمعنى ألا يكون المجتمع جماعة فرعية من مجتمع آخر سواء بالاحتلال أو غيره، لأن ذلك لو وجد تكون الجماعة المحتلة قد ذابت فى الجماعة التى احتلتها، وبالتالى لم يعد هناك مجتمع مستقل بذاته [١٣].

★ ★ ★

المبحث الرابع:
ما الغايات التى يسعى إليها علم الاجتماع البدوى؟

لاشك أن علم الاجتماع البدوى - شأنه فى ذلك شأن بقية العلوم اجتماعية كانت أم طبيعية - يسعى إلى الكشف عن القوانين التى تحكم الحياة الاجتماعية داخل المجتمعات البدوية، والأمر الذى لا جدال فيه أيضا أن وسيلة علم الاجتماع البدوى فى ذلك تتمثل فى : منهج علمى مرتكز على مجموعة من الطرق والأساليب والأدوات التى تتناسب وطبيعة المجتمعات البدوية أو العشائرية محل البحث أو الدراسة.

والاعتقاد عندى أن أهم غايات علم الاجتماع البدوى هى :

١ - القيام بدراسات وصفية للمجتمعات البدوية المعاصرة يتم من خلالها تقديم وصف دقيق للبناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية عالميا وقوميا، ومن ثم للمجتمعات العشائرية والبدوية إقليميا أو محليا بصفة خاصة [*].

٢ - تحديد النماذج والوحدات الأساسية الداخلة أو المكونة للبناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية، وتقديم وصف دقيق لبنية كل منها، مع تحديد صور وأشكال التفاعل الاجتماعى داخل تلك الوحدات وصولا للقوانين التى تسيِّر تلك التفاعلات وتوجهها.

(*) تتوافق المجتمعات البدوية فى رأينا مع ما ذكره « جونسون » فى الفقرتين السابقتين (أ) ، (ب) فقط حيث توجد المجتمعات البدوية فى أى أرض تطؤها القبيلة الأم أو تحل بها ، لذلك كان ولاء البدوى للقبيلة وليس للمكان الذى يوجد فيه ، وهذا المنطق أظهر ما يكون بالنسبة للقبائل والعشائر العربية.

٣ - اجراء العديد من الدراسات المقارنة سواء على مستوى النظم والأنساق البدوية المحلية أو بينها وبين مجتمعات بدوية أخرى يمكن وصفها بأنها قومية أو عامة، بهدف التعرف على تلك الأنماط والسمات الأساسية التى تشكل الملامح العامة لتلك المجتمعات البدوية سواء على المستوى المحلى أم المستوى القومى، وكذلك على المستوى الأممى أو العالمى.

٤ - دراسة مختلف التحولات والتغيرات الهيكلية أو الوظيفية التى تلحق بهذه المجتمعات، من خلال تحديد مختلف الخصائص التى تتصل بتلك التغيرات التى تحدث فى أبنية المجتمعات العشائرية مع تحديد أسبابها وأشكالها وآثارها قدر الإمكان.

٥ - تقديم بعض الأنماط والنماذج العامة المستخلصة من الدراسات التى أجريت حول عدد من المجتمعات التى تتسم بالبداوة على نطاق العالم كله، وذلك بهدف التعرف على مختلف خصائص ظاهرة البداوة عالميا، لأن تقديم هذه النماذج لن يساعد فقط فى إيجاد لغة مشتركة للدراسة والبحث فى مجال المجتمعات البدوية، ولكنه سوف يُمكّن أيضا من نقل بعض التجارب الحضارية التى ساعدت على تحديث عدد من تلك المجتمعات العشائرية للاستفادة بها على المستوى المحلى والقومى.

إذن... فإن المهمة الأساسية لعلم الاجتماع البدوى تكمن فى كشفه عن مختلف القوانين التى تحكم ظاهرة البداوة محليا وقوميا وعالميا من خلال منهج علمى قادر على(*) :

(أ) وصف الأوضاع الراهنة للمجتمعات البدوية والعشائرية أو القبلية على مختلف المستويات المحلية والإقليمية والقومية والعالمية (**).

(*) نعتقد أن هذا المطلب بات متيسرا وقابلا للتنفيذ الآن فى ظل ظاهرة « العولمة » وما صاحبها من ثورة معلوماتية ناتجة عن التقدم الهائل فى طرق ووسائل الاتصال المختلفة خاصة منها الكمبيوتر والإنترنت.

(**) باعتبار أن البداوة فى حقيقتها ما هى إلا ظاهرة عالمية وإن تفرقت بها السبل .

(ب) دراسة مختلف التغيرات التى تلحق ببنية تلك المجتمعات القبائلية، وخاصة ما تعلق منها بالأسباب والنتائج والنماذج الصالحة للتطبيق أو الاقتباس.

(ج) محاولة تقديم نماذج وأنماط تتسم بالعالمية لظاهرة البداوة وتحديد سبل الاستفادة منها.

(د) تقنين التحولات التى لحقت ببنيان المجتمعات البدوية ومحاولة الاستفادة منها فى تعديل مسار تلك المجتمعات نحو التحضر أو التحديث أو النمو فى نطاق برنامج تنموى متكامل.

(هـ) استثمار ذلك التراث العلمى فى نطاق مسئولية علم الاجتماع البدوى عن تحديث وتنمية المجتمعات البدوية، وعلى الصورة التى سنتعرض لها فيما بعد مع الاستفادة قدر الإمكان من إفرازات الثورة المعلوماتية والتكنولوجية المعاصرة.

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية -القاهرة - ١٩٧٨.

(٢) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - فى فقرات كثيرة منه .

(٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٦) للاستزادة انظر - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٥٠ - ١٥٣ .

(٧) Morris Ginsberg Sociology, Oxford, 1949, p. 41.

(٨) MacIver and Page, Society , London, 1953.

وانظر أيضا الترجمة العربية لهذا الكتاب والتى أعدها المرحوم الدكتور على أحمد عيسى - المجتمع - مصدر سابق - ص ١٦.

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

وانظر أيضا : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٧٤ -٧٥.

(١٠) Johanson, H, Sociology, London, 1961, pp. 9-14 .

(١١) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٥١ - ١٥٢.

(١٢) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق - ص ٧٥ .

(١٣) جونسون - مصدر سابق - ص ١٢ .

★ ★ ★

الفصل الثالث

العلاقة بين علم الاجتماع البدوى وغيره من العلوم الاجتماعية

- مقدمة .
- علم التاريخ .
- العلوم السياسية .
- علم الاجتماع القانونى .
- علم الاقتصاد .
- علم النفس الاجتماعى .

مقدمة
الصلات القائمة بين علم الاجتماع البدوى وغيره من العلوم الاجتماعية

سنتحدث هنا عن علاقة علم الاجتماع البدوى بعدد من العلوم. كعلوم التاريخ والاقتصاد والنفس والقانون والسياسة، وما يتفرع عنها من علوم اجتماعية خاصة.. وذلك بشىء من الإيجاز ومن أراد الاستزادة فعليه أن يعود إلى مؤلفنا عن « علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية » المشار إليه قبلا، ونأمل أن يجد خلاله مزيدا من الإشباع المنشود (١).

كما أننا لن نستفيض فى شرح العلاقة بين علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع البدوى، ويمكن للقارئ العزيز أن يعود إلى أى من كتبنا حول « علم الاجتماع فى عالم متغير » أو « علم الاجتماع.. بين النظرية والتطبيق » ليأخذ من خلالهما فكرة أوضح عن علم الاجتماع بشكل عام وتطور الفكر السيوسيولوچى بشكل خاص (٢).

كما أننا لن نتحدث كثيرا كذلك عن المجتمعات التاريخية القديمة.. ومعظمها مجتمعات بدوية، ويمكن للقارئ العزيز أن يأخذ فكرة وافية عنها من خلال أى من مؤلفينا حول « علم الاجتماع الحضارى» و « المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى » (٣).

وبقيت نقطة أخيرة وهى أننا سنعطى مزيدا من الاهتمام لعلاقة علم الاجتماع البدوى بكل من علم الاجتماع الريفى والأنثربولوچيا الاجتماعية، وكذلك لدور علم الاجتماع البدوى فيما يتصل بعمليات تحديث وتنمية المجتمعات البدوية، وكذلك بالنسبة للمهام المتصلة بدور علم الاجتماع البدوى فيما يخص برامج التوطين والتحديث فى

المجتمعات البدوية، وفى إطار أى جهود تنموية لتلك المجتمعات، مع مراعاة أننا لن نطيل لأن تنمية وتوطين وتحديث المجتمعات العشائرية وخاصة منها الصحراوية هى موضوع الكتاب الثالث من هذه المجموعة وهو « علم الاجتماع الصحراوى ».

★ ★ ★

المبحث الأول:

علم الاجتماع البدوى وعلم التاريخ:

تتحدد صلة علم الاجتماع البدوى بالتاريخ من خلال أن «علم التاريخ» هو : «العلم الذى يهتم بدراسة وتسجيل التطور الذى لحق بالمجتمعات الإنسانية منذ الماضى البعيد »..

ودون الدخول فى تفصيلات كثيرة. كانت كلها محل اهتمامنا خلال مؤلفنا عن « علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية »، نقول إن الصلة بين علم الاجتماع البدوى وعلم التاريخ تتحدد - فى رأينا - من خلال ألنقاط التالية [٤] :

١ - إنه ليس فى مقدورنا أن نفهم أو نفسر ظاهرة البداوة المعاصرة دون أن نتعرف على مختلف الظروف المحيطة - أو التى أحاطت - بها وخصوصا التاريخية منها، وذلك لأن التاريخ هو المسئول عن تقديم مثل تلك المعلومات تحقيقا للمقولة الشهيرة التى تؤكد أننا لا يمكن أن نفهم الحاضر بمعزل عن الماضى.

وإن كنا نود أن نضيف إلى نفس المقولة : أنه لا يمكن أن نخطط لتنمية المجتمعات بعيدا عن سياقها التاريخى، أو بمعنى آخر.. ليس ممكنا أن نبحث عن مستقبل أية أمة فى غيبة أو بعيدا عن جذورها التاريخية والخريطة الحضارية لها.

٢ - إن علم التاريخ فى مقدوره أن يقدم لنا الكثير من الاتجاهات التى أدت إلى تطور ونمو العديد من المجتمعات البدوية العشائرية والقبائلية،

وبحيث أصبحت تلك المجتمعات - وخصوصا فى منطقتنا العربية - تكاد أن تتمايز تاما لاسيما من حيث الشكل عن المجتمعات البدوية التى كانت تعيش فى ذات المنطقة منذ سنوات غير بعيدة.

٣ - يعتبر «منهج البحث التاريخى» علامة لقاء قوية وواضحة، ليس فقط بين علم الاجتماع البدوى وعلم التاريخ، بل بينه وبين علم الاجتماع العام أيضا وعلى النحو الذى أوضحناه ضمن مؤلفنا عن « علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية » السابق الإشارة إليه (٥)، وكذلك مؤلفنا عن « علم الاجتماع فى عالم متغير » وقد سبقت الاشارة إليه قبلا.

٤ - تضمنت العديد من الدراسات التاريخية الكثير من ملامح ونظم ومكونات ووحدات البنيان الاجتماعى للمجتمعات البدوية، وعلى النحو الذى عالجناه ضمن مؤلفنا (*). عن «سوسيولوچيا الحضارات القديمة» (٦) .

★ ★ ★

المبحث الثانى:

علم الاجتماع البدوى والعلوم السياسية:

السياسة.. من الموضوعات التى شغلت أذهان المفكرين منذ فجر التاريخ، وأى قارئ لتاريخ السياسة يجد أنها تضمنت مختلف جوانب الظاهرة السياسية لدى كل المجتمعات التاريخية بما فى ذلك المجتمعات البدوية، ولعل أبرز الدراسات فى هذا المجال.. تلك التى قام بها العالم العربى « ابن خلدون » حول السلطة والدولة والعصبية والتى تناولنا الكثير منها فى غير هذا المكان (٧).

★ ★ ★

(*) كان لنا عن ذلك كله حديث طويل خلال مؤلفنا عن « علم الاجتماع الحضارى » المشار إليه قبلا .

المبحث الثالث:

علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع القانونى:

تتحد الصلة ما بين علم الاجتماع البدوى وعلم القانون، باعتبار أن القانون فى مفهوم كثير من الفقهاء هو « مجموعة القواعد الملزمة التى تنظم سلوك الأفراد فى المجتمع »، ولا يهمنا كثيرا فى هذا المجال أن تكون تلك القواعد مكتوبة أو متعارفا عليها، ولكن المهم أن علم الاجتماع والقانون قد أفرزا معا علم الاجتماع القانونى ليكون منطقة تعاون مشترك بين العلمين، الاجتماع والقانون، وخصوصا فى مجال تاريخ القانون - ونحن نزعم أن هذا العلم المشترك « علم الاجتماع القانونى » يمكنه أن :

١ - يقدم تفسيرا وتحليلا للنظم القانونية غير المكتوبة والعرف القائم فى المجتمعات البدوية من خلال علاقاتها التبادلية مع غيرها من النظم.

٢ - يجرى مزيدا من الدراسات المقارنة سواء بين النظم القانونية داخل المجتمعات البدوية المحلية والعالمية، أم بين المجتمعات البدوية ومجتمعات أخرى كالمجتمعات الريفية أو الحضرية، وذلك على ضوء الظروف القانونية والاجتماعية المتغيرة لكل واحد من تلك المجتمعات على حدة.

٣ - يثرى المعرفة الإنسانية حول أسس النظم الاجتماعية القانونية البدوية، مع إبراز طبيعة الدور الذى يلعبه القانون والعرف البدوى فى إشباع الحاجات الاجتماعية للبدو، ومدى الإسهامات الإيجابية أو السلبية التى تفرزها القوانين والأعراف البدوية فى تقدم أو تحديث المجتمعات البدوية أو العكس.

★ ★ ★

المبحث الرابع:

علم الاجتماع البدوى وعلم الاقتصاد:

سبق أن عرفنا علم الاقتصاد فى غير هذا المكان بأنه « العلم الذى يبحث فى كيفية استثمار وتوظيف الإمكانيات المادية والبشرية - من خلال الإدارة - المتاحة فى مجتمع من المجتمعات لإشباع الحاجات الأساسية لأفراد وجماعات ذلك المجتمع ؛ بما يحقق التوازن المطلوب بين مختلف مكونات البناء الاجتماعى للمجتمع »(٧).

والاقتصاد البدوى... اقتصاد من نوع خاص.. تستوجب دراسته تكاتفا بين كل من علمى الاجتماع والاقتصاد، وبحيث تنطلق تلك الدراسة من محورين أساسيين :

١ - البحث فى كيفية صياغة مختلف الأنشطة الاقتصادية البدوية مع دراسة الأدوار والقيم والمعايير والجزاءات المصاحبة لتلك الأنشطة، كل ذلك على ضوء التفاعل المستمر بين مختلف تلك المتغيرات السوسيولوچية.

٢ - اكتشاف التساند المتبادل بين المتغيرات السوسيولوچية البدوية كما تتضح من خلال السياق الاقتصادى للمجتمعات البدوية، وكذلك بين تلك المتغيرات البعيدة إلى حد ما عن ذلك السياق الاقتصادى البدوى.

مرة أخرى.. تتمحور العلاقة بين علم الاجتماع البدوى وعلم الاقتصاد حول دراسة مختلف أشكال التساند والتكامل بين الأبنية الاجتماعية والاقتصادية وغيرهما من الأبنية فى المجتمعات البدوية، وخصوصا فى المواقف التى تتجه فيه تلك الأبنية - اقتصادية كانت أم غير اقتصادية - لتحقيق أهداف مجتمعية مشتركة ووفقا لخطط وبرامج تنموية متفق عليها (*).

★ ★ ★

(*) المجتمعات البدوية العشائرية - كغيرها من المجتمعات لها بناءان أحدهما بناء تحتى يضم الأساس الاقتصادى والمادى ، ويطلق عليه البنية التحتية ، والآخر فوقى ويضم الجوانب الاجتماعية والثقافية والحضارية ويعرف بالبنية الفوقية ، ويتساند البناءان معا فى تدبير إشباع الحاجات المادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات بما فيها المجتمعات العشائرية.

المبحث الخامس :

علم الاجتماع البدوى وعلم النفس الاجتماعى :

من خلال تحديدنا لمهمة علم النفس الاجتماعى فى المجتمع فى غير هذا المكان [٩]، قلنا إن علم النفس الاجتماعى يحاول التعرف على الملامح العامة للسلوك الاجتماعى أو الإنسانى كما تشيع أو توجد بين الناس وفى كل الحضارات، كما أن علماء النفس يعتبرون أن نقطة انطلاق علم النفس الاجتماعى ليست هى الفرد أو النظم الاجتماعية فقط، وإنما هى الفرد من خلال علاقته بالمجتمع الذى يحيا فيه [١٠].

ولما كانت البداوة سمة أساسية فى المجتمعات البدوية، وهى بالدرجة الأولى خاصية حضارية، فإن الأمر يستتبع ضرورة التعرف ليس فقط على مكونات وملامح وأبعاد تلك الخاصية كحالة مجتمعية فقط، وإنما يجب البحث عن عللها وأسبابها داخل أغوار النفس البشرية ولاسيما ما تعلق منها بتحديد سمات وخصائص الشخصية البدوية سواء على المستوى الفردى أم على المستوى الجماعى [١١].

★ ★ ★

المصادر

(١) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٣ .

(٢) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مرجع سابق فى مواضع كثيرة منه .

(٣) المصدران من منشورات دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠٠ .

(٤) انظر كتابنا عن « علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية » مصدر سابق ص ص ١٥ - ٢٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٦) انظر مؤلفنا عن « سوسيولوچيا الحضارات القديمة » - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٢.

(٧) انظر أيا من مؤلفاتنا الآتية :

- البداوة العربية والتنمية - مرجع سابق

- دراسة علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق .

- تنمية المجتمعات الصحراوية بجزءيه - أسس نظرية - وتطبيقات ميدانية - مرجعان سابقان .

- المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى - مرجع سابق .

- البناء الاجتماعى للمجتمعات - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٣ .

(٨) علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - مصدر سابق ص ص ٦٩ - ٧٦ .

(٩) المصدر السابق ص ص ١٢٦ - ١٣٥ .

(١٠) المصدر السابق ص ص ١٥٠ - ١٥٤ .

(١١) المصدر السابق ص ص ١٥٩ - ١٦٢ .

★ ★ ★

الفصل الرابع

علاقة علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع الريفى

- مقدمة نقدية حول العلاقة بين علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع الريفى .
- الفروق الريفية والحضرية وفقا للثنائيات المفسرة لتطور المجتمعات البشرية .
- اتجاه علماء الاجتماع المعاصرين نحو تفسير تطور المجتمعات البشرية .
- خصائص المجتمعات الريفية والحضرية بين التشابه والتمايز .
- التمايز بين المجتمع القبلى والمجتمع القروى .
- ثلاثية معاصرة تفسر تطور المجتمعات البشرية وأهمية إيجاد نظرية جديدة لذلك التطور .

مقدمة نقدية
حول العلاقة بين علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع الريفى

لسنا هنا بصدد تناول علم الاجتماع الريفى كاهتمام أساسى لهذا الكتاب، ولكنا سنتعرض له بالقدر الذى يوضح علاقة أصيلة نعتقد أنها توجد بينه وبين علم الاجتماع البدوى على اعتبار أن كلا من علمى الاجتماع البدوى والريفى يتناول مجموعة من الظواهر المتشابهة إلى حد ما.

ويمكن أن تتضح هذه الصلة الافتراضية التى تصورناها بين علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع الريفى من خلال مجموعة من الافتراضات أو المحاور وعلى النحو الآتى :

أولاً - ميّز ابن خلدون بين البدو والحضر على اعتبار أنهما النمطان الرئيسيان للمجتمعات التى عايشها أو عاصرها أو قرأ عنها، ويرى البعض أن أهل البدو كما عرفهم ابن خلدون يضمون الزراع أيضا.

(أ) ومن هنا اعتبر ابن خلدون صاحب أول جهد علمى حقيقى منظم فى سبيل وصف وتفسير الفروق الملحوظة والقائمة بين الريف والمدينة (١).

(ب) ولعل هذا يكشف لنا وبكل الوضوح أن "ابن خلدون " كان هو صاحب أول ثنائية « بدوية - حضرية » فى التاريخ، ولقد تمكن ابن خلدون خلال تلك الثنائية أن يحدد سمات كل من نمطى الثنائية الريفية البدوية، كما استطاع أن يحدد خصائص كل من البدو والحضر، فضلا عن طبيعة الصراع ومستقبله بينهما (*).

(*) باعتبار أن «الريف» كان يمثل «حضر» زمان ابن خلدون .

إلاّ أننا نلفت النظر إلى أن ابن خلدون لم يكن يقصد الريف بالمفهوم السائد الآن، ولكنه عالج النمطين المميزين فى عصره وهما النمط البدوى، والنمط الحضرى، وهذا لا يمنع أن ابن خلدون قد أشار إلى أهل الفلاحة والزراعة باعتبارهما من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو، والمقصود بالبدو هنا المكان وليس السكان، أى الصحراء وليس البدويين (٢).

(جـ) كما أننا نود أن نلفت النظر كذلك - قبل أن نخوض غمار حديث طويل عن الثنائيات أو الفروق الريفية الحضرية إلى أنه يوجد بعض الانتقادات الموجهة (٣). - وخصوصا من دارسى التحضر - إلى فكرة الثنائيات الريفية الحضرية، حيث يرون أن تلك الثنائيات لا تمثل سوى وسيلة مبدئية يصعب الاعتماد عليها كلية فى التمييز بين الريف والحضر، لأنها تغفل عاملا هاما من عوامل تشكيل هذه المجتمعات وهو التغير، كما وجه « مينر. Miner » عددا من الانتقادات لفكرة الثنائية الريفية الحضرية لعل من أهمها عدم الملاءمة بين الشواهد الواقعية المتعلقة بمجتمعات معينة وطبيعة المجتمعات التى يمكن توقع وجودها من خلال النموذج المثالى، وكذلك مشكلة تحديد خصائص النماذج المثالية ذاتها، وأخيرا القيمة النظرية المحدودة التى تنطوى عليها الثنائية نفسها (٤).

(د) هذا وقد أكدت بعض الدراسات على أن البدو جزء هام من المجتمع الريفى فى البلاد العربية، ودعت إلى إزالة اللبس القائم فى الدراسات الاجتماعية حول هذا المقام، وأكدت على أن علم الاجتماع الريفى هو العلم الذى ينبغى أن يدرس موضوع البدو والبداوة (٥).

ثانيا - أبرزت كل الثنائيات النظرية التى تعرضت للفروق الريفية الحضرية، مجموعة من الخصائص الريفية يمكن أن نعتبرها كلها أو غالبيتها على الأقل أساسا صالحا للتمييز بين المجتمع البدوى والمجتمع الحضرى، ولسوف نتعرض لتلك الفروق النظرية بشىء من التفصيل عند حديثنا عن ماهية المجتمعات البدوية، ولكنا سنعرض هنا لبعض هذه الثنائيات النظرية التى شغلت أذهان علماء الاجتماع عن

الفوارق الريفية الحضرية لنلمس مدى صلاحية تلك الثنائيات للتطبيق على المجتمع البدوى أيضا ؛ حيث نجد :

(أ) أن «دور كايم» قد ميز بين مجتمع يسود فيه التضامن الآلى أو الميكانيكى (ريفى) وبين مجتمع يسود فى التضامن العضوى (حضرى)، كما نجد أن « مين » يقارن بين مجتمع يقوم على أساس المكانة (ريفى)، ومجتمع آخر يقوم على أساس التعاقد (حضرى).

(ب) أما «تونيز» فيطرح تصوره على أساس موازنة بين مجتمع تسوده روابط القرابة والعلاقات الأولية (ريفى)، وبين مجتمع ثان يتميز بسيادة العلاقات التعاقدية والمصلحة الخاصة (حضرى).

(جـ) وكذلك عرض «بيكر» ثنائيته النظرية الخاصة بتوضيح الفروق الريفية الحضرية على أساس أن هناك مجتمعين أولهما مقدس (ريفى)، وثانيهما علمانى (حضرى).

(د) كما قدم «ريدفيلد» ثنائيته المشهورة التى ميز فيها بين مجتمعين أحدهما شعبى (ريفى) والثانى مدنى (حضرى) [٦].

★ ★ ★

المبحث الأول :

الفروق الريفية الحضرية وفقًا للثنائيات المفسرة لتطور المجتمعات البشرية :

(أ) ميز « ورث » الحضر عن الريف بمجموعة من الخصائص هى :

كبر الحجم (من حيث المساحة)، شدة الكثافة (من حيث السكان)، اللاتجانس (من حيث الاختلاف فى الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والمهنية والنفسية وأنماط السلوك بين السكان)، شيوع العلاقات الجماعية الثانوية، وأخيرا سيادة الضوابط الاجتماعية الرسمية [٧].

وطبعا ليس مطلبنا هنا هو الخصائص الحضرية فى حد ذاتها، ولكن المهم هو ما يقابل هذه الخصائص الحضرية من خصائص ريفية، ثم إمكانية انسحاب نفس الخصائص المقابلة تقريبا على المجتمع البدوى بدرجة أو بأخرى (٨).

(ب) عرض « ريد فيلد » بوضوح خصائص المجتمع الشعبى «الريفى» Folk Society أى : المجتمع الذى تحكمه وتسود فيه الطرائق الشعبية، وبشكل محدد وحاسم، ولقد أثرت تلك التصورات «لريد فيلد» فى تفكير الكثير من الباحثين الاجتماعيين والأنثربولوجيين، حيث اعتبر أن المجتمع الشعبى (الريفى) هو كل مجتمع تنطبق عليه الخصائص الخمس التالية وهى : أن يكون مجتمعا صغيرا، منعزلا، أميا، متجانسا، ويسوده شعور قوى بالتضامن الجماعى (٩).

ونحن نرى أن هذه الخصائص الخمس تصدق اليوم على المجتمع البدوى أكثر من صدقها بالنسبة للمجتمع الريفى (*).

(جـ) قدم « سوروكين» و «زيمارمان»، تسعة محكات يمكن على أساسها أن يتم التمييز بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى (١٠).

ونحن نرى أنه يمكننا أيضا استخدام نفس المحكات للتمييز بين المجتمع البدوى والمجتمع الحضرى، والمحكات التسعة هى :

الفروق المهنية، الفوارق البيئية، حجم المجتمع، كثافة السكان، تجانس السكان أو تباينهم، الفروق فى شدة الحراك الاجتماعى، الفروق فى إتجاه الهجرة، شكل التباين الاجتماعى، وأخيرا أنساق التفاعل (١١).

(د) يشير « مور Moore » فى هذاالصدد إلى تمييز آخر مفيد للتفريق بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة، مؤكدا على ضرورة التزام الحذر فى استخدام الثنائيات التى تغالى فى تبسيط الاختلافات دون أن توضحها أو تبينها بالضرورة، ويعين « مور » الخصائص الرئيسة للمجتمعات التقليدية، بأنها تلك التى

(*) وجه «جدعون جوبرج» مجموعة من الانتقادات لتصورات ريد فيلد هذه عن المجتمع الشعبى، ويقال أن ريدفيلد قد عدل عن تصوراته تلك. ولكنها مازالت شائعة الاستخدام باسمه حتى الآن.

تتميز بالتأكيد على العاطفية « التأثير العاطفى » والاتساق « أى التضامن الآلى » والضوابط غير الرسمية، وذلك على خلاف المفهوم عن المجتمع الحديث، حيث يتضمن أو يحتوى - فى رأى « مور » - على تنظيم محكم من العلاقات اللاشخصية، فضلا عن بروز أو شيوع التخصص المستقل والتضامن « العضوى أو الوظيفى »، علاوة على وجود الضوابط الرسمية على السلوك العام داخل المجتمع [١٢].

★ ★ ★

المبحث الثانى:

اتجاه علماء الاجتماع المعاصرين نحو تفسير تطور المجتمعات البشرية:

يسلم كثير من علماء الاجتماع، سواء المعاصرون أم المحدثون، بأنه ينبغى النظر إلى المجتمعات الريفية والحضرية على اعتبار أنها أنساق فرعية داخل كيان أكبر كالدول أو الأمم، ومن هنا كان تأكيدهم على أن المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى المقابل ليسا وحدات ميكروسكوبية ممثلة للمجتمع الأكثر شمولا واتساعا، وبناء عليه فإن أية دراسة حتى ولو كانت متعمقة لأى مجتمع محلى ريفى أو حضرى لن تفسر بالضرورة جميع الوظائف والظواهر فى المجتمع الكلى الكبير، ومن هنا أيضا كان التسليم الشائع الآن بأن مفهومى الريف والحضر ما هما فى الواقع إلا تصورات تحليلية قصد منها الدراسة فقط لجانب ما أو للعديد من جوانب النسق الاجتماعى [١٣].

(أ) هذا ويوجد فى ذاك المجال اتجاهان، أولهما ما يعرف باتجاه «مركب السمات Trait Complex» وهو اتجاه وثيق الصلة بالنموذج المثالى «المجتمع الشعبى فى مقابل المجتمع الحضرى» إلا أنه يختلف عنه فى اعتماده - أى الاتجاه الأول - عند التمييز بين الريف والحضر على خصائص واقعية أو عندما يركن ذلك الاتجاه إلى عدة متغيرات يحاول أن يربط بينها جميعا لكى يحدد فى النهاية السمات التى تميز كلا من المجتمعين الريفى والحضرى [١٤].

(ب) هذا عن الاتجاه الأول، أما عن الاتجاه الثانى وهو مما يعرف « بالمتصل الريفى الحضرى بـ « Rural-Urban Continum » الذى يشير إلى وجود نوع من التدرج القائم بين المجتمعات فى درجة التريف والتحضر، بحيث يصبح من اليسير بعد ذلك أن يقع أى مجتمع إنسانى ما على نقطة معينة من المتصل المذكور.

هذا وتستند فكرة المتصل الريفى الحضرى من الناحية النظرية على افتراضين أساسيين. الافتراض الأول هو أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية إلى الحضرية وفقا لعدد معين من الخصائص، والافتراض الثانى أن هذاالتدرج يصاحبه بالضرورة اختلافات أو فروق متسقة فى أنماط السلوك [١٥].

★ ★ ★

المبحث الثالث:

خصائص المجتمعات الريفية والحضرية بين التشابه والتمايز:

على الرغم من كل ما ذكرناه قبلا عن وجود تشابه نسبى فى بعض خصائص المجتمعات الريفية والمجتمعات البدوية، إلا أنه يوجد أيضا تمايز واضح بين المجتمع البدوى وبين كل من المجتمعين الحضرى والريفى، ولا تقل حدة ذلك التشابه - كمًّا ونوعا - عما بين المجتمع الحضرى والريفى من اختلافات، وبالدرجة التى تجعلنا نؤكد أن النسق الاجتماعى العام للمجتمع - وخصوصا فى منطقتنا العربية وفى مناطق كثيرة غيرها من قارات العالم، والعالم النامى أو الثالث بالذات - لا يضم ثنائيتين واحدة ريفية والأخرى حضرية فقط، وإنما يقوم فى الواقع على ثلاثية يشكل المجتمع البدوى فى كثير من الأحيان قاعدتهاالأساسية وذلك للاعتبارات التالية [١٦].

(أ) لو استخدمنا محكات « سوركين » و « زيمرمان » المشار إليهما قبلا وحاولنا تطبيق ولو محكا واحدا منها كمثال وليكن حجم المجتمع المدروس، لتبين لنا

أن المجتمع البدوى هو النمط السائد فى معظم البلاد العربية تقريبا فيما عدا الجمهورية اللبنانية وجمهورية مصر العربية، على الرغم من أن الصحراء تشكل ٩٧ ٪ تقريبا من المساحة الكلية لجمهورية مصر العربية، ولكن عدم وجود سكان «بدو» بالكثافة المطلوبة جعل المشكلة الاساسية ترتبط بالأرض « الصحراء » قبل أن ترتبط بالناس « السكان »(١٧).

(ب) إن المجتمع البدوى لم يأخذ حظه من الاهتمام الواجب على الرغم من أن ابن خلدون قد وضع البداية الصحيحة لذلك منذ القرن الرابع عشر الميلادى لأسباب كثيرة، قد يكون من أهمها التخلف الحضارى الذى خيم على المجتمع العربى بفعل التيارات الاستعمارية التى هبت عليه وأخذت منه وعنه فى كل الأحوال ولم تعطه غير الفتات، إلى جانب عدم بروز النمط البدوى أمام علماء الغرب الذين ازدهرت على أيديهم الدراسات السوسيولوچية والأنثربولوچية فاقتصرت ملاحظاتهم وآراؤهم بل ونظرياتهم أيضا على النمطين السائدين، وهما الريف والحضر، وحتى إذا ما تعرضوا للمجتمعات البدوية ومن خلال الدراسات الأنثربولوچية بالذات وفى مجتمعات خارجة عن البيئات الأصلية لهؤلاء العلماء والباحثين، نجدهم يطلقون عليها أسماء غير واقعية كالمجتمعات البدائية أو شبه البدائية وأحيانا المجتمعات المتخلفة، إلى جانب أن عددا لايستهان به من تلك الدراسات كان ظاهره العلم وان كان يخفى - فى الحقيقة - أهدافا استعمارية تسعى بكل السبل لتثبيت الاحتلال الأجنبى للمجتمعات البدوية أو لاستمرار استنزافها على اعتبار أن سكانها الأصليين يأكلون الثعابين والعقارب ويشربون من الآبار ويركبون الجمل(١٨).

(جـ) يرى بعض العلماء أن سكان أفريقيا - وخاصة فى جنوب الصحراء فيما قبل الغزو الأوربى - لم يكونوا جزءا من مجتمع متمدين، وبالتالى فإن هذا الإقليم والأقاليم المماثلة تحتاج إلى معالجة خاصة لأن بعض التعميمات لا يمكن أن تنطبق تماما على الحال فيه(١٩).

★ ★ ★

المبحث الرابع:

التمايز بين المجتمع القبلى والمجتمع القروى:

أقام بعض العلماء عددا من الثنائيات ليس بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى كما كان متبعا فى معظم الثنائيات فيما عدا ابن خلدون، وإنما بين المجتمع البدوى والمجتمع الريفى أو القروى، وقبل أن نتعرض لهذه الثنائيات نحب أن نشير إلى أنه قد يطلق أحيانا على المجتمع البدوى - من خلال تلك الثنائيات - المجتمع القبلى وربما المجتمع البدائى، ولكن كل هذه المسميات لا يبعدنا كثيرا عن نطاق المجتمع البدوى الذى نحن بصدد دراسته.

المهم أن من أبرز تلك الثنائيات التى تناولت المجتمع البدوى بالمقارنة بالمجتمع الريفى أو القروى هى :

(أ) قدمت « فيتشن Fitchen » ثنائية ذات خمسة معايير للمقارنة بين كل من المجتمعات البدائية والقروية، وسوف نتعرض لهذه المقارنة ببعض التفصيل خلال فصل تال من هذا الكتاب، وإن كان ذلك لا يمنع من القول بأن « فيتشن» قد اعتبرت القرابة هى المحور الأساسى للبناء الاجتماعى فى المجتمع البدائى، وأن الوحدات الصغرى فى هذه المجتمعات البدائية ترتبط ارتباطا وثيقا بالجماعات، القرابية أو المحلية بصرف النظر عن بعدها المكانى، وأن الوحدات الاجتماعية فى المجتمع القروى أو الريفى تتساوى ولا يوجد بينها تمايز أفقى، بينما نجد العكس لو نظرنا إلى المجتمع البدائى حيث تتداخل البدنات (*)، بعضها مع بعض وتتمايز فى درجة علاقاتها مع العشائر البدوية، وأخيرا أوضحت « فيتشن » أن القرويين على العكس من أفراد المجتمع البدائى يمثلون جزءا من مجتمع (٢٠) (**).

(ب) أبرز « فوستر Foster » من خلال تصوره لطبيعة ووظيفة التعاقد الثنائى

(*) البدنات هى الوحدات التى تشكل أساس البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية ، كما تشكل البدنات كذلك أساس البنيات الاجتماعية للمجتمعات القروية أو الريفية .

(**) تعتبر « فيتشن » أن المجتمع القروى يتكون من جزأين أحدهما ريفى والآخر حضرى .

للعلاقات بين الأفراد فى المجتمع القروى المحلى، أن تنظيم البناء الاجتماعى لهذا المجتمع يُعتبر فى أساسه عقد ارتباط ذى اتجاهين على عكس المجتمع البدائى (القبلى) حيث تنتظم وتعمل العلاقات الاجتماعية فى اتجاه واحد [٢١].

(جـ) أوضح « هامل Hammel» خلال تصوره لأسس التدرج الاجتماعى كوسيلة للتمييز بين المجتمعات الثلاثة البدوية والريفية والحضرية، أوضح أن المجتمع البدائى يمتلك عددا محددا ومعينا من المكانات الهامة التي لا يختلف أفراد المجتمع بشأن طبيعتها أو طريقة توزيعها، أما بالنسبة للمجتمع القروى فإنه يمتلك عددا أكبر من المكانات، أماالمجتمع الحضرى، فيتصف بتكاثر عدد هذه المكانات وتنوعها المعقد إلى جانب اختلاف أفراد المجتمع بشأن أسس توزيعها [٢٢].

(د) قدم « كروبر Kroeber » خلال تعريفه للمجتمع القروى أساسًا صالحا للتمييز بين المجتمع القروى والمجتمع البدوى، عندما أوضح أن القرويين هم أولئك المزارعون الذين لا يستطيعون الحياة دون الاتصال أو الاعتماد على الأسواق والمراكز الحضارية، فالقرية إذن فى رأى « كروبر» ليست وحدة قائمة بذاتها وإنما هى تمثل مجتمعا جزئيا ذا ثقافة جزئية، ومن هنا كان التأكيد على فكرة جزئية واعتمادية المجتمع القروى المحلى فى مقابل فكرة كلية واستقلالية المجتمع البدائى [٢٣].

وفى مجال المقارنة بين المجتمع الريفى والمجتمع البدوى قدم « كروبر » خلال ذكره لخصائص الحياة القروية، ثنائية تستحق التقدير، فهو يرى مثلا أن القرويين يعتمدون على فلاحة الأرض فى معيشتهم، وأنهم لا يعيشون منعزلين تماما، على عكس الحال فى التنظيمات العشائرية والقبلية، كما أن القرويين مرتبطون إلى حد ما بأسواق المدن ولكن ينقصهم الاستقلال السياسى والاكتفاء الذاتى الذى تتمتع به العشائر والقبائل فى المجتمعات البدوية، كما أوضح « كروبر » أن من أهم الخصائص التى تميز القرويين ارتباطهم الشديد بالأرض، وهذا - فى رأينا - على عكس المجتمع البدوى، حيث لا يمثل الارتباط بالأرض لدى البدوى قيمة اجتماعية

أو اقتصادية إلا بالقدر الذى تتمكن خلاله هذه الأرض من العطاء ولكن عندما تكف عن البذل أو ينضب معينها فأرض الله واسعة (٢٤).

* * *

المبحث الخامس:

ثلاثية معاصرة تفسر تطور المجتمعات البشرية:

أولاً - قدم « جدعون جوبرج Giden Sjoberg » ثلاثية جديدة خلال تفسيره للأنماط الريفية الحضرية عندما قسم المجتمعات إلى ثلاثة نماذج حضارية قائمة بالفعل هى :

(أ) مجتمع ما قبل التصنيع أو المجتمع الإقطاعى.

(ب) المجتمع الانتقالى أو التحولى، وهو المجتمع الذى ينمو وفقا لبرامج تنموية محددة أو مخططة، ويتجه خلالها نحو الحداثة والتمدن.

(جـ) ثم مجتمع الصناعة، أو المجتمع الصناعى المتقدم.

ثانياً - وواضح أن « جدعون جوبرج » يعتمد على التكنولوجيا كمتغير أساسى للتمييز بين النماذج المجتمعية الثلاثة السابق ذكرها (*)، ويرى أن مجتمع ما قبل الصناعة يتميز ببساطة المعرفة التكنولوجية إذا ما قورن بالمجتمع الانتقالى أو المجتمع الصناعى المتقدم، حيث نجد مستوى تكنولوجيا معقدا، ومصادر للطاقة غير معتمدة على الإنسان أو الحيوان بالإضافة إلى الإيمان بالعلم وتطبيق نتائجه ومناهجه (٢٥).

ثالثًا : ويرى « جوبرج » أيضا أن الناس قد عاشوا طويلا حياة القرى قبل أن

(*) المقصود بالتكنولوجيا هنا أنواع الآلات وطبيعة الطاقة والمعرفة باستخداماتها ، وإن كنا نحب أن نشير إلى التشابه الكبير بين ثلاثية «جدعون جوبرج» هذه وبين نظرية التطور الثقافى عند «مورجان».

يعرفوا حياة المدن، حيث ظهرت المدن فى فترات متأخرة من التاريخ الإنسانى، وكان ذلك حوالى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد، وأن تلك المجتمعات كانت فى منطقة ما بين النهرين ووادى النيل حيث نشأت وازدهرت الحضارات القديمة والعظيمة [٢٦].

رابعًا : ويعتبر هذا التصور « لجدعون جوبرج » - من وجهة نظرنا - قاصرا لأنه من الثابت علميا أن الإنسان بدأ حياته بدويًا أو بدائيًا لم يعرف الاستقرار وإنما عاش حياته ساعيا وراء مصادر القوت، وظل كذلك على الأقل طوال فترتى جمع القوت وإنتاجه، كما أن القروية كاصطلاح - أو كظاهرة - هى بكل المقاييس والمعايير التى وردت قبلا أو حتى كما تصورها «وولف Wolf» (*). تشير إلى الاستقرار حول المناطق المنزرعة لما يتطلبه استزراع النبات من عناية خاصة تستلزم جهدا مشتركا وعونا سواء من الإنسان أم الحيوان الذى تحول هو الآخر - فى ظل الزراعة وما تتطلبه من استقرار ولو نسبيا - أو حوَّلته الزراعة من حيوان راع إلى حيوان تربية، هذا إلى جانب أن النماذج المجتمعية التى تضمنتها ثلاثية « جدعون جوبرج » المشار إليها، ما هى فى الواقع إلا نماذج غير واضحة، ولا يمكن أن تبرز بشكل إيجابى ومحدد الفروق البدوية الريفية الحضرية،وذلك لصعوبة التحديد الواضح لمعالم كل نموذج من تلك النماذج المجتمعية على حدة، فضلا عن صعوبة الاعتماد على التكنولوچيا كمتغير أساسى ووحيد للتمييز أو للتفريق بين هذه المجتمعات المتعددة، والتى يمكن أن تضم بالتالى المجتمعات البدوية إلى جانب المجتمعات الريفية والحضرية.

خامسًا - أهمية بناء نظرية جديدة تفسر تطور المجتمعات البشرية : إن ما يهمنا الآن هو أن نوضح أنه لابد من وجود نظرية جديدة تتوفر على دراسة المجتمعات البدوية والريفية والحضرية مبرزة خصائص كل منها وموضحة ما بينها من نقاط اتفاق أو اختلاف (**).

(*) يميل «وولف» إلى استخدام مصطلح «المجتمع القروى» ليشير إلى طريقة قوامها الاشتغال بالزراعة بقصد الاكتفاء الذاتى وليس بهدف الاستثمار أو الربح.

(**) ترتكز هذه النظرية الثلاثية الأبعاد على أن الإنسانية قد عاشت طفولتها فى أحضان البداوة كما ستتضح فيما بعد.

ولقد سبق أن أوضحنا أن النسق الاجتماعى العام للمجتمع وخصوصا فى منطقتنا العربية لا يضم ثنائيتين فقط واحدة ريفية (قروية) والأخرى حضرية (مدنية)، وإنما ينهض ذلك النسق فى الواقع على ثلاثية يشكل المجتمع البدوى فى كثير من الأحيان قاعدتها الأساسية، وذلك بما للبداوة من ثقل مادى ومعنوى وعلى امتداد كل العصور [٢٧].

★ ★ ★

المصادر

(١) انظر الدكتور محمد الجوهرى وزملاؤه ، ميادين علم الاجتماع ، مترجم ، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٢ ص ٢١١ ، المتن والهامش .

(٢) للاستزادة انظر - دكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مرجع سابق ص ص ٤٩ - ٥١، ٨٧ .

(٣) انظر ما كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور السيد محمد الحسينى والمرحوم الأستاذ الدكتور محمد على محمد ، عن الفروق الريفية الحضرية فى بعض الخصائص السكانية ، بحث فى كتاب الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٤٨.

(٤) أنظر :

Miner, H, The Folk - Urban Continum, In Panl Hatt & Abert Reiss, Jr. Cities and Society, the revisrd Reader in Urban Sociology, The free Press of Glexcoe, Inc, New York 1961, pp. 22-44.

(٥) انظر مكى الجميل ، البدو والبداوة ، المقدمة للدكتور محيى الدين صابر ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠ - ٣١.

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

(٧) ميادين علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١١٧ .

(٨) للاستزادة انظر : Wirth, L, “Urbanism as a Way of Life” A.J.S, 1938, pp. 1-44

(٩) انظر ميادين علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ١١٨ - ١١٩ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

(١١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ٨٥ .

(١٢) Wibert E. Moore, at Inter-American Sociology Seminer Princeton University , September 1962, reported in Introduction, Social change and Comparative Studies, international Social Science Journal , 15 (1963), 522

فى - جيرالد بريز - مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، ترجمة الدكتور محمد محمود الجوهرى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٧٢، ص ص ٣٦-٣٧.

(١٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ٨٦ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ص ٨٥ - ٨٦ .

(١٥) للاستزادة انظر ما كتبه فى هذاالشأن المرحوم الأستاذ الدكتور السيد محمد الحسينى والمرحوم الأستاذ الدكتور محمد على محمد - ضمن البحث المشار إليه قبلا - ص ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(١٦) د. صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق - ص ص ٨٥ - ٨٦ .

(١٧) سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع بالتفصيل ضمن كتابنا - تنمية المجتمعات الصحراوية - تطبيقات ميدانية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ١٩٦٨ .

(١٨) للاستزادة حول هذه النقطة أنظر ما كتبناه عن الأنثربولوچيا والاستعمار ضمن مؤلفنا عن «علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية » - مرجع سابق ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(١٩) ميادين علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٢٤ .

(٢٠) انظر - كتاب الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٧١ بحث للدكتور حسين فهيم ص ٦٢ .

(٢١) المرجع السابق ص ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢٢) Hammel, E.A., Social Rank and Evolutionarry Position in a Coastal Peruvian Village, S.J.A., 1962 PP . 18 : 199-215 .

(٢٣) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢٤) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر . دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع الصحراوى - دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠١ ، فى مواضع كثيرة منه .

(٢٥) ميادين علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٢٤ .

(٢٦) انظر : دكتور صلاح الفوال - سوسيولوچيا الحضارات القديمة - مصدر سابق ، فى مواضع كثيرة منه .

(٢٧) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٩٠ - ٩١ .

★ ★ ★

الفصل الخامس

علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية

- مقدمة .
- ما هى الأنثربولوچيا الاجتماعية .
- اهتمامات الأنثربولوچيا الاجتماعية .
- دعائم وأشكال الصلات بين علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية .

علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية

مقدمة :

لسنا فى حاجة إلى أن نؤكد فى البداية أن الأنثربولوچيا الاجتماعية ليست مطلبا أساسيا لهذا الكتاب، ولكننا نعتقد أن هناك صلات نسب قوية وعميقة تربط ما بين علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية، ولسوف نحاول أولا أن نلقى بعض الضوء على الأنثربولوچيا كعلم وبصفة عامة وصولا إلى التعرف على الأنثربولوچيا الاجتماعية حتى يمكن أن نوضح ثانيا ما بينها وبين علم الاجتماع البدوى من صلات أثرت بعمق وقوة ليس فقط على مسيرة علم الاجتماع البدوى، بل وعلى نشأته أيضًا.

★ ★ ★

المبحث الأول :

ما هى الأنثربولوچيا الاجتماعية :

تُعنى الأنثربولوچيا Anthropology بصفة عامة بدراسة الإنسان مشاركة فى ذلك العديد من العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولسنا هنا بصدد توضيح نشأة الأنثربولوچيا كعلم، فلذلك مراجعه ومدارسه ونظرياته الكثيرة والمنوعة، وإنما الذى يعنينا فى هذا المجال، هو أن نوضح أن علم الأنثربولوچيا يدرس الإنسان من زاويتين، أولاهما على اعتبار أن الإنسان واحد من أعضاء المملكة الحيوانية، والثانية على اعتبار أن ذلك الإنسان عضو فى مجتمع، واهتمام الأنثربولوچيا ليس مقصورا على إنسان ما بالذات أو حتى على زمن معين أو فى مكان محدد، وإنما هو - أى ذلك الاهتمام للأنثربولوچيا - ممتد لكل إنسان فى أى مجتمع، وفى كل العصور والأزمنة، والأمكنة أيضًا (1).

ومن هنا تمركزت أو تمحورت اهتمامات الأنثربولوچيا فى ثلاث نقاط، وربما كان ذلك التمحور أو التمركز يدور حول (ثلاث) اتجاهات رئيسية هى [٢] :

النقطة الأولى هى : دراسة كل مراحل التطور التى أثرت فى التركيب العضوى للإنسان، والنقطة الثانية : دراسة كل تغير أصاب حضارة ذلك الإنسان وأثر فيها سواء بالحذف أم بالإضافة، أما النقطة الثالثة والأخيرة : فتبرز أو تتضح من خلال الاتجاه نحو الدراسات المقارنة والتى احتلت مكانا مبرزا من الدراسات الأنثروبولوچية بصفة عامة.

ولقد اهتم ذلك الاتجاه الأخير (*) بإبراز نقاط الالتقاء أو الاختلاف بين العديد من المجتمعات والحضارات محل الدراسة [٣] .

وعلى الرغم من بروز الاتجاهات الثلاثة السابقة الذكر إلا أنه من المتفق عليه علميا أن مجال الدراسة فى علم الأنثربولوچيا يقتسمه اهتمامان أساسيان، أولهما : دراسة الإنسان ككائن طبيعى، ويتوافر على ذلك ما يعرف باسم علم الإنسان الجسمى أو الأنثروبولوچيا الجسمية Anthropology Physical، وثانيهما : دراسة الإنسان ككائن اجتماعى، ويتوفر على ذلك ما يطلق عليه علم الإنسان الحضارى أو الأنثروبولچيا الحضارية Cultural Anthropology [٤].

هذا وقد نشأ عن التقسيم السابق مجموعة من التفريعات ليس هنا مجال ذكرها، ولكن المهم هو أن نوضح أن الأنثربولوچيا الاجتماعية تمثل إحدى تلك التفريعات الرئيسة سواء اعتبرت الأنثريولوچيا الاجتماعية فرعا من الأنثربولوچيا الحضارية كما ترى المدرسة الأمريكية، أم اعتبرت قسما مستقلا من أقسام علم الأنثربولوچيا بصفة عامة كما ترى المدرسة الإنجليزية، إلا أنه من المهم أن نتفق على أن الاهتمام الرئيس للأنثربولوچيا الاجتماعية هو تحليل البناء الاجتماعى للمجتمعات الإنسانية بصفة عامة، والمجتمعات البدائية وشبه البدائية «البدوية» بصفة خاصة وذلك من خلال الدراسة المركَّزة للبناء الاجتماعى لهذه المجتمعات

(*) أى الاتجاه المعني بالدراسات المقارنة .

القبلية أو العشائرية وتوضيح عوامل الترابط والتأثير المتبادل لمختلف تلك النظم الاجتماعية التى بداخل تلك المجتمعات [٥] .

هذا وتعتمد الأنثربولوچيا الاجتماعية فى دراستها تلك للبناء الاجتماعى للمجتمعات البدائية وشبه البدائية، على مجموعة من الاتجاهات والطرق المختلفة، كما انتظمت فى العديد من المدارس المتنوعة سواء من حيث الفلسفة أو المنهج، وذلك ابتداء من المدرسة النشوئية، المدرسة التطورية، المدرسة الانتشارية، المدرسة الوظيفية، وأخيرا المدرسة الأيكولوچية [٦] [*].

وإن كنا نعتقد أن أظهر هذه المدارس جميعا هى المدرسة الوظيفية التى أسسها « رادكليف براون » والتى تقوم على تصور نظرى مؤداه أن النظم الاجتماعية فى أى مجتمع ما هى إلا نسيج تتشابك عناصره و تؤثر كل منها فى الأخرى وتعمل تلك العناصر على خلق وإيجاد وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع بالبقاء واستمرار النمو [٧].

★ ★ ★

المبحث الثانى :

اهتمامات الأنثربولوچيا الاجتماعية :

يمكن أن نعود لنحدد معا فى عجالة اهتمامات الأنثربولوچيا الاجتماعية لنجد أن تلك الاهتمامات تكاد تنحصر فيما يلى[٨] :

(أ) دراسة النظم الاجتماعية بغرض تحديد العلاقة والتأثير المتبادل بين تلك النظم بعضها وبعض سواء فى ذلك المجتمعات التاريخية عن طريق ما خلفته من آثار وشواهد، أو بالنسبة للمجتمعات المعاصرة من خلال الملاحظة المباشرة والمعايشة

(*) يمكن للقارئ أن يأخذ فكرة أوضح عن هذه المدارس لو عاد إلى كتاب المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد الخشاب المشار إليه ص ص ٢٦٦ - ٣١٦ ، كما أننا نلفت النظر إلى أنه قد يطلق أحيانا على هذه المدارس اسم نظريات فيطلق على المدرسة الوظيفية مثلا اسم النظرية الوظيفية وهكذا .

الكاملة أو شبه الكاملة طبقا لما تتطلبه الدراسة العلمية الحقلية لتلك المجتمعات محل البحث والدراسة.

(ب) دراسة المجتمعات الصغيرة الحجم البسيطة التكوين ذات النسيج الاجتماعى المتكامل والمحدود، والتى تمتاز بالبساطة سواء فى مجال الفنون الآلية أم من حيث طبيعة الاقتصاد مع قلة التخصص.

(جـ) من هنا يمكن القول بأن الأنثربولوچيا الاجتماعية قد اهتمت بدراسة البناء الاجتماعى وخاصة للمجتمعات البدائية مع تأكيد مبدأ «الدراسة العميقة لمنطقة محدودة أو مشكلة معينة » [٩].

(د) هذا مع اعتبار أن الدراسات الميدانية أو الحقلية قد صارت تشكل اليوم أهم ملامح المنهج الرئيس لعلم الأنثربولوچيا الاجتماعية [١٠].

(هـ) توجد عدة اتجاهات معاصرة نقلت بعض اهتمامات الأنثربولوچيا الاجتماعية لدراسة المجتمعات المدنية أو المتمدينة، وإن كان ذلك لا يمنع من القول بأن الاهتمام الرئيس للأنثربولوچيا الاجتماعية مازال يتركز حول المجتمعات البدوية وشبه البدوية، والتى قد تسمى - تجاوزا - بالمجتمعات البدائية أو شبه البدائية، وهى على كل حال مجتمعات صغيرة الحجم لا تخرج عن كونها عدة بدنات أو عشائر أو جماعات صغيرة تعيش حياة تكنولوچية بسيطة، وإن كان ذلك لا يعنى بساطة النظم الاجتماعية فيها، فإن بعضها قد يعيش على الصيد وجمع الثمار والرعى وفى نفس الوقت يطبق نظما قرابية أو دينية أو قانونية أو سياسية على درجة عالية من التعقيد [١١].

★ ★ ★

المبحث الثالث:

دعائم وأشكال الصلات بين علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية:

لعلنا نكون بعد هذا العرض السريع لماهية الأنثربولوچيا الاجتماعية، والتعرف على اهتماماتها ومناهجها فى البحث، نقول : لعلنا نكون قد أمطنا اللثام عن كنه ذلك العلم الذى نعتقد بحق أن هناك صلات قوية وعميقة بينه وبين علم الاجتماع البدوى، ويمكن أن نتعرف على تلك الصلات من خلال النقاط التالية (١٢) :

(أ) هناك تشابه كبير فى مجال البحث بين كل من الأنثربولوچيا الاجتماعية وعلم الاجتماع البدوى، ويتضح ذلك التشابه من خلال دراسة كل منهما للمجتمعات البدوية المتعددة، وان اختلفت مناهج البحث وطرقه فى كل من العلمين إلى حد ما (١٣).

هذا وقد يعتبر البعض أن هذه النقطة موضع اختلاف لا موضع اتفاق أو تشابه، وهم يرون أن مجال الاختلاف الوحيد بين علم الاجتماع العام وبين الأنثربولوچيا الاجتماعية إنما يقتصر على مجال الدراسة الذى يتمثل فى التقسيم التقليدى بين العلمين - أى بين علم الاجتماع العام وعلم الأنثربولوچيا الاجتماعية - حيث يهتم الأول بدراسة المجتمعات الحديثة، بينما يهتم الثانى بدراسة المجتمعات البدائية (١٤).

ونحن نعتقد أن ذلك قد يكون صحيحا فى غيبة علم الاجتماع البدوى ولكن مع بروز ذلك العلم الآن تصبح نقطة الخلاف الوحيدة هذه هى نقطة الالتقاء الرئيسة أيضا على اعتبار أن المجتمعات البدوية التى قد يطلق عليها أحيانا المجتمعات البدائية أو شبه البدائية، تمثل الاهتمام الرئيس كذلك لعلم الاجتماع البدوى كما أوضحنا ويتضح من خلال صفحات هذا الكتاب.

هذا و « لإيفانز بريتشارد » رأى فيما يتعلق بالتمييز بين علم الاجتماع العام والأنثربولوچيا الاجتماعية يحسن الرجوع إليه حتى تتكامل الصورة (١٥).

(ب) تسمى الأنثربولوچيا الاجتماعية أحيانا بعلم الاجتماع المقارن (*)، وذلك راجع لأنها تهتم بالدرجة الأولى بدراسة البناء الاجتماعى والتنظيمات الاجتماعية، أما اهتمامها بدراسة العادات فيأتى فى الدرجة الثانية، بينما يهتم علم الاجتماع البدوى كما سبق أن أوضحنا بتحديد ظاهرة البداوة وتتبع مختلف مظاهرها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية، فضلا عن التعرف على طبيعة البنيان الاجتماعى للمجتمع البدوى بوجه عام، مع اكتشاف الخصائص الاجتماعية والنفسية والحضارية للجماعات البدوية بوجه خاص، ولعل النقطة الأخيرة هذه تمثل أشد نقاط الالتقاء وضوحا بين علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية [١٦].

(ج) يمكن أن يستمد علم الاجتماع البدوى - كواحد من فروع علم الاجتماع العام - صلته الافتراضية بالأنثربولوچيا الاجتماعية من خلال صلتها - أى الأنثربولوچيا -الثابتة علميا بعلم الاجتماع العام، ومن علامات هذه الصلة تأثر المدرسة الإنجليزية فى الأنثربولوچيا بنظريات وآراء « أميل دوركايم » فى علم الاجتماع [١٧]. والتى أكدها « رادكليف براون » وخاصة فيما يتعلق بأفكار وتصورات البناء الوظيفى [١٨].

(د) قدمت الأبحاث والدراسات الأنثربولوچية العديدة، المناخ الخصب لهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن، وقد اعتمدنا عليها اعتمادا يكاد يكون أساسيا ونحن نقدم نماذج للمجتمعات البدوية خلال الباب الأول لهذا الكتاب، وكلها بغير استثناء نماذج دراسية ممتازة أعانتنا إلى حد كبير فى تحديد الصلات الافتراضية الموجودة بين علم الاجتماع البدوى والأنثربولوچيا الاجتماعية، علاوة على أنها كانت - مع دراسات أخرى - ممهدة لظهور علم الاجتماع البدوى ذاته كأحد العلوم الخاصة لعلم الاجتماع العام كما تصورناه ويجده الآن القارئ الكريم بين يديه [١٩].

★ ★ ★

(*) "راد كليف براون" هو الذى أطلق على الأنثربولوچيا الاجتماعية اسم علم الاجتماع المقارن .

المصادر

(١) للاستزادة فى هذا المجال انظر :

- إيفانز بريتشارد – الأنثربولوجيا الاجتماعية – ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد – منشأة المعارف – الإسكندرية ١٩٦٠ .
- الدكتور أحمد الخشاب – دراسات أنثربولوجية – دار المعارف – القاهرة ١٩٧٠ .
- الدكتور عاطف وصفى – الأنثربولوجيا الاجتماعية – دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٨ .

(٢) انظر : دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٤ .

(٥) دكتور على محمود إسلام الفار – الأنثربولوجيا الاجتماعية – الجزء الأول – الشركة القومية للتوزيع – القاهرة – ١٩٦٨ .

(٦) دكتور صلاح الفوال – معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر – دار الفكر العربى – القاهرة –١٩٨٣.

(٧) للاستزادة انظر أيضًا :

- دكتورة لوسى مير – أمم جديد – ترجمة محمد مرسى أبو الليل – مشروع الألف كتاب – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٨ .
- دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية – عالم الكتب – القاهرة ١٩٨٢ .
- دكتور صلاح الفوال – دراسة علم الاجتماع البدوى – الطبعة الأولى – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ص ص ١٨٠ – ١٨٧ .
- دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع فى عالم متغير – دار الفكر العربى – القاهرة–١٩٩٧.
- دكتور صلاح الفوال – معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر – دار الفكر العربى – القاهرة – ١٩٨٣ .

(٨) دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ص ٩٤ –٩٥ .

(٩) انظر الدكتور عاطف وصفى – الأنثربولوچيا الاجتماعية – مرجع سابق ص ٦٣ .

(١٠) دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ٩٥ .

(١١) انظر : .Hammond, Cultural and Social Anthropology , New York , 1965, p. 474

(١٢) دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ص ٩٥ –٦٠ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(١٤) انظر – دكتور عبد الحميد لطفى – الأنثربولوچيا الاجتماعية – مرجع سابق ص ٨٦ .

(١٥) للاستزادة انظر : .Evans, Pritchard, Social Anthropology , London, 1951, pp. 5-6

(١٦) دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ٩٦ .

(١٧) للاستزادة انظر :

(أ) – دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق – مصدر سابق – ص ص ١٥ – ١٦ ، ٣٧–٣٨ ، ٩٦ – ٩٨ .

(ب) – دكتور صلاح الفوال ، علم الاجتماع فى عالم متغير – مصدر سابق ص ص ٢٦٩ – ٣٠٨.

(١٨) انظر : دكتور محمد عاطف غيث – علم الاجتماع – مرجع سابق – ص ١٧٦ .

(١٩) دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ٩٦ .

★ ★ ★

الفصل السادس

المسئولية التنموية لعلم الاجتماع البدوى ودوره فى تحديث المجتمعات البدوية

- مقدمة .
- مسئولية علم الاجتماع البدوى عن العملية التنموية فى المجتمعات البدوية .
- ماهية تنمية المجتمعات البدوية .
- عناصر التنمية .
- ترابط الأهداف الاجتماعية والاقتصادية فى البرامج التنموية .
- وظائف علم الاجتماع البدوى فى المجالات التنموية .

مقدمة
حول دور علم الاجتماع البدوى فى تحديث المجتمعات البدوية

تلعب البداوة بما لها من ظروف إنسانية وطبيعية وجغرافية خاصة، وتركيب اجتماعى معين يرتكز على العصبية، سواء كانت تلك الظروف الخاصة موروثة أم مكتسبة، تلعب البداوة فى ضوء تلك الظروف دورا هاما فى عرقلة أو اجهاض البرامج والخطط التنموية فى العديد من المشروعات الإنمائية وعلى مختلف مستوياتها القومية منها والمحلية (*)، فى ذات الوقت الذى تضيق فيه الموارد الطبيعية تبعا للتزايد الرهيب للسكان، وبحيث لم يعد هناك بد من أن تكون القطاعات البدوية هى الأفق العريض الذى يتطلع إليه الإنسان فى مناطق كثيرة من العالم سعيا وراء مصادر أرحب للحياة والنمو.

ولذلك اتجهت دول كثيرة بكل طاقاتها إلى قطاعاتها البدوية فى محاولات جادة من أجل التغلب على صور البداوة التقليدية فيها والمتمثلة فى الأراضى

(*) ولعل من أهم المشكلات الناشئة عن البداوة العربية على سبيل المثال ، ذلك الشعور بالقبلية الذى باعد وباعد بين العرب منذ قديم الزمان وبين شعورهم بالأممية - أى أنهم أمة واحدة- ومن الأمثلة التى تبرز ذلك السلوك وتوضحه ما رواه المرحوم الدكتور أحمد الحوفى فى كتابه «التيارات المذهبية» نقلا عن المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، أنه لاحظ أن العرب لما انتصروا على الفرس فى موقعة «ذى قار» لم يتغنوا - كعادتهم فى الفخر - بنصرة العروبة عامة ، وإنما تغنوا بنصرة القبائل التى اشتركت فى الحرب ، حيث لم تتجل فى الغناء روح عربية عامة، لأن العرب لم يكونوا يدركون أنهم أمة ، وإنما كانوا يعتمدون على الحياة القبلية، ومن هنا كان الفخر القبلى دليلا على فقدان الشعور بأن العرب أمة واحدة :

- أنظر : الدكتور أحمد محمد الحوفى - التيارات المذهبية - سلسلة مذاهب وشخصيات - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ص ص ٣٩ - ٤٠ .
- وانظر أيضًا : أحمد أمين - ضحى الإسلام - الجزء الأول - ص ١٨ .

الصحراوية وشبه الصحراوية وغيرها من المناطق حتى تتحول هذه البوادى إلى مصادر للإنتاج والخصب وبحيث تصبح امتدادا طبيعيا وسخيا - فى بعض الدول - للثروة والنماء، وذلك بما تحتضنه تلك المناطق البدوية من برامج ومشروعات تنموية.

ومن الطبيعى أن يرتكز قهر الإنسان للصحراء وغيرها من المناطق البدوية على أسس علمية مستغلا فى ذلك كل ما توصل إليه العقل البشرى - وخاصة فى رحاب القرن الحادى والعشرين - من أساليب تكنولوچية ووسائل حضارية، إلى جانب ما يتوافر من معلومات أساسية بل وضرورية وفرتها الثورة المعلوماتية عن الصحراء والبدو بكل ما ينظم حياتهم من معتقدات وتقاليد وقيم ونماذج وسلوك [1].

★ ★ ★

المبحث الأول:

حول مسئولية علم الاجتماع البدوى عن العملية التنموية فى المجتمعات البدوية:

بغير أن نخوض غمار حديث وعر وشاق عن التنمية فقد كان لنا معها حوار طويل امتد عبر ستة كتب تنموية سابقة لنا (*).

وعلى كل يمكننا أن نؤكد أنه لن يصبح فى مقدور العاملين فى مختلف المجالات التنموية للمجتمعات البدوية، أن يمكنوا هذه المجتمعات من تحقيق دورها المرجو سواء فى مواجهة مشكلاتها الخاصة، أم تدعيما للكيان العام للمجتمع، لن يتمكنوا من تحقيق أى من تلك الأهداف التنموية مالم تتوافر لديهم مجموعة من المعلومات الأساسية عن طبيعة تلك المجتمعات البدوية - محل التنمية - من مختلف

(*) انظر فى ذلك أيا من مؤلفاتنا التنموية خاصة منها :

(أ) البداوة العربية والتنمية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة - ١٩٦٧ .

(ب) تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة - ١٩٦٨ .

(جـ) تنمية المجتمعات الصحراوية - تطبيقات ميدانية - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة - ١٩٦٨ .

(د) علم الاجتماع فى عالم متغير - دار الفكر العربى القاهرة - ١٩٩٧ .

(هـ) علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - دار الفكر العربى القاهرة - ١٩٩٧ .

(و) علم الاجتماع البدوى - دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .

الزوايا الإنسانية والأيكلوجية والاقتصادية... إلخ، لأن هذه المعلومات الأساسية والضرورية ليست لازمة حتى ترتكز تنمية المجتمعات البدوية وخاصة منها المجتمعات الصحراوية، على أسس ثابتة يدعمها الدراسة والعلم فحسب، وإنما هى ضرورية كذلك لمواجهة الآثار المختلفة المصاحبة للعمليات والبرامج التنموية أو الناتجة عنها.

ولكن من المسئول عن تقديم تلك المعلومات التى قلنا عنها قبلا إنها أساسية وضرورية حتى تتمكن مختلف الجهود التنموية فى المجتمعات البدوية عموما والصحراوية خصوصا من تحقيق أهدافها فى النماء والخصب ؟.

إن تلك ولا شك تعتبر هى المسئولية الأساسية والمباشرة لعلم الاجتماع البدوى، وليس معنى هذا أنها مسئوليته وحده، وإنما يشاركه فيها - ولو بقدر ومسئولية أقل - مجموعة أخرى من العلوم الطبيعية والإنسانية وبصفة خاصة « علم الاجتماع الصحراوى » الوليد (*).

وحتى يمكن أن يتضح بصورة أدق؛ ما بين علم الاجتماع البدوى وتنمية المجتمعات البدوية من صلات، يحسن أن نلقى نظرة ولو سريعة على التنمية من خلال معالجة عدة موضوعات متضمنة فى المباحث التالية وهى(٢) :

★ ★ ★

المبحث الثانى :

ماهية تنمية المجتمعات البدوية:

العملية التنموية بصفة عامة هى « مجموعة الجهود العلمية والبرامج المستخدمة لتنظيم الأنشطة المشتركة الحكومية « الرسمية » والمدنية «الشعبية» أو الأهلية، وعلى مختلف المستويات المحلية والإقليمية والقومية والأممية، لتعبئة كل

(*) سيكون لنا مع العملية التنموية حديث أطول خلال مؤلفنا عن « علم الاجتماع الصحراوى » الذى يعتبر الكتاب الثالث من « مكتبة البداوة » بإذن الله .

الموارد الموجودة أو التى يمكن إيجادها لمواجهة أو لإشباع مختلف الحاجات الحالية منها والمستقبلية، وفقا لخطة أو لخطط تنموية مرسومة وعلى ضوء السياسة العامة للمجتمع وبصفة خاصة ما اتصل منها - أى بتلك السياسة - بالنشاط الدينى والاجتماعى والثقافى والتكنولوجى والاقتصادى والصحى والتعليمى والبيئى على وجه التحديد، وفى ضوء الظروف الأممية أو العالمية المتغيرة، والتي هبت رياحها مع العقد الأخير من نهاية القرن المنصرم «العشرون ».

أما عن تنمية المجتمعات البدوية والصحراوية منها بصفة خاصة فهى : « مجموعة الجهود الرسمية والشعبية - الحكومية والخاصة - المبذولة عن قصد ووعى وبهدف إحداث نوع من التغيير النامى فى حياة الجماعات والمجتمعات البدوية، وبما تشمله أو تضمه هذه الحياة من أنماط وحاجات وأساليب متنوعة ومتعددة وفى إطار من السياسة العامة للدولة أو المجتمع، وبما لا يتعارض مع الظروف العالمية والأممية الجديدة خاصة منها الشرعية الدولية والعولمة ومنظمة الجات... إلخ »[٣](*) .

ومن خلال التعريفين السابقين للتنمية بصفة عامة وللتنمية فى المجتمعات البدوية أو الصحراوية بصفة خاصة تتضح لنا مجموعة من الحقائق التى يلزم إبرازها وعلى الوجه التالى :

١ - أن البرامج التنموية البدوية خاصة فى نمطهاالصحراوى هى : «عمليات تغيير اجتماعى مقصود تتأثر بظروف البدو وتراثهم الثقافى والحضارى والنظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع البدوى كقطاع، وفى غيره من بقية قطاعات المجتمع ككل، وذلك مع مراعاة النظم والسياسات والبرامج التنموية الاجتماعية والحضارية والاقتصادية العالمية وخاصة ما اتصل منها بنظم « الخصخصة والجات وحقول الإنسان والشرعية الدولية والعولمة » وما إليها.

(*) نعنى بمنظمة « الجات GATT مجموعة الاتفاقيات الدولية العامة للتجارة والتعريفات الجمركية ، واشتراطات الجودة ISO، فضلا عن تحرير التجارة الدولية .

٢ - تتأكد أهمية استخدام التخطيط فى حدود الموارد الحالية والمحتملة، وكذلك الحاجات المتنوعة للمجتمع البدوى فى الحال وكذلك فى المستقبل، وفى حدود السياسة التنموية العامة للمجتمع ككل.

٣ - يربط التعريفان ما بين ميادين ومجالات وبرامج تنموية كثيرة، لأن الموارد والحاجات والبرامج يمكن أن تتنوع فتكون موارد وحاجات اقتصادية وتكنولوچية واجتماعية وترويحية ونفسية وصحية ودينية وثقافية وحضارية... إلخ[٤].

٤ - تتأكد أهمية دور كل من الحكومة والبدو - القطاع الرسمى أو قطاع الأعمال العام أو القطاع الخاص - والمؤسسات التابعة للدولة أو ذات الصفة الشعبية أو المدنية الأخرى، مع التأكيد على أهمية التنسيق بين كل منها من خلال برامج وعمليات التنمية المختلفة حتى تتكامل كل البرامج التنموية، فى القطاعين العام والخاص، حتى يتحقق الهدف التنموى وخصوصا فى ظل عجز القطاعات البدوية الشعبية غير القادرة - فى معظمها - على الاستثمار فى مجال إنماء المجتمعات البدوية وخصوصا النمط الصحراوى منها، فضلا عن العجز الواضح لتلك المجتمعات عن تحمل عبء إشباع جانب كبير من احتياجاتها، وخاصة فى الدول الفقيرة، أو ما كان يعرف بدول العالم الثالث أو المتخلف أو النامى [٥].

★ ★ ★

المبحث الثالث:

عناصر التنمية البدوية:

لتنمية المجتمعات البدوية جانبان لا يمكن الفصل بينهما، أو تجاهل أيهما أو التركيز عليه دون الآخر، والجانب الأول منهما بشرى « البنية الفوقية»، ونعنى به البدو بكل ما ينظم حياتهم من عادات وأعراف وموروثات شعبية وقيم وقوانين ونظم وحضارة ونماذج سلوك، أما الجانب الثانى فهو جانب مادى « البنية التحتية »، ونعنى به المناخ الطبيعى والاقتصادى والجغرافى والبيئى والتكنولوچى الذى يغلف حياة البدو ويقوِّى أو يضعف من سيطرتهم على مقدرات حياتهم (*).

ولما كان امتزاج كل من الجانبين البشرى والمادى فى حياة المجتمعات عموما بما فى ذلك المجتمعات البدوية، شيئا من نواميس الحياة وبحيث يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به، ولهذا كان من الطبيعى بل ومن الواجب أيضًا أن ترتكز العملية التنموية للمجتمعات البدوية على كل من الجانبين معا، وإلا أدى التركيز على أيهما دون الآخر، إلى حدوث هزات قد يكون من نتيجتها تعميق ذلك التخلف الذى هو فى الواقع سمة أساسية للمجتمعات البدوية وخاصة فى ظل المجتمعات ذات الاقتصاديات الأحادية أو التقليدية.

إذن فالبدو.. الناس والطبيعة - أو الصحراء بما تضمه من عناصر ومواد - يشكلان معا بنية المجتمع البدوى، ومجرد الفصل بينهما، ولو من خلال العمليات والبرامج التنموية، يُحدث تصدعا وتهتكا ليس فقط فى بناء ونسيج المجتمع البدوى وحده ولكن يتداعى له كذلك تماسك بنيان المجتمع القومى كله ويصبح معرضا لانهيار مؤكد وإن طال الزمن (**).

★ ★ ★

(*) نعنى بذلك ضرورة أن تتم البرامج التنموية سواء فى ذلك برامج ومشروعات قطاع الأعمال العام أو الخاص «الخصخصة» وفقا للبنية الفوقية والتحتية لكل مجتمع بدوى أو عشائرى مع ضرورة تحقيق التنسيق والتكامل بين البنيتين ضمانا لنجاح تلك الخطط والبرامج والمشروعات التنموية.

(**) من أوضح الأمثلة على ذلك ، الانهيار الذى أصاب دول الاتحاد السوفيتى السابق وما دار فى فلكه من أمم كانت تعرف بدول المعسكر الشرقى فى نهاية العقد الثامن وبداية العقد التاسع من القرن الماضى .

المبحث الرابع:

ترابط الأهداف الاجتماعيـــة والاقتصاديـــة في ظل البرامج التنموية في المجتمعات البدوية:

إذن لابد أن تضع البرامج التنموية فى اعتبارها إحداث تغيرات محسوبة فى البنيان الاقتصادى للمجتمع البدوى « البنية التحتية » وكذلك بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والثقافية... إلخ. « البنية الفوقية » السائدة فيه، وبحيث يكون هناك نمو متوازن ومطرد بين تكوين رأس المال المادى ورأس المال البشرى، وخاصة بالنسبة للمجتمع البدوى ذى الاقتصاد التقليدى والذى طال حرمانه سواء بفعل الاستعمار، أم الاستغلال أو غيرهما من الظروف والعوامل السلبية.

ونعتقد أن ذلك من أولى مسئوليات التخطيط التنموى الذى يجب أن يكون شاملا لكل الأهداف المجتمعية - اقتصادية كانت أم اجتماعية - وبحيث يوجد بينها فى ترابط وتكامل وتناسق دائم لأنه من الواضح والمسلم به معا أن المجتمع - أى مجتمع بما فى ذلك المجتمع البدوى - تترابط احتياجاته ونشاطاته المتعددة وتتداخل، وبحيث يعتمد أى تقدم اجتماعى على مدى القدرة الاقتصادية التى يمكن أن يوفرها المجتمع، والتى يرتبط كذلك تحقيقها هى الأخرى بمدى الخدمات الاجتماعية والثقافية التى يوفرها المجتمع لأعضائه، وذلك لأن العوامل غير الاقتصادية كالدين والثقافة والرقى الحضارى والعادات والتقاليد وغيرها من الموروثات الشعبية، وكذلك الانتماءات المختلفة فضلا عن الجوانب الصحية، تلعب كلها دورا كبيرا فى نجاح أو فشل أى برنامج تنموى لم يخطط له كما ينبغى أو كما يجب.

وعليه ليس ممكنا أن يتوافر تخطيط اقتصادى شامل لأى مجتمع، بما فى ذلك المجتمع البدوى، بغير أن يأخذ ذلك التخطيط في اعتباره موقف القوى البشرية بقيمها وعاداتها وتقاليدها الموروثة، ومهاراتها وتخصصاتها وسلوكياتها الخاصة وثقافتها وخبراتها وتصوراتها المختلفة سواء بالنسبة للبرامج التنموية أم لغيرها، وبحيث يشكل الإعداد العلمى والفنى والمهارى والمهنى للقوى البشرية هدفا أساسيا

للخطط والبرامج التنموية فى المجتمعات البدوية وفى غيرها من المجتمعات المدنية ريفية كانت أم حضرية، على أن يأخذ ذلك الإعداد فى اعتباره الجوانب الدينية والثقافية والاجتماعية، حتى تكون كل هذه العوامل مجتمعة هى الأساس الأول فى عمليات تدعيم البنيان الاجتماعى والاقتصادى لكل قطاعات المجتمع، وخاصة منه القطاع البدوى (٦).

وخلاصة ما يجب مراعاته أو الحرص عليه فى هذا المجال هو الضرورة الملحة لأن يتم التقدم الاقتصادى « التنمية الاقتصادية »، فى إطار من القيم والسلوك والأنماط والثقافات والخبرات الاجتماعية الموروثة للبدو، مع ضرورة تعديل أو تغيير بعض هذه السلوكيات والأنماط والقيم والتصورات إذا استدعى أو تطلب الأمر ذلك، وبناء على خطة تنموية واضحة ومرسومة ومحددة «التنمية الاجتماعية» وبحيث يحدث ذلك التمازج أو التلاحم بين جانبى التنمية الاقتصادى منه والاجتماعى فى إطار من التغيير الواعى المخطط والمقصود (٧).

★ ★ ★

المبحث الخامس :

وظائف علم الاجتماع البدوى فى المجالات التنموية :

بعد كل الذى قلناه عن تنمية وتحديث المجتمعات البدوية نعود لنؤكد أن لعلم الاجتماع البدوى فى رأينا وظيفتين رئيستين :

أولاهما : باعتباره أحد علوم الاجتماع الخاصة، إذ عليه أن يهتم أو يُركز على دراسة ظاهرة البداوة وعلى النحو السابق لنا توضيحه عند تعريفنا لعلم الاجتماع البدوى.

أما الثانية: فباعتباره أحد العلوم التطبيقية التى لا تكتفى بإبراز المعلومات النظرية فقط، وإنما عليها أيضا أن تساهم فى تطبيق هذه المعلومات واستثمارها استثمارا يحقق الغرض أو الهدف التنموى منها، ومن هنا كان على علم الاجتماع البدوى أن يستثمر المعلومات الى توافرت لديه عن المجتمعات البدوية بما يعود على

المجتمع البدوى بصفة خاصة وعلى المجتمع القومى بصفة عامة بالتقدم والنمو والرخاء [٨].

ويؤدى علم الاجتماع البدوى مسئوليته تلك على ثلاثة مستويات قبل وأثناء وبعد إتمام البرامج الخاصة بالعمليات التنموية التى تمارس دورها فى القطاعات أو المجتمعات البدوية [٩].

وعلى كل كان لنا حديث طويل عن تنمية المجتمعات الصحراوية مع الكتاب الثالث من هذه المجموعة، وهو « علم الاجتماع الصحراوى » السابق الإشارة إليه [١٠].

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ص ٩٧ – ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٩٨ – ١٠٠ .

(٣) للاستزادة انظر – الدكتور صلاح الفوال – مستقبل علم الاجتماع – دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة ٢٠٠١ .

(٤) للاستزادة انظر – الدكتور صلاح الفوال – الخدمة الاجتماعية والميثاق – مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة – ١٩٦٣ .

(٥) أنظر : دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع البدوى – مصدر سابق ، ص ٩٩ .

(٦) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٧) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٨) انظر كتابنا – علم الاجتماع البدوى – الطبعة الأولى – مرجع سابق ، ص ص ٩٨ – ١٠١ .

(٩) للاستزادة انظر دكتور صلاح الفوال – دراسة علم الاجتماع البدوى – مرجع سابق ، ص ص ١٨٩-١٩٧.

(١٠) انظر – دكتور صلاح الفوال – علم الاجتماع الصحراوى – مصدر سابق – فى فقرات كثيرة منه.

★ ★ ★

الفصل السابع

التوطين ومهامه فى المجتمعات البدوية

- مقدمة .
- ما التوطين ؟
- مهام التوطين .
- مجالات التوطين .
- أنماط التوطين .
- حول الصلة بين التنمية والتوطين .
- تأثيرات علم الاجتماع البدوى على التوطين .

أشكال التوطين ومهامه فى المجتمعات البدوية

مقدمة :

ارتبط موضوع التوطين بطريقة أو بأخرى بالبادية، وعلى الأخص البادية العربية، وبحيث أصبح الحديث عن أيهما مدعاة للحديث عن الآخر.

وعلى كل حال.. لقد كان لنا مع البداوة العربية والتوطين حديث طال على امتداد مؤلفاتنا السابقة عن البداوة وعن التنمية وعن دراسة علم الاجتماع البدوى، ونرجو القارئ الكريم أن يعود لأى منها إن شاء إطالة حول موضوع التوطين.

ولو أن ما نحب أن نؤكده هنا، هو أن التوطين يشكل مع التنمية أحدى الظواهر التى يهتم بها علم الاجتماع البدوى، وخاصة أن التوطين بالذات عرفته قبائل بدوية كثيرة ولجأت إليه طواعية، الأمر الذى استتبعه حدوث العديد من التحولات أو التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية سواء بالنسبة للجماعات المتوطنة أم بالنسبة للبناء الاجتماعى للمجتمع البدوى كله (*).

★ ★ ★

(*) ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، التحولات الهائلة والتغيرات العمرانية التى لحقت بالمجتمعات الخليجية العربية وغيرها نتيجة لظهور البترول والغاز الطبيعى وغيرهما من الثروات الطبيعية ، وما استتبع ذلك كله من عمران أطلقنا عليه خلال كتابنا « البداوة العربية والتنمية» مصطلح « عمران البترول ، وكان ذلك عام ١٩٦٧ .

المبحث الأول:
ما التوطين؟

عرف « كلايد ميتشيل Clyde Mitchell » استيطان البدو Detribalization أو توطنهم بأنه : « التغير العام من معايير السلوك القبلية إلى المعايير الغربية[1] (*).

ويبدو أن « ميتشيل » قد غالى كثيرا فى الاعتماد على المعايير الغربية وخاصة السلوكية منها، وبإصراره على أن تلك المعايير هى وحدها الأساس أو المعيار المقبول أو الوحيد للتغيير، وذلك لأن التحول عن معايير السلوك المجتمعية وما يرتبط بها من قيم أمر بالغ الصعوبة، وأن إمكانية تحقيق ذلك التحول عن تلك السلوكيات يتطلب جهدا كبيرا وزمنا طويلا حتى داخل الشريحة الواحدة خلال البناء المجتمعى الواحد، لأن عملية التحول من سلوكيات الطبقة الدنيا إلى سلوكيات تماثل سلوكيات الطبقة العليا داخل أى مجتمع أو العكس - على سبيل المثال - أو التحول كذلك من النمط القروى إلى النمط الحضرى من تلك السلوكيات، أو التحول من النمط الريفى إلى النمط الصناعى.. كل ذلك قد يبدأ منذ الصغر ومواكبا لعملية التنشئة الاجتماعية، ويستوجب أو يستلزم حتى يتحقق، الكثير من التمهيد والإعداد [٢].

وإذا كانت عملية التحول عن معايير السلوك القبلية إلى المعايير الغربية أمرًا يكاد أن يكون مستحيلا على مستوى المجتمع.. فكيف يكون الحال على مستوى الفرد البدوى أو البدائى،ولقد أثبتت كثير من الدراسات العلمية أن عملية اقتناع البدوى مثلا حتى يترك سلاحه أو حتى يبدل داره أو مركبه - من الخيمة للدار المبنية أو من الجمل للسيارة مثلا - كانت عملية الإقناع تلك أمرا بالغ الصعوبة فضلا عن أنها احتاجت إلى وقت طويل فشلت خلاله وسائل تطبيع كثيرة للعلاقة بين البدوى ومعايير السلوك المتغيرة - ليس بالنسبة للمعايير الغربية وحدها بل والشرقية أيضا - حتى ولو كانت نماذج السلوك المطلوب تغييرها داخل المجتمع الواحد بقطاعاته البدوية والريفية والحضرية المختلفة والمتعددة [٣].

(*) هذا وتوجد مجموعة أخرى من التعريفات لعدد آخر من الكتاب والباحثين وخصوصا العرب منهم ويحسن لمن يريد الاستزادة أن يطلع عليها خلال أى من كتبنا المشار إليها قبلا .

إذن.. عملية التغير العامة من معايير السلوك القبلية إلى المعايير الغربية التى أصر عليها « ميتشيل Mitchell » واعتبرها شرطا أو أساسا لإحداث عملية التوطين، هذا الشرط أو الأساس يكون معيارا قد جانبه الكثير من الصواب (*).

وعلى كل حال فإن « ميتشيل Mitchell » قد أرجع استيطان البدو إلى نوعين مختلفين من العوامل والأسباب هما :

١ - سكانية.. يمكن الإشارة فيها إلى الاختلاف فى الخصائص العمرية والجنسية بين المناطق الريفية والحضرية، وتدل فى بعض الأحيان على الانتقال من المناطق القبلية إلى المناطق الحضرية (**).

٢ - اجتماعية.. مثل الاستقرار بعيدا عن مناطق الرئيس الذى يدين له الفرد بالولاء، وتمزيق أواصر الالتزامات والعلاقات مع ذلك الرئيس، والاستقلال اقتصاديا عن الأقارب الريفيين (٤).

٣ - ولكن التوطين كما نراه هو « مجموعة العمليات أو البرامج التى تتيح للجماعة البدوية الاستقرار أو التوطن فى نطاق مكانى معين، سواء ضمن أو بعيدا عن مناطقها المعروفة، وفى إطار قيمها ونظمها واحتياجاتها الأساسية ورغباتها وأنماط سلوكها، وخلال فترة زمنية محددة، وبغرض إحداث تغيير مقصود سواء فى أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية القائمة أم فى أنماط السلوك والعلاقات البدوية السائدة، وعلى ضوء خطط وبرامج تنموية واضحة - محلية كانت أم اقليمية أم قومية - ومدروسة ».

★ ★ ★

(*) عرف «ميتشيل» التحضر بأنه: « عملية التحول إلى حضر ، والانتقال إلى المدن ، والتحول من الزراعة إلى غيرها من المهن الشائعة فى المدن ، وما يرتبط بذلك من تغير فى الأنماط السلوكية » .

(**) فى الحقيقة لا ندرى لماذا يصر «ميتشيل» على المعايير الغربية . ونحن نعتقد أن التحول فى القيم ومعايير السلوك أمر بالغ الصعوبة كما أوضحنا فى المتن .

المبحث الثانى:

مهام التوطين:

للتوطين عدة مهام رئيسة لعل من أبرزها على الإطلاق تحقيق تحول الجماعة البدوية عن الترحال بمختلف أشكاله وصوره وأنماطه وسلوكياته، وبما يصاحب هذا التحول من تغير فى الأنماط الثقافية والسلوكية البدوية، وبما يستتبعه كل ذلك من تأثيرات على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحضارية.

وللتوطين إلى جانب الوظيفة السابقة عدة مهام أخرى منها ما هو قومى أو أمنى أو سياسى، ومنها ما هو اقتصادى، ومنها ما هو اجتماعى أو ثقافى، وأخيرا منها ما هو حضارى أو عسكرى أو دفاعى، وذلك على النحو الآتى (٥) (*).

(*) من النوادر الطريفة أن المؤلف كان مشاركا فى أحد المؤتمرات - ضمن وفد مصر - التى انعقدت بالعريش حول البداوة والبدو فى مصر والعالم العربى عام ١٩٦٤ وكان فى صحبة المرحوم الأستاذ محمد نادر لطفى مدير عام الشئون الاجتماعية بسيناء فى ذلك الوقت ، وتوجه الوفد برئاسة المرحوم اللواء محمد عبد المنعم القرمانى محافظ سيناء الأسبق لتوزيع الهبات بقرى نخل بجنوب سيناء «الطور وأبو زنيمة»، وعند توزيع المعونة على أحد المستفيدين وكان شيخًا طاعنا فى السن .. فكان رد فعله العفوى أن: «يحيا جلالة الملك عبد الله المفدى»، والملاحظ حول هذا الانفعال التلقائى أو العفوى الذى جاء نتيجة للحصول على معونة مادية وعينية من الدولة أو الحكومة المصرية ، كان رد الفعل ذلك يعنى أن :

- ذلك البدوى هتف للملك عبد الله مع العلم بأنه توفى من زمن وورث العرش آنذاك حفيده الراحل الملك حسين بن طلال بعد إعتزال والده الملك طلال بن عبد الله من زمن غير قصير . وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على عدم إحساس البدوى بالزمان الذى يعيش أو يحيا فيه .
- ذلك البدوى لم يعرف أنه داخل الوطن المصرى أو أنه مواطن مصرى أيضًا ، وذلك يؤكد أن ولاء البدوى وانتمائه ليس للمكان ولا للزمان الذى يعيش فيه ، وإنما هو للقبيلة التى ينتسب إليها مهما كانت الأرض التى يحيا فيها .
- إذن لا تقدير عند البدوى للزمان ولا ولاء عنده للمكان ولا اعتراف لديه بالحدود الإقليمية بين الدول، بدليل أن ذلك البدوى هتف بحياة ملك الأردن ولم يُدرك أنه فى مصر وليس الأردن . وحتى وهو يهتف باسم الملك كان يهتف لملك راحل منذ زمن . وحتى لو كان الملك عبد الله مازال على قيد الحياة فإن المكان غير المكان. وحدث كل ذلك لأن هذا البدوى العجوز كان من قبيلة توزعت عشائرها نتيجة للعدوان الاسرائيلى الاستيطانى على فلسطين المجاهدة.

المهام القومية والسياسية للتوطين:

لو أخذنا المجتمع البدوى العربى كمثال، لتبين لنا من خلاله أن توطين البدو قد صار اليوم ضرورة قومية ملحة، وخصوصا بعد تبلور الأفكار الوطنية والقومية فى الوطن العربى. حيث إن البدوى بطبيعته يدين بالولاء لقبيلته أولا وبصرف النظر عن الدولة أو حدود المجتمع الذى يعيش فيه (*).

هذا فضلا عن أن التوطين سيُمكِّن من إدماج البدو فى المجتمع ككل دون ارتباط أول وأخير بالقبيلة، وهذا يؤدى بالتالى إلى اختفاء النعرات القبلية والعصبية، ويؤدى فى ذات الوقت إلى تقوية الوحدة الوطنية والقومية (٦).

المهام الاقتصادية للتوطين:

كل دولة فى سعيها للتنمية فى إطار مواردها وقدراتها الاقتصادية والبشرية، ترتكز على التخطيط التنموى، ولاشك أن طبيعة البداوة وما تستلزمه من تنقل وعدم استقرار، تقلل من كفاءة الخطة التنموية الموضوعة من جهة، وتجعل البدو خارج هذه الخطة فى كثير من الأحيان من جهة أخرى، وتوطين البدو سيجعلهم عنصرا هاما ضمن عناصر الخطة التنموية المحلية والوطنية والقومية.

المهام الاجتماعية والثقافية للتوطين:

النظام القبلى بما له من قيم وسلوكيات خاصة يخضع البدوى لإجراءات معينة تتعلق بالمدافعة والقضاء والغزو والسلب.. إلخ، وهذه كلها أمور تباعد بين البدوى وبين الإحساس بالأمن والطمأنينة، حيث إنه على كل بدوى فى حد ذاته وفى نطاق عائلته وعشيرته وقبيلته أن يكون مستعدا للحرب إما عاديا أو مدافعا.

والتوطين يحد من شوكة هذه النظم ويخضع البدو كلهم لإجراءات أمنية موحدة وطرق تعامل وسلوكيات جديدة، ويضمن لهم وجود خدمات ومؤسسات توفر

(*) نحن نتمنى السلامة وطول العمر للملك الأردنى الشاب عبد الله الثانى، كما نرجو لبلده الأردن العريق والشعب والأردنى العربى الشقيق كل تقدم وازدهار .

لهم مختلف احتياجاتهم وتمنحهم إياها بغير قتال أو عناء، وتكون النتيجة فى النهاية مجتمعا متماسكا ومتساويا عادة فى الحقوق والواجبات (٧).

المهام الأمنية العسكرية والدفاعية للتوطين:

التوطين معناه التعمير (*) بما فيه من استقرار وتوطن للبدو فى الصحراء الخالية، مع ما يستلزمه هذا التوطن من إنشاء شبكات للمواصلات والخدمات على اختلاف صورها لتربط أماكن التوطين المختلفة بنفسها أو بغيرها من المراكز الحضارية للدولة، وهذا كله يؤدى إلى حركة دائبة ومنظمة على الحدود وداخل الصحراء، الأمر الذى يجعل سلطة الدولة على صحراواتها أقوى من جهة، ويزيد من جهة أخرى كفاءة هذه الصحراوات لتكون خط الدفاع الأول للوطن كله عند الضرورة (٨) (**).

(*) مازلنا نتحدث فى نطاق البداوة العربية ، ولقد تأكدت أهمية التعمير - الذى هو بغير شك نتاج مباشر لكل من التنمية والتوطين - لصحراء سيناء مثلا أثناء عدوان ١٩٦٧ ، وبعد حرب رمضان التحريرية فى أكتوبر عام ١٩٧٣ ، على اعتبار أن تعمير سيناء وغيرها من الصحراوات المصرية والعربية لن تقتصر فوائده على المجالات الاقتصادية أو الاجتماعية فقط ، وإنما سوف تمتد أيضا لتخدم الأهداف القومية - إستراتيجية كانت أم عسكرية أم أمنية - للمجتمع العام ككل خصوصا فى مواجهة تحديات وأطماع كثيرة لا تزال تكبل أو تواجه الوطن العربى وتهدد كيانه ومستقبله . ولعل من أول تلك الأطماع الاحتلال الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين إلى جانب مختلف صور الهيمنة التى يمارسها ما يسمى بالنظام العالمى الجديد ضد عدد من الشعوب العربية والمستترة تحت شعار - ودعاوى الشرعية الدولية إلا أنه - أى ذلك النظام العالمى الجديد - يكيل بمكيالين المر منه للعرب والشهد لإسرائيل .

(**) من أبرز الأمثلة التاريخية القديمة على هذا النوع من التوطين ما قام به سيتى الأول الفرعون المصرى العظيم والقديم فى بداية سنوات حكمه وخلال سعيه لاستعادة الإمبراطورية الآسيوية عندما اهتم بصيانة وحراسة الطريق الحربى الذى كان يشق صحراء سيناء الموحشة . وذلك بإنشاء نقط للأمن . وحفر الآبار التى وضعها تحت الحراسة ، وشيد الملك سيتى عند كل بئر أو مورد ماء على طول الطريق ، قلعة محصنة « مجدل » تقيم فيها حامية صغيرة ، ويستدل من أسماء تلك الواحات الصغيرة المنتشرة فى الصحراء بأنها أعمال حديثة التشييد ، أو على الأقل حديثة التنظيم ، وهذه الأسماء هى « مجدل سيتى الأول » و « بئر سيتى مرنبتاح » ، والمدينة التى أعاد جلالته تشييدها عند بئر « هبرت » ، وإن كان يستدل أيضا من الأسماء الآسيوية أن بعض تلك الواحات كانت موجودة من قبل ولكن أعيد تعميرها وتنظيمها .

المهم أن ما قام به سيتى الأول من تعمير للآبار القديمة أو إنشاء المزيد منها مكنه فى النهاية من استعادة سيطرته على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية المصرية فى آسيا آنذاك . للاستزادة انظر - جون ولسون - الحضارة المصرية - ترجمة د . أحمد فخرى - مكتبة مصر - القاهرة - ١٩٥٥ ص ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

مهام أخرى للتوطين :

للتوطين فى إطار البرامج التنموية للصحارى، عدة مهام أخرى، و لعل من أبرز تلك المهام على الإطلاق، ضرورة للمجتمعات الحديثة أو المعاصرة ما يأتى :

١ - إن التوطين خاصة المرتكز أو المعتمد منه على أسلوب التهجير، يمكن أن يساهم كثيرًا فى حل مشكلة تزايد السكان أو فى خطط إعادة توزيعهم على الخريطة السكانية والجغرافية للمجتمع بما يحقق إيجاد نوع من التوازن المطلوب بين حجم الموارد المتاحة وحجم السكان الحالى والمستقبلى.

٢ - إن المجتمعات المستحدثة التى تنشأ نتيجة لتوطن أو توطين البدو فى مناطق جديدة، هذه المجتمعات يمكن أن تساهم فى حل مشكلة الغذاء خصوصا فى ظل استصلاح الأراضى وتنظيم طرق الرى والصرف فيها واستنبات أو استزراع حاصلات جديدة، فضلا عن تنظيم طرق تربية الحيوانات المناسبة، علاوة على ما يستتبع ذلك كله من صناعات كبيرة أو صغيرة، ولاسيما الصناعات البيئية والتحويلية منها.

٣ - المجتمعات الناشئة عن عمليات التوطن أو التوطين يمكنها فى إطار التخطيط التنموى الجيد، وفى ظل دور قوى للقطاع الخاص فضلا عن الدعم الحكومى، يمكنها أن توفر فرصا أفضل للحياة سواء بالنسبة للمجتمع البدوى ككل أم بالنسبة للأفراد.. فبالنسبة للمجتمع.. فلا شك أن إقامة مجتمعات جديدة سوف تمكن من تهيئة فرص أفضل بالنسبة للخدمات والرعاية الاجتماعية، أما بالنسبة للأفراد فسوف تتاح لهم العديد من الفرص الملائمة للعمل سواء فى مجالات الزراعة أم الصناعة أم أعمال الخدمات المصاحبة للبرامج التنموية، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك فى جمهورية مصر العربية « مشروع توشكى » فى جنوب مصر، ومشروع « شرق العوينات » فى الشمال الشرقى لمصر « سيناء » وغيرهما من المدن الجديدة المنتشرة عبر أرجاء مصر.

هذا ولابد لبرامج التوطين - أو إعادة الإسكان - وحتى يحقق التوطين مختلف مهامه، لابد من التركيز على جانبين هامين أولهما جانب مادى وثانيهما جانب معنوى أو نفسى، حيث يتضمن الجانب المادى تغيير مختلف نظم الحياة الاقتصادية البدوية، بما فى ذلك أساليب البدو فى تكسب أرزاقهم، مع تغيير مساكنهم التقليدية وطرق انتقالاتهم، فضلا عن تعديل سلوكياتهم سواء فى الإنتاج أم الاستهلاك... إلخ.

أما الجانب النفسى فإننا نعنى به عملية تكيف البدوى نفسيا وحضاريا لإقامة علاقات جديدة تختلف بالضرورة اختلافا كبيرا عن قيمه وعلاقاته وعاداته الاجتماعية وسلوكياته السابقة التى ورثها أو اكتسبها فى ظل مناخ البداوة [٩].

★ ★ ★

المبحث الثالث:

المجالات المختلفة للتوطين:

ترتبط مجالات التوطين أولا وأخيرا بالإمكانيات المادية والبشرية المتاحة من جهة، وترتبط من جهة أخرى بمختلف العوامل التى مكنت للبداوة من أن تكون هى الظاهرة الأعم والأوضح فى المجتمعات البدوية العشائرية، ومن هذه المجالات ما هو تقليدى كالصيد والرعى والزراعة البعلية، وتربية الحيوان... إلخ.

ومنها ما هو مستحدث كمجالات التصنيع والتعدين والبترول والسياحة والاستشفاء والمؤتمرات... إلخ.

المهم أن كل مجتمع بدوى - وخاصة الصحراوى منه - يرتكز وهو يخطط لعمليات وبرامج توطينه أو تنميته، يعتمد على طبيعة المناشط الاقتصادية ومختلف الظروف الاجتماعية السائدة فيه، وذلك وفقا للتصورات الآتية :

أولا - المجال الرعوى:

البدوى - الصحراوى - أساسا يسعى إلى المياه والمرعى أو الكلأ أينما وجدا، ويمكن استغلال هذا الحافز لديه، عن طريق إنشاء مراع وفقا لتخطيط علمى فى المناطق التى تتوافر فيها مصادر المياه، وبالتالى محاولة توطين البدو حول هذه المراعى ومدهم بأنواع أخرى جديدة من الحيوانات علاوة على ما ألفوه منها.

ومن هنا يمكن زيادة ثرواتهم الحيوانية (*) مع ما يستتبع ذلك من إقامة بعض صناعات منتجات الألبان وغيرها من الصناعات التحويلية كغزل الصوف وتعليب اللحوم وصناعة الجلود وتجفيف الفاكهة والخضروات، هذا فضلا عن توفير مختلف الخدمات والمرافق اللازمة لهم.

ثانيًا - المجــال الزراعـــى :

ويتم ذلك عن طريق اختيار الأماكن الصالحة للزراعة ومحاولة توطين عدد من الأسر البدوية فيها مباشرة، أو عن طريق إنشاء مزارع حكومية للفت نظر البدو ووضعهم مباشرة أمام تجربة ناجحة للاستقرار مع توفير السدود والبذور والآلات المستخدمة فى الزراعة، علاوة على حفر الآبار.

بالاختصار توفير كل ما من شأنه إنجاح عملية التوطين، مع عدم إغفال مختلف الظروف القبلية ومحاولة توطين كل أسرة فى نطاق قبيلتها وموالاة الأسر الموطَّنة بمختلف صور الرعاية ضمانا لنجاح عملية التوطين ذاتها (**).

(*) لأن الحيوان الراعى يلعب دورا مهما فى حياة البدو ، ويكفى أن نعلم أن من الحيوان الراعى يكتسب البدوى - الصحراوى بالذات - مكانته الاجتماعية ، ومنه أيضا يدفع المهر وتقبل الدية ، وهو العملة المقبولة كذلك عند المقايضة .. إلخ ، لأن الحيوان الراعى هو محل الفخر وسبب التكريم ومصدر الأدوار المبرزة والجاه . والحيوان الراعى أيضا مقبول لأداء القرابين والنذور وسبيل الكرم البدوى المعروف خاصة فى البوادى العربية . فضلا عن أن الحيوان - خاصة الجمل والحصان والرنة والكلب وغيرها - هو المركب المأمون والسهل للبدوى حتى فى الصحراوات الجليدية أيضًا .

(**) يلزم بالضرورة فى هذا المجال إقامة بعض المشروعات الصغيرة المعتمدة على الزراعة ومنتجاتها وعلى النحو الذى شرحناه فى الفقرة السابقة الخاصة بالمجال الرعوى .

ثالثا - المجال الصناعى:

الاكتشافات البترولية، كذلك اكتشاف ما فى باطن الأرض من معادن مختلفة فى قلب البوادى، وما يرتبط بها من صناعات يمكن أن تعتبر أساسا صالحا للتوطين، علاوة على ما يصاحب تلك المشروعات الصناعية من خدمات متنوعة، كل ذلك يمكن أن يشكل منطقة جذب للبدو، وبالتالى يتيح مجالا خصبا لتوطينهم حول أو بالقرب من تلك المشروعات مع ما يستتبع ذلك من محاولة تشغيل أعداد منهم فى بعض ما يناسبهم من أعمال، علاوة على ما يتيحه الاستقرار حول تلك المراكز الصناعية من علاقات وتأثيرات منوعة.

رابعًا - مجال الصيد:

البحر يعد هو الآخر مجالا طيبا للتوطين، وخصوصا بعد أن احترفت بعض الأسر البدوية الصيد - كما هو الحال فى سيناء المصرية وبعض الدول الخليجية والعربية - وعاشت بصفة شبه دائمة على شاطئ البحر واعتمدت عليه كمصدر مباشر لكسب الرزق، علاوة على ما تقوم به تلك الأسر والعشائر البدوية فى الخريف من نصب الشباك لصيد « السمان » المهاجر.

ومن هذا المنطلق يعد الصيد مجالا هاما من مجالات التوطين عن طريق تنظيم عملية صيد الأسماك - بالذات - ومد البدو بمراكب صيد حديثة وتيسير انضمامهم إلى جمعيات تعاونية تقوم بمهام التسويق والتخزين والتمويل، وتعين البدو أو تزوِّدهم بالخبرة اللازمة للصيد، وكذلك بالآلات والأدوات الحديثة خاصة ما اتصل منها بالصيانة والتشغيل.

خامسًا - المجال السياحى:

سواء كانت السياحة سياحة شواطئ بالنسبة للمجتمعات البدوية التى تطل على البحار أو البحيرات أو المحيطات، أو كانت تضم مزارات دينية، أو آثارا قديمة أو طبيعة خلابة للاستمتاع بالمشاهدة أو للتفكر فى خلق الله سبحانه وتعالى،

أو لممارسة الرياضة كالغوص، أو كانت السياحة للاستشفاء أو لحضور المؤتمرات أو المهرجانات المختلفة على سبيل المثال.

وهناك عدد غير قليل من المجتمعات البدوية العربية يمتلك عاملا أو أكثر من عوامل الجذب السياحى هذه، وخاصة ما يطل منها على البحر الأبيض أو البحر الأحمر أو البحيرات المالحة أو الحلوة، أو العيون المعدنية الحار منها والبارد أو تملك ساحلا على الخليج العربى أو المحيط، إلا أن سيناء المصرية تمتلك كل هذه العوامل مجتمعة، الأمر الذى جعل السياحة مجال استثمار هام وحيوى ليس من أجل نمو المجتمع البدوى الصحراوى فى سيناء فقط، وإنما بالنسبة لمصر باعتبارها الوطن الأم - كذلك.

وأدت هذه الامكانات المتوافرة فى كنف الصحراوات المصرية المطلة على البحرين الأبيض والأحمر، أدت إلى تدفق استثمارات سياحية بلغت ملايين الدولارات، وفتحت الباب أمام شباب البدو وغيرهم من شباب مصر والعالم العربى للعمل وللحياة الكريمة.

لكن الذى يهمنا فى هذا المجال هو أن هذه المشروعات السياحية أيا كان حجمها أو طبيعتها كانت - شأنها شأن المشروعات الصناعية - عامل جذب للبدو الرحل أغراهم على الاستقرار والتوطن وما يستتبع ذلك الاستقرار من اكتساب عادات وسلوكيات لم تكن مألوفة، ومعظمها إن لم يكن كلها فى صالح عملية التوطين والتغيير بدعم من عشرات البرامج التنموية المختلفة.

★ ★ ★

المبحث الرابع:

الأنماط المختلفة للتوطين:

مقدمة:

للتوطين عدة أنماط، وعلى كل مجتمع أن يختار من الأساليب ما يتواءم وظروفه المختلفة، ولكننا نجد أن أكثر أنماط التوطين انتشارا فى التاريخ هو التوطين الإجبارى أو القسرى، وتتم خلاله مختلف عمليات التوطين عن طريق الإكراه سواء كان ذلك الإكراه بفعل السلطة أم بفعل الطبيعة، وعلى الجانب الآخر يوجد التوطين الاختيارى أو الطوعى وهو يرتكز أولا وأخيرا على رغبة الجماعة البدوية فى التوطن والاستقرار.

والتوطين فى كلتا الحالتين «الجبرى والاختيارى» قد يكون توطينا مخططا ومدروسا ويهدف إلى تحقيق أغراض محددة سلفا ضمن خطة تنموية متفق عليها.

وإما أن يكون التوطين تلقائيا معتمدا على الرغبة الذاتية فى الاستقرار، أو نتيجة لظروف قهرية لم تعط فرصة سواء للجماعة البدوية أو للسلطة حتى تخطط أو تستعد بالقدر اللازم كما فى حالات السيول والزلازل وغيرها من الكوارث الطبيعية المباغتة والجماعية [١٠].

وعلى كل سوف نتعرض هنا لبعض أنماط التوطين من خلال ما يأتى :

١ - التوطين الإجبارى أو القسرى:

بمعنى إكراه البدو على الاستيطان، سواء أكان الجبر أو الإكراه هنا بفعل السلطة أم بفعل الظروف التى ترجع للطبيعة والتى ليس من السهل السيطرة عليها.

ويتم النمط الأول من هذا التوطين - الذى هو بفعل السلطة أو جهة الإدارة المحلية - يتم عادة بإصدار الأوامر لمجموعة من البدو حتى يستقروا فى بقعة ما، ولا يدخل فى الاعتبار أن يكون هؤلاء المواطنون من عشيرة واحدة أو من عدة عشائر،

ويعيش أولئك البدو فى تجمعات على هيئة معسكرات فى الأراضى المنزرعة أو فى غيرها (*).

أما النمط الثانى من ذلك التوطين، الذى هو بفعل الظروف البيئية أو الطبيعية، فيتم نتيجة لبعض الكوارث الطبيعية كالجفاف أو السيول أو الزلازل أو غيرها، والتى قد تلحق بعشيرة ما أو بمجموعة من العشائر، وتضطر السلطات إلى توطين أولئك البدو دون دراسة مسبقة أو بغير تخطيط وبأساليب غالبا ما تكون غير علمية، ويبقى الهدف أو الغرض منها هو إنقاذ ما يمكن إنقاذه ولو على الأقل حتى تتغير أو تزول الظروف الطبيعية أو البيئية التى أكرهت البدو على ترك مسارحهم الأصلية أو النزوح عنها.

٢ - التوطين الاختيارى أو الطوعى:

ويطلق على هذا النمط فى كثير من الأحيان. التوطين الإرادى أو التوطين الحر، أى هو ذلك التوطين الذى يتم دون إجبار أو ضغط من أى نوع كان، بمعنى أنه - أى التوطين - قد تم استجابة أو تحقيقا لرغبة البدو أنفسهم فى الاستقرار والتوطن، وسعيهم نحو تحقيق تلك الرغبة بغير إكراه سوى حرصهم الإرادى أو الواعى، على التوطن والاستقرار أملاً فى تحسين أحوالهم الحياتية أو المعيشية.

٣ - التوطين الجماعى:

هذا وقد يأخذ التوطين شكلا جماعيا، بمعنى أنه قد تمنح الدولة مساحة معينة من الأرض للعشيرة كلها، وتخصص تلك الأرض للاستثمار أو للاستغلال الجماعى ولا يهم كثيرًا أن يكون التوطين فى هذا النمط قد تم وفقا لبرنامج تتموى

(*) تلعب الحرب سواء منها الداخلية بين العشائر أو القبائل بعضها وبعض، أو الخارجية بين الوطن أو المجتمع الأم وغيره من الدول .. تلعب الحرب دورا مهما بالنسبة للاستيطان أو التوطين الجبرى أو القسرى والتوطين فى حالة الحرب هذه يكون نوعا من التزوج الجماعى الذى يجبر البدو على الجلاء عن مسارحهم ومن ثم يصيرون لاجئين إلى مسارح بديلة داخل الوطن أو خارجه، وتعد البداوة الفلسطينية أوضح مثال لذلك.

مخطط ومدروس أو تم تحت ضغط أى ظرف من الظروف التى سبق أن أشرنا إليها فى الفقرة الأولى عند حديثنا عن نموذج التوطين القسرى أو الإجبارى.

٤ - التوطين الفردى أو الذاتى:

وقد يأخذ التوطين الشكل الفردى أو الذاتى، وهذا النمط من التوطين أحادى الحركة والقرار، بمعنى أن يستقر بدوى ما بنفسه أو بأسرته أو عائلته المباشرة أو عشيرته فى مكان ما بهدف التوطن والاستقرار، وفى ضوء ظروف شخصية ذاتية أو مجتمعية خاصة (*) استوجبت ذلك النمط من السلوك أو التوطن [١١].

٥ - التوطين المشترك:

ونعنى به أن يكون التوطين وليد جهد مشترك بين كل من القطاع البدوى والدولة، وهو عادة ما ينشأ نتيجة إحساس حقيقى بالرغبة فى التوطن لدى كل من البدو والحكومة. وهذا النوع من التوطين يعد مناخا مناسبا لإحداث أية تغيرات مقصودة سواء فى البنية الاجتماعية للجماعات البدوية الموطنة أم فى الهيكل الاقتصادى والاجتماعى للمجتمعات البدوية والمحلية منها أو الإقليمية - على مستوى الوطن - أو القومية ككل [١٢].

٦ - التوطين العفوى والتلقائى والتوطين المخطط المبرمج:

والتوطين فوق ذلك كله، قد يكون توطينا عفويا أوجبته ظروف ذاتية أو مجتمعية خاصة لم تسمح بالإعداد له بالشكل الذى يضمن لعملية التوطين الدوام والاستقرار، وقد يكون توطينا مخططا أو مبرمجا مهدت له دراسات متنوعة وله أهداف وغايات يسعى إلى تحقيقها ويدعمه فى كل ذلك منهج علمى ومجموعة من الخبرات، تتابع مختلف مراحله وفى إطار خطط وبرامج تنموية محددة ومقننة سلفا.

★ ★ ★

(*) كالهرب من الثأر أو الرغبة فى تحسين الظروف المعيشية أو لأنه - قد تعرض - للطرد من القبيلة عقابا على خروجه على التقاليد العشائرية المعروفة والفرعية .

المبحث الخامس :

حول طبيعة الصلة بين التنمية والتوطين :

توجد بين كل من التنمية والتوطين صلات قوية، حيث يعتبر التوطين ركيزة أساسية لكل البرامج والعمليات التنموية فى المجتمعات البدوية، لأنه بدون استقرار وإقامة البدو أو توطنهم فى مجال مكانى محدد لا يمكّن لأية خطط أو برامج تنموية بشقيها الاقتصادى والاجتماعى أن تحدث التغيير المطلوب فى سلوكيات البدو، أو فى نمط الحياة البدوية سواء فى الجانب البشرى أم المادى من ذلك النمط.

ومن هنا كانت الصلة القوية بينهما.. باعتبار أن التنمية المجتمعية منهج والتوطين أسلوب، أو بمعنى آخر، فإن التوطين هو الوعاء الذى يحتوى العملية التنموية برمتها، لأنه لا يمكن أن يتصور أن تتم العملية التنموية فى فراغ أو بغير بشر، ولذلك فإن عملية التوطين كوعاء هى التى تتيح للعملية التنموية الوطن والمواطن على حد سواء.

وخلاصة القول، أنه توجد بين التنمية والتوطين علاقات قوية وثابتة بحيث يمكننا القول أن كلا منهما سبب للآخر ونتيجة له فى ذات الوقت.

★ ★ ★

المبحث السادس :

ما تأثيرات علم الاجتماع البدوى على التوطين ؟ !

يتوقف نجاح عمليات التوطين كلية على التخطيط الجيد والمسبوق لها، ولن يتوافر ذلك التخطيط الجيد مالم تكن هناك معلومات كافية عن البدو وعن الأرض أو المسارح التى سوف يتم توطنهم فيها [١٣].

ولا شك أن تقديم مثل تلك المعلومات يعد واحدة من أوجب المهام الأساسية لعلم الاجتماع البدوى.. وذلك من خلال الدراسات « القبلية »(*) التى تجرى على

(*) يقصد بالدراسات "القبلية" تلك الدراسات الممهدة للتخطيط أو لتنفيذ مختلف البرامج التنموية ، أما الدراسات « البعدية » فتعنى كل العمليات التقيمية والتقويمية التى تجرى بعد التنفيذ لنتعرف على مدى القرب أو البعد عن شكل ومضمون البرامج التنموية المنفذة من حيث تحقيق الأهداف التى خُطط لها سلفا .

البدو قبل إعادة توطينهم، وأيضا تلك الدراسات والأبحاث «البعدية»، التى تتم بعد انتهاء عملية التوطين، وذلك إلى جانب مختلف العمليات التقويمية التى تتم أثناء عملية التنفيذ « الآنية » لضمان أن يكون التنفيذ متوافقا تماما أو متسقا مع الخطط والبرامج التنموية المتفق عليها مسبقا (١٤) .

هذا فضلا عن تقديم المعلومات التى تؤدى إلى التعرف على مختلف الظروف المحيطة بمجتمعات بدوية أو قبائلية أخرى منتشرة فى أنحاء العالم الخارجى، وكذلك التعرف على مختلف الأبحاث والدراسات والتجارب والخبرات التنموية التى اكتسبتها أو عايشتها أو مرت بها تلك المجتمعات البدوية الكونية - نسبة إلى الكون - وذلك باعتبار أن ظاهرة « البداوة ». تعد ظاهرة عالمية فضلا عن أنها تسمح بنقل أو انتقال بعض البرامج والخطط التنموية التى تمت فى مجتمعات بدوية أخرى خارجية، وما نتج عن تلك الخطط والبرامج التنموية من آثار وخبرات بعد تطويعها حتى تكون صالحة للاستفادة منها على ضوء ظروف كل مجتمع بدوى أو عشائرى على حدة.

وهذا النقل أو الانتقال للتجارب والخبرات والبرامج التنموية أمر مطلوب، ما دامت ستخضع لعملية « التطويع » - التقييم والتقويم والتعديل قبل الاختبار أو أثناء التطبيق أو بعده - وخصوصا فى ظل بروز مفاهيم وإمكانات تكنولوچية ومعلوماتية جديدة ومتطورة كالعولمة وشبكة المعلومات الدولية « الإنترنت » والتى صار من الميسور التعامل معها ومن ثم الاستفادة منها (١٥).

كما أن من أوجب مهام علم الاجتماع البدوى - كما سبق أن أوضحنا - هى مهمة تقييم وتقويم أو تصحيح مختلف عمليات وبرامج التوطين من خلال الدراسات « الآنية » التى تواكب عملية التنفيذ، أو من خلال الدراسات « البعدية » التى تجرى على البدو بعد إتمام توطنهم بالفعل حتى يمكن اكتشاف المعوقات والمشكلات أو الصعاب التى تؤثر بالسلب على إتمام الهدف النهائى لعملية التوطين (١٦).

★ ★ ★

المصادر

(١) J. Clyde Mitchell, Urbanization, Detribalization, and Stabilization in Southern Africa, A Prelem of Definition and Measurement .

(٢) انظر : جير الدين بريز - مجتمع المدينة فى البلاد النامية - ترجمة الدكتور محمد الجوهرى - دار نهضة مصر - القاهرة - ١٩٧٢ ص ص ٣١ - ٣٢

(٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ١٠٢ .

(٤) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ١٩٧ - ٢١٢.

(٥) المصدر السابق ص ص ٢٠٢ -٢٠٣ .

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٨) المصدر السابق، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٩) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(١٠) انظر دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(١١) المصدر السابق ص ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(١٢) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ١٠٦ .

(١٣) د. صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق، ص٢١٠ .

(١٤) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية - مصدر سابق - فى مواضع كثيرة منه .

(١٥) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع الصحراوى - مصدر سابق .

(١٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ١٠٦ .

★ ★ ★

الباب الثالث

المجتمعات البدوية العشائرية
موضوع دراسة علم الاجتماع البدوى

- مقدمة .
- المجتمعات البشرية فى الفكر السوسيولوجى القديم .
- نظريات سوسيولوجية قننت مسيرة المجتمعات البشرية .
- إسهامات معاصرة تفسر تطور المجتمعات البشرية .
- موقع المجتمع البدوى على خريطة تطور المجتمعات البشرية .

مقـــدمـة
حول المجتمعات البدوية العشائرية
موضوع دراسة علم الاجتماع البدوى

لقد برزت إلى الوجود وعلى امتداد الأزمنة والعصور اهتمامات متعددة للتعرف على المجتمع البشرى ومحاولة اكتشاف مغاليقه، فلقد راح الكل، الفلاسفة ورجال الدين والعلماء والباحثون، راحوا جميعا يدرسون المجتمع البشرى كل من زاويته الخاصة، واختلفت اجتهاداتهم فى ذلك كلٌّ بحسب أوانه وعصره من جهة، وحسب الثقافة المجتمعية السائدة وما توافر تحت يديه من أدوات ووسائل للبحث من جهة أخرى.

المهم أننا سنرى من خلال هذا الباب مزيجا يستحق التأمل من تلك الاجتهادات التى بلغ بعضها شأنا عظيما وظل على أصالته حتى الآن، بينما لم يجاوز بعضها الآخر حدود عصره وظل أو بقى حتى اليوم - ونحن فى بدايات القرن الحادى والعشرين - فى ذمة التاريخ.

ولكن الجدير بالتسجيل هو : أن كل واحد من تلك الاجتهادات قد أضاف إلى الفكر الإنسانى - بكل ما فى وسعه، أو قدر طاقته - جهدا حريا بكل التقدير والعرفان.

وحتى نتعرف جيدا على المجتمع القبائلى أو العشائرى الذى هو موضوع دراسة علم الاجتماع البدوى، لابد أن نلقى ولو بعض الضوء على طبيعة ذلك المجتمع البدوى فى إطار مقارنته بغيره من المجتمعات الريفية والحضرية.

ونحن فى سبيل تحقيق ذلك الهدف سوف نتعرض أولا لطبيعة ذلك المجتمع كما تصورتها مجموعة من الآراء والفلسفات السوسيولوچية القديمة، ثم نأتى فى

الفصل الثانى لنلقى بعض الضوء على عدد من النظريات السوسيولوچية المعاصرة التى قننت مسيرة المجتمعات البشرية بصفة عامة ومن ضمنها المجتمعات البدوية بطبيعة الحال.

ثم فى الفصل الثالث نتعرف على عدد من التصنيفات المعاصرة التى أزاحت الستار عن خصائص وسمات كثيرة للمجتمعات البدوية وخاصة القبلية أو العشائرية منها.

وفى ختام هذا الباب نعرض لموقع المجتمع البدوى على خريطة تطور المجتمعات البشرية.. وذلك بهدف الوصول إلى تحديد دقيق لهوية وملامح المجتمعات البدوية التى نحن بصدد دراستها.

★ ★ ★

الفصل الأول

المجتمعات البشرية
فى الفكر السوسيولوچى القديم

- مقدمة .
- أفلاطون وتطور الحياة البشرية .
- أشكال تطور المجتمعات عند أرسطو .
- أنماط الجماعات الإنسانية عند الفارابى.
- اتجاه المجتمعات نحو التعقيد أمر حتمى فى رأى الإمام الغزالى .

المجتمعات البشرية فى الفكر السوسيولوچى القديم

مقدمة :

يحسن فى البداية أن نغوص فى أعماق الفكر السوسيولوچى القديم (*) حتى نأخذ فكرة ولو موجزة عن الآراء الفلسفية والفقهية التى تناولت بشكل أو بآخر تطور المجتمعات البشرية، وذلك حتى تتكامل الصورة وتبرز مختلف وجهات النظر، وذلك على النحو الآتى :

★ ★ ★

المبحث الأول :

أفلاطون وتطور الحياة البشرية :

يعتبر « أفلاطون » أول من شرح تطور الحياة البشرية على أساس منهجى وعقلى عندما صور نشأة المجتمعات الإنسانية على أنها ضرورة طبيعية يجبر الإنسان خلالها على التجمع مع غيره فى تضامن وتكامل وتعاون، وذلك حتى يمكن إشباع حاجاته الضرورية من مأكل وملبس ومسكن... إلخ [1].

هذا وقد أطلق « أفلاطون » على أول مرحلة من مراحل ذلك التجمع الإنسانى اسم المرحلة البدائية التى كان التجمع الرعوى هو أول مظاهرها، وتميزت المجتمعات الإنسانية خلالها بقلة العدد واعتمادها على الرعى وانتظام اعضاء المجتمع البدائى ضمن أسر صغيرة منعزلة تحكمها العادات والتقاليد والعرف، وكانت الرئاسة فيها للأب.

(*) يمكن للقارئ الكريم أن يعود إلى أى من مؤلفاتنا « سوسيولوچيا الحضارات القديمة » و«المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى » ، مكتبة غريب – القاهرة ٢٠٠٠ . و «علم الاجتماع فى عالم متغير » – مرجع سابق : لأخذ فكرة أوضح عن آراء وإسهامات عدد من الرواد العرب والأعاجم من المسلمين .

أما مرحلة الزراعة فقد تلت المرحلة البدائية الرعوية، وتميزت مرحلة الزراعة تلك بكثرة عدد السكان علاوة على الكبر النسبى لحجم الأسرة مع بداية لبزوغ نوع من التنظيم السياسى المرتكز على حكم الأرستقراطية أو الملكية المطلقة.

ثم ما لبث التنظيم الاجتماعى والسياسى للمجتمع أن اكتمل مع بداية مرحلة الحياة الاجتماعية المدنية، لأن مجتمع المدينة اليونانية القديمة فى رأى أفلاطون كان هو المجتمع السياسى الكامل [٢].

وكان من رأى « أفلاطون » أن الإنسان نسيج مكون من مركبين أساسيين أولهما : مادى هو الجسم، وثانيهما إلهى أو معنوى وهو النفس، واعتبر أن النفس أهم من الجسم نظرا لخلودها، كما قسمها - أى النفس - إلى ثلاثة أجزاء رئيسة هى العقل والروح والشهوة، وجعل السيطرة للعقل الذى يوجد فى الرأس ويوجه أو يقود الروح المتمركزة فى الصدر، أما الشهوة فتوجد فى البطن وهى جامحة وغير مستقرة بطبيعتها، وتكون النفس خيرة وصالحة إذا ما استطاع العقل أن يحكم سيطرته على كل من الروح والشهوة. وترجم «أفلاطون» فلسفته تلك إلى واقع مثالى من خلال كتابه « جمهورية أفلاطون » عندما قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات وضح خلالها تأثره الشديد بالأجزاء الرئيسة الثلاثة للنفس البشرية وهى : العقل والروح والشهوة « الجسد »، فنجده مثلا قد وضع على قمة التنظيم فى مدينته الفاضلة أو المثالية أو النموذجية، وضع طبقة الفلاسفة على القمة وجعلهم حكاما مهيمنين على كل شئون الجمهورية وموجهين لها، أى جعلهم عقل ذلك المجتمع، مع مراعاة أنه وضع مواصفات للفيلسوف بأنه : « كل شخص وصل إلى درجة عليا من المعرفة والثقافة »، ووضع « أفلاطون » بعد طبقة الفلاسفة والحكام طبقة المحاربين، وهم القلب الساهر على حماية مصالح الجمهورية ورعايتها، ثم جعل « أفلاطون » طبقة الزراع والتجار فى قاع جمهوريته الفاضلة لأنهم بمثابة الشهوة التى تتنازعها رغبات وأهواء مختلفة [٣].

وحمل « أفلاطون » العقل، أى طبقة الفلاسفة أو الحكام، مسئولية إحكام السيطرة على بقية الطبقات لإيجاد نوع من التعاون فيما بينها وفقا لتصورات

فلسفية أو غائية مختلفة، كما دعا إلى تحريم الزواج وإباحة الاتصال الجنسى بين الرجال والنساء بغير تحديد امرأة ما لرجل معين، وذلك بهدف إضاعة النسب فلا يبقى أمام المواطنين غير الدولة فتكون لهم أما وأبا ويتفانون فى خدمتها بالضرورة، كما طالب « أفلاطون » كذلك بالإكثار من النسل وتحريم الملكية الخاصة ووجه اهتماما خاصا لطبقتى الحكام والمحاربين، هذا وقد عاش « أفلاطون » فى الفترة من « ٤٢٨ إلى ٣٤٧ قبل الميلاد » (٤).

★ ★ ★

المبحث الثانى:

أشكال تطور المجتمعات الإنسانية عند أرسطو:

يرى أرسطو أن « الإنسان مدنى بالطبع » وأن « الإنسان حيوان سياسى»، وذلك معناه أنه لا يمكن للإنسان أن يحيا إلا فى مجتمع، ومن رأى « أرسطو » أنه لا يمكن للحياة الاجتماعية أن تتحقق على وجه صحيح إلا من خلال الأسرة التى تعتبر فى رأى « أرسطو » الخلية الطبيعية الاجتماعية الأولى فى المجتمع.

ومن هنا كانت الأسرة فى نظر « أرسطو » أشبه ما تكون بمملكة صغيرة يحكمها رجل، وتنعم فيها المرأة بحق المشاركة فى تسيير دفة الأمور فيها، ثم ما تلبث كل أسرة من خلال جسور الصداقة الممتدة بينها وبين غيرها من الأسر أن تؤلف - مع غيرها من العائلات - مجموعة من الخلايا الاجتماعية للمجتمعات المحلية، ثم ما تلبث القرية (*). أن تظهر كوحدة اجتماعية متماسكة، ثم تسير الحياة الاجتماعية بصورتها الطبيعية حتى ينشأ مجتمع المدينة التى تعتبر فى رأى « أرسطو» مجتمعا تاما يقوم بتحقيق جميع أغراض الحياة الضرورى منها والكمالى (٥).

هذا وقد حدد « أرسطو » خلال كتابه « السياسة » ستة أشكال للحكومات يختلف كل نموذج منها تبعا لاختلاف البيئة والزمان. وهو يرى أن بعض تلك النماذج

(*) باعتبار أن « المدينة » هى فى الواقع أكبر ما فى مجموعة تلك الخلايا الاجتماعية للمجتمعات المحلية .

ردىء وبعضها الآخر جيد، المهم أن أول نموذج أو شكل للحكومات هو «حكومة الفرد» الذى يسيِّر أمور الأمة وحده استنادا على حكمته وعقله، وإذا ما فسد حكمه نشأ عنه النوع الثانى وهو «الحكومة الاستبدادية». وهى كسابقتها تعتمد على حكم الفرد ولكن بغير حكمة ولا عقل، وإنما بالقوة، أما النموذج الثالث فهو «الحكومة الأرستقراطية» وهى حكومة الأقلية الممتازة أو العاقلة، ولكن إذا ما فشل حكمها نشأ عنه النوع الرابع وهو «الحكومة الأوليجاركية» وتتميز بحكم الأقلية القوية أو الغنية، أما النموذج الخامس فهو «حكومة الشعب»، وهى حكومة الأغلبية الشعبية المتساوية فى الكفاية والحقوق والتى إذا ما فسد حكمها ينشأ عنه النموذج السادس والأخير، وهو «حكومة السفلة» أو الغوغاء، وهى بالتالى حكومة أغلبية ولكنها أغلبية فقيرة قليلة الكفاية والحيلة لا تلبث أن تكون نهبا لثورة يتزعمها رجل واحد لتبدأ الدورة من جديد، هذا وقد عاش « أرسطو » فى المدة من ٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد» (٦).

★ ★ ★

المبحث الثالث:

أنماط الجماعات الإنسانية عند الفارابى:

أوضح الفارابى من خلال إيمانه بالكثير من آراء « أفلاطون » و«أرسطو» أن الاجتماع الإنسانى ضرورى وذلك راجع، كما أوضح «الفارابى »، إلى أن الإنسان مفطور على حاجته إلى الاجتماع والتعاون، « وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه إلى غيره وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه»، ولا يتأتى هذا إلا باجتماعات جماعة كثيرة « يقوم كل واحد ببعض ما يحتاج إليه قوامه » (٧).

كما تناول « الفارابى » أشكال التجمع الإنسانى ورتبها على أساس فريد حيث أوضح أن من هذه الأشكال ما يمكن أن يوصف بأنه اجتماعات إنسانية كاملة، ومنها ما يصفه بأنه غير كامل، ثم رتب تلك المجتمعات تدريجيا إلى ثلاثة مستويات، ونجد

« الفارابى » قد قسم المجتمعات التى وصفها بأنها كاملة إلى ثلاث مراتب تتراوح ما بين العظمى والوسطى والصغرى، وارتكز «الفارابى» فى تقسيمه لأشكال التجمعات الإنسانية على حجم كل منها ومقدرته على سد احتياجات أعضائه، ويرى «الفارابى» أن المجتمعات العظمى تتمثل فى اجتماعات الجماعة كلها على المستوى الإنسانى فى المعمورة، أما المجتمعات الوسطى فيمثلها اجتماع أمة على المستوي القومى فى جزء من المعمورة، أما المجتمعات الصغرى فتمثل اجتماع أهل مدينة على المستوى الإقليمى أو المحلى فى جزء من مسكن أمة.

أما عن المجتمعات غير الكاملة فيصنفها « الفارابى » أيضا على ثلاثة مستويات، أولها مَرْتبة أو أكملها اجتماع أهل القرية وأهل الحلة « الجيرة أو الحى » ويليها فى المرتبة الثانية اجتماع فى السكة « الشارع »، أما المستوى الثالث فيمثله فى رأى « الفارابى » اجتماع فى منزل (٨) (*) .

★ ★ ★

المبحث الرابع:

اتجاه المجتمعات نحو التعقيد أمر حتمى فى رأى الإمام الغزالى:

عالج «الإمام الغزالى» أصول المجتمع الإنسانى وتطوره خلال كتابه « ذم الدنيا من الأحياء » ولم يكن الهدف الأول «للإمام الغزالى» وضع نظرية تفسر أصل المجتمع أو توضح كيفية تطوره بقدر ما كان يهدف إلى تأكيد حقيقة مؤداها أن الهدف الأسمى للإنسان هو سعيه الدائب وراء معرفة الله، ولكن ذلك الإنسان يولد فى مجتمع ينشأ بالضرورة نتيجة لعجز الفرد عن توفير سبل العيش لنفسه معتمدا على مقدرته وحده دون معاونة غيره.

(*) واضح أن الفارابى شديد الإعجاب والتقليد لأفلاطون سواء من حيث الأفكار المعروضة أو المنهج المستخدم فى الاستدلال المعروف باسم « تحليل المعانى » وهى طريقة طبقها كل من أرسطو وأفلاطون وتعرف بالطريقة الأرسطوطاليسية .

لذلك فمن رأى «الإمام الغزالى» أن الله سبحانه وتعالى قد فرض حتمية المجتمع فى خلقه للطبيعة الإنسانية، لذلك كانت تلك الطبيعة أو القدرة الإنسانية غير قادرة، أو عاجزة وحدها أولا عن تلبية معظم الاحتياجات البشرية بمفردها، وراغبة «ثانيا» فى التجمع ضمانا لبقاء الفرد ولتحقيق أمنه وأمانه فضلاً عن سلامته الشخصية أو الذاتية أو المجتمعية [٩].

ولكن مع ظهور المجتمع تنشأ مجموعة جديدة من المشاكل سواء فى العلاقات أم فى غيرها من صور التكامل والتعاون الإنسانى، ومع تتابع نمو المجتمع تبرز حاجات ومشاكل جديدة؛ تتطلب هى الأخرى مزيدا من الفهم والجهد لمواجهتها والتغلب عليها، وهكذا يكون « نمو التعقيد أمرا حتميا مع نمو المجتمع الإنسانى » [١٠].

وعليه فإن المجتمع الإنسانى فى رأى «الإمام الغزالى»، لابد أن يستمر من البساطة إلى التعقيد إلى أن يشاء الله سبحانه وتعالى [١١].

★ ★ ★

المصادر

(١) للاستزادة حول تصور أفلاطون ، انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مرجع سابق - ص ص ٦٨ -٧٢ .

(٢) للاستزادة انظر : دكتور أحمد الخشاب والدكتور محمد طلعت عيسى - علم الاجتماع - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ١٩٦٣ ص ص ٣١ - ٣٥ ، وأنظر أيضا : دكتور عبد العزيز عزت - فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع - القاهرة - ١٩٥١ ص ص ٢٢ - ٣٠ .

(٣) للاستزادة حول الفكر الأفلاطونى ، انظر : د. صلاح الفوال. علم الاجتماع فى عالم متغير - مرجع سابق - ص ص ٦٨ - ٧٢.

(٤) للاستزادة انظر : د. صلاح الفوال. علم الاجتماع فى عالم متغير - المرجع السابق - ص ص ٧٣ - ٧٨ .

(٥) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١١١-١١٢ .

(٦) للاستزادة حول أرسطو انظر مؤلفنا عن «سوسيولوچيا الحضارات القديمة «مرجع سابق ، وانظر كذلك مؤلفنا عن علم الاجتماع فى عالم متغير - مرجع سابق ص ص ٧٢ - ٧٨ .

(٧) أبو نصر محمد الفارابى - آراء أهل المدينة الفاضلة - الطبعة الثانية - مكتبة ومطبعة محمد على صبيح - القاهرة ١٩٤٨ - ص ص ٧٧-٧٨ ، وانظر أيضا : دكتور أحمد الخشاب ، دكتور محمد طلعت عيسى - علم الاجتماع - مرجع سابق ص ص ٦٦ - ٦٧ ، وانظر كذلك مؤلفنا عن « المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى » وانظر : دكتور صلاح الفوال - المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى - مكتبة غريب - القاهرة ٢٠٠٠ .

(٨) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مرجع سابق ص ص ٩١ - ٩٨ .

(٩) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٠) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر :

(أ) دكتور صلاح الفوال - المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى - مرجع سابق ص ص ١١١- ١٣٣، وانظر كذلك د . صلاح الفوال ، المدخل لعلم الاجتماع الاسلامى - مرجع سابق

(ب) خيرى حماد - مقتطفات من كتاب « الإنسان عند الغزالى » - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٤ .

(جـ) الدكتور على عيسى عثمان - « المجتمع الإنسانى عند الغزالى » فى الدكتور لويس كامل مليكة - قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥.

(١١) هناك آراء أخرى جديرة بالاطلاع لمفكرين عرب ومسلمين ضمن مؤلفنا عن « المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى » المشار إليه ، ومؤلفنا عن علم الاجتماع فى عالم متغير - مرجع سابق ص ص ٨٧ - ١٥٨ ، حيث يمكن الاطلاع هناك على :

(أ) الفكر الاجتماعى عند اخوان الصفا - ص ص ٩٩ - ١٠٨ .

(ب) الاسهامات السوسيولچثية لابن مسكويه - ص ص ١٠٩ - ١١٦ .

(جـ) البيرونى وإسهاماته السوسيولوچية - ص ص ١١٧ - ١٣٠ .

(د) إسهامات ابن خلدون السوسيولوچية - ص ص ١٣١ - ١٥٠ .

★ ★ ★

الفصل الثانى

نظريات سوسيولوچية قننت مسيرة المجتمعات البشرية

- تطور المجتمع وفق النظرية التطورية عند ابن خلدون .
- النظرية التطورية .
- مورجان ونظرية التطورية الثقافية .
- كيف يتطور المجتمع عند شميدت .
- نظرية كوندرسيه فى تطور المجتمعات البشرية .
- نظرية دور كايم تصنف المجتمعات الإنسانية من البسيط إلى المركب .
- طبيعة التنظيم الاجتماعى وفق معايير فيتشن .
- المجتمعات تتطور من خلال التحديات فى رأى توينبى .
- تطور المجتمع وفق نظرية الثورة المدنية عند تشيلد .
- المجتمع البدائى ومجتمع المدينة طرفا نقيض عند ريدفيلد .
- هل لتطور المجتمعات البشرية علاقة بنظرية الاغتراب ؟
- قيام المجتمعات البشرية وتطورها وفقا للنظرية الاجتماعية.
- نظريات تفسيرية أخرى لنشأة المجتمع وتطوره .

نظريات سوسيولوچية
قننت مسيرة المجتمعات البشرية

المبحث الأول:
تطور المجتمع وفق نظرية ابن خلدون:

تأخذ نظرية « ابن خلدون » فى هذا المجال شكلا حيويا بيولوچيا مرتكزة على مقارنة المجتمع فى تطوره بالجسم الحى وحياته، فالمجتمع البشرى كالإنسان تماما يولد طفلا وينمو إلى أن يصبح صبيا ثم شابا ثم رجلا ثم شيخا ثم هرما، وكذلك المجتمع له حالات أربع فى نموه وتطوره عند « ابن خلدون »، وليست حالات التطور هذه اختيارية قد يمر بها المجتمع وقد لا يمر، وإنما هى كالقضاء أو كقدر الله لا مرد له، وتسير فى تتابع حتمى لا تمهد خلاله كل مرحلة للتى تليها فقط وإنما تجذبها إليها جذبا، وهذه الحالات الأربع أو الأجيال الأربعة كما يسميها « ابن خلدون » هى [١] :

(أ) حالة البداوة:

وتمثل الجيل الأول فى حياة المجتمعات البشرية، وترتكز فى رأى « ابن خلدون» على ركيزتين أساسيتين أولاهما حاجة الناس إلى التعاون لإشباع احتياجاتهم الضرورية، وثانيتهما حاجة الناس إلى الحماية والدفاع عن أنفسهم ضد مخاطر الطبيعة والكائنات الحية الأخرى على حد سواء، ومن هنا كانت أو نشأت القبيلة أول الأشكال الاجتماعية الجماعية التى ضمت بنى البشر أو احتوتهم على أساس من العصبية ووفق تنظيم سياسى واجتماعى صارم [٢] .

(ب) حالة الملك:

يرجع « ابن خلدون » قيام الملك إلى العصبية التى شدت من أزر أفراد القبيلة الواحدة وقوّت شجاعتهم وصيرتهم أكثر توحدا وبأسا ودفعتهم إلى الغزو والفتح وإقامة الملك، والملك يستتبع بالضرورة إنشاء البلدان والأمصار وما يلزمها من مختلف الصنائع وغيرها من الأمور الضرورية للعمران الأمر الذى يبعد المجتمع عن حالة التوحش والعصبية وينتقل به من حياة البداوة إلى حياة الحضارة.

(جـ) حالة الحضارة:

والحضارة عند « ابن خلدون » هى غاية العمران، وهى أيضًا « التفنن فى الترف » حيث يستقر خلالها الملك وتزخر بالنعيم وتتقن فيها الصنائع وتتجلى المهارات الفنية، ويسود فيها الترف وتتنوع الميول والشهوات وينصرف الناس كُلٌّ إلى ملذاته فتضعف العصبية وتضيع الشجاعة وتلين الخصال وينسى كل الناس أصول الحماية والمدافعة، ويؤجرون الموالى والمرتزقة للقيام بهذه المهمة عنهم.

وبالاختصار فإنهم يؤثرون الراحة والدعة على المتاعب، ومن هنا (*) كان هلاكهم الحتمى والمؤكد على يد قبيل غاز آخر أكثر منهم توحشا وأوفر منهم عصبية وحذقا بأمور الحماية والمدافعة (٣) .

(د) حالة الهرم:

وهى ختام دورة حياة المجتمع البشرى فى رأى « ابن خلدون » لأن : «غاية العمران هى الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات»، ويرى «ابن خلدون» كذلك أن حالة الهرم هذه حالة حتمية أو ضرورة لابد منها، وذلك لأن حالة الهرم نشأت كنتيجة ضرورية لضعف العصبية وإيكال أمر المدافعة والحماية إلى المرتزقة أو الموالى، وتعود حالة الهرم كذلك إلى الاكتفاء بمظاهر القوة والغلبة والأنفة دون ممارسة حقيقية لها، بسبب

(*) عندما تتبدل عوائدهم وطباعهم وخصائصهم لاسيما الخشونة والمدافعة والعصبية القبلية.

التكالب على أمور الدنيا وإرضاء الشهوات والخضوع لها سواء كانت شهوات معنوية أم حسية أم جسدية، وكذلك شهوة الانغماس فى جمع المال بكل الطرق (*) .

وكل هذه أمور تتسبب أو تؤدى إلى هجوم من قبيل غاز « متربص » قوى العصبية، شديد الشكيمة، ومتوحش الطباع (٣) .

ومن هنا يبدأ المجتمع «دورته» من جديد، حالة بداوة تسودها العصبية، وحالة مُلك بالغزو والقهر، وحالة حضارة ببلوغ العمران إلى منتهاه، ثم حالة الهرم وهى حالة موات لا محالة حتى مع ظهور بعض المصلحين أو مع تأخر القبيل الغازى فى الانقضاض على فريسته المستكينة .. وهلم جرًا (٤) .

★ ★ ★

المبحث الثانى:

النظرية التطورية:

ويُطلق عليها أيضا النظرية ذات «المراحل الخمس»، وترتكز هذه النظرية على أساس أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات تدرجت منذ الخليقة من البساطة إلى التعقيد عبر مراحل متتالية تؤدى كل واحدة منها إلى التى تليها فى تساند وترابط وتكامل، كما ترتكز هذه النظرية على موقف الإنسان نفسه وسلوكياته خلال تعامله مع الموارد الطبيعية المتاحة، وبالذات على مدى ما يتسم به ذلك الموقف أو السلوك من سلبية وإيجابية، بمعنى هل يكتفى الإنسان بما تقدمه له الطبيعة من موارد ويتعيش عليها بصورتها الأولية دون جهد أو عناء، أم أنه يبذل جهدا ابتكاريا - من نوع ما - يوفر له استغلالا أفضل لتلك الموارد أو المواد سواء فى صورتها الطبيعية أو من خلال استنباط صور جديدة لها ؟!.

(*) اعتمد ابن خلدون فى تحديد هذه الشهوانية ، على قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (آل عمران :١٤) .

وبصرف النظر عن الذى زَيَّن للناس تلك الشهوات فهى كلها شهوات أو سمات عامة يشترك فيها كل البشر ولا تعد خصوصية مميزة لكل واحد منهم، وإنما التمايز يكون فى درجة تعامل الفرد مع الشهوة انقيادا ومقاومة خصوصا فى الحلال والحرام منها.

هذا ويمكن إيجاز «المراحل الخمسة» التى مر بها المجتمع البشرى فى تطوره على النحو الآتى :

(أ) مرحلة الجمع والالتقاط :

وقد لازمت هذه المرحلة، الإنسان فى طفولته المبكرة قبل آلاف السنين، وغلفت كل حياته خلال تعامله مع البيئة المحيطة به، وتتجلى فى هذه المرحلة مدى سلبية ذلك الإنسان حيث كان يعيش مجرد عالة على ما تقدمه له الطبيعة ودون أن يبذل أى مجهود ابتكارى يذكر للحصول عليها.

(ب) مرحلة القنص والصيد :

وتعتمد هذه المرحلة على قنص الحيوانات البرية سواء فى الغابات أو الصحارى، كما تعتمد أيضا على صيد السمك والحيتان عند البحار والأنهار، ولاشك أن هذه المرحلة تمثل أولى إيجابيات الإنسان البدوى من أجل السعى وراء طعامه أو غذائه وابتكار وسائل آلية تمكنه من تحقيق هدفه.

(جـ) مرحلة الرعى :

وهى ولا شك مرحلة أكثر إيجابية وتقدما عن سابقتيها، وإن عابها أنها ضيقة الانتشار لارتباطها بضرورة توافر مراع مناسبة إلى جانب مجموعة من الحيوانات الراعية من آكلة العشب كالإبل والخيل والرنة واللاما والغنم والماعز والياك والبقر... إلخ.

(د) مرحلة الزراعة المستقرة :

وتعتمد هذه المرحلة على ما توفره الزراعة الكثيفة أو المستقرة من تقدم حضارى وتكنولوچى وما يستتبع ذلك كله من تطور ثقافى واجتماعى معين ما كان ليحدث بغير إيجابية الإنسان الراعى، وسعيه قدما فى سبيل استغلال أكثر لقوى الطبيعة المتاحة ومواردها (٥) .

ولو أننا نعتقد أن النظرية التطورية قد أسقطت من حساباتها مرحلة هامة من مراحل التطور وهى : « مرحلة الزراعة غير المستقرة أو المتنقلة أو البعلية »، وهى تلك المرحلة - أى الزراعة البعلية - التى تمارس أثناء رحيل القطيع برفقة الجماعة البدوية المرتحلة، وتعتمد هذه المرحلة اعتمادا كليا على الآبار والأمطار وإن كان اعتمادها على تساقط الأمطار أكثر (*) .

(هـ) مرحلة الصناعـــــة:

وهى تمثل بكل فنونها وآلياتها وتكنولوچياتها وتقنياتها المتطورة، آخر مراحل تطور المجتمعات البشرية، وتتجلى خلالها منتهى الإيجابية الإنسانية أثناء تعاملها مع مواد الطبيعة ومواردها سواء من خلال توفير الجهد الإنسانى المبذول عند الإنتاج أو الاستغلال أو الاستثمار أم من حيث ابتكار مواد جديدة عن طريق التعديل أم عند الإضافة أو المزج (٦).

ويرى أصحاب هذه النظرية أنه ليس من الضرورى أن تكون البشرية قد مرت بكل مرحلة من هذه المراحل على حدة، فقد تتداخل مرحلتان أو أكثر وقد تظل سمات مرحلة ما مسيطرة أو ظاهرة حتى يومنا هذا (٧) .

★ ★ ★

(*) الزراعة البعلية هى تلك التى تعتمد فى ريها على ما يتساقط من أمطار ، ويستدعى هذا النمط من الزراعة أن تتوافر لدى الجماعة البدوية الراعية محاصيل خاصة تتميز بسرعة الإنبات وسهولته علاوة على عدم اعتمادها تماما على الرى بالماء ، ولعل من أهم تلك المحاصيل أو النباتات الخاصة الشعير والقمح ، ولقد بنينا اعتقادنا على أساس أنه لا يمكن القفز إلى مرحلة الزراعة المستقرة دون المرور على مرحلة الزراعة غير المستقرة وخصوصا أنها - أى الزراعة المتنقلة - من أظهر مراحل تطور المجتمعات على اعتبار أن الزراعة البعلية تشكل العامل الأساسى للبدو فى توفير احتياجاتهم من الغذاء .

المبحث الثالث:

مورجان ونظرية التطور الثقافى:

من رأى « لويس مورجان Lewis Morgan » أن التقدم التكنولوچى لابد أن يستتبعه بالضرورة تغير فى النظم الاجتماعية السائدة حتى يكون هناك توافق بين تلك النظم وبين ما أحدثه التقدم التكنولوچى من تغيرات مادية (*) .

ويقسم « ل. هـ. مورجان » المجتمعات البشرية على امتداد تاريخها الطويل إلى ثلاثة تصنيفات رئيسة تتسم كل منها بمظاهر وخصائص متميزة، مع تركيز «مورجان »، المستمر على أن كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث قد بدأت باختراع تكنولوجى عظيم وهام، وهذه المراحل هى (٨) :

(أ) مرحلة التوحش Savagery.

(ب) مرحلة البربرية Barbarism.

(جـ) مرحلة الحضارة Civilivation.

ومن رأى « لويس مورجان » أيضا أنه حتى أثناء مرحلتى «التوحش والبربرية» فإن المجتمع البشرى قد عاش أو مر خلالهما بمستويات ثلاثة: «دنيا» و«وسطى» و«عليا»، وأن جواز المرور بين ذلك كله كان اختراعا تكنولوچيا عظيما، فالإنسان مثلا خلال مرحلة «التوحش الدنيا» لم يكن يختلف كثيرا عن الحيوان فى طريقة سعيه على رزقه، حتى عرف استخدام النار وأصبح قادرا على صيد الأسماك، وبعدها عاش خلال مرحلة «التوحش الوسطى» إلى أن اخترع القوس والسهم فتجاوز مرحلة «التوحش الوسطى» إلى مرحلة «التوحش العليا»، ووقف بذلك على أعتاب مرحلة حضارية جديدة وهى «مرحلة البربرية الدنيا» والتى تحددت ملامحها باختراع الأوانى

(*) انظر : نيقولا تيماشيف - النظرية الاجتماعية المعاصرة - ترجمة الدكتور محمود عودة وآخرين - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٧١ ، لتتعرف على رأى تيماشيف فى التأثير الذى أحدثته نظرية مورجان على الفكر السوسيولوچى الماركسى .

الفخارية، ثم انتقل المجتمع البشرى بعد ذلك إلى مستوى متقدم من البربرية ألا وهو «البربرية الوسطى» بفضل استئناس الحيوان «البرى» أو الوحشى، ومعرفة «الزراعة المعتمدة على الرى» وإقامة المساكن الثابتة «بالطوب» اللبن (*) والطين والحجارة.

ومع اكتشاف كيفية «صهر الحديد» واستغلاله فى صنع العديد من الأدوات والآلات، وضعت البشرية أقدامها عند بداية مستوى رفيع من البربرية وهى مرحلة «البربرية العليا»، وظلت هذه المرحلة كذلك إلى أن أفسحت الطريق أمام مرحلة حضارية أكثر تميزا ووضوحا وهى مرحلة «الحضارة» التى بدأت باختراع الكتابة وحروف الهجاء، ومازالت هذه المرحلة تغلف حياتنا حتى اليوم (**) .

وعلى هذا يكون المجتمع البشرى فى رأى « مورجان » قد بدأ من أول السلم «متوحشا ثم بربريا ثم متحضرا»، وقد تقف بعض قطاعات من البشرية عند مرحلة ما من هذه المراحل وقد تمتد شواهدها حتى اليوم، ومن الأمثلة التى ضربها «مورجان» فى هذا الشأن التشابه الكبير بين ثقافة مرحلة البربرية الدنيا والثقافة السائدة حاليا بين جماعات «الأيروكوا» (***) فى الغرب الأمريكى (٩) .

ومن أبرز ما أوضحته نظرية « مورجان » أن أية تطورات فى المجالات المادية أو الاقتصادية تتبعها بالضرورة تغيرات فى شكل الملكية والقرابة والأسرة والسلطة وما إليها (١٠) .

والمثال على ذلك، ما ذهب إليه « مورجان » نفسه فى التفريق بين المجتمع البدائي الذى سماه Societas والمجتمع الحضرى الحديث الذى أطلق عليه Civitas واعتمد « مورجان » فى ذلك التفريق بين المجتمعين على أساس خواص كل منهما وعلى اعتبار أن :

(*) الطوب اللبن هو ما يعرف باسم الطوب الأخضر أو الطوب النيىء أو هو الطوب الذى لم تدخل النار فى صناعته .

(**) عاش «لويس هنرى مرجان» فى الفترة من ١٨١٨ حتى ١٨٨١ ميلادية.

(***) قبائر «الأيروكوا» هى أحد الجماعات الأمريكية العشائرية التى تعد من السكان الأصليين لمجتمع الغرب الأمريكى.

(أ) مكانة الفرد ودوره يعتمدان فى النمط الأول - البدائى - على أساس من العلاقات الشخصية أو المباشرة، بينما يتحددان - المكانة والدور - فى النمط الثانى «المتحضر » عن طريق آخر غير طريق العلاقات الشخصية.

(ب) لا توجد طبقية بين أفراد المجتمع فى النمط الأول حيث يعتقد الجميع أنهم ينتمون لأصل واحد وأنهم جميعا سواسية، بينما تبرز الطبقات الاجتماعية فى النمط الثانى.

(جـ) العلاقات الاجتماعية ترتكز أصلا على «القرابة» فى النمط الأول، بينما ترتكز العلاقات الاجتماعية فى النمط الثانى على «نظم» أخرى كالملكية والنفوذ أو السلطة وتقسيم العمل... إلخ.

(د) تسود فى «النمط» الأول - المجتمع البدائى - كل من العشيرة والقبيلة، بينما السيادة فى «النمط» الثانى - المجتمع الحضرى - للدولة [١١] .

★ ★ ★

المبحث الرابع:

كيف يتطور المجتمع عند شميدت:

يرى الأب « شميدت Wilhelm Schmidt » أن حضارة اليوم الحديثة تعود إلى أصول وعناصر حضارية قديمة قد مرت بها البشرية عبر التاريخ، وصنف تلك الأصول الحضارية وربط بينها وبين فترات تاريخية مختلفة، وقال : إنها - أى الحضارة الحديثة أو المعاصرة - تعود إلى تسعة مركبات حضارية ما تزال معالمها باقية لدى العديد من المجتمعات، وجمَّع بين كل ثلاثة مركبات حضارية متشابهة معا وعلى النحو الآتى [١٢] .

(أ) المجموعة الأولى:

وتضم هذه المجموعة ثلاثةُ مركبات حضارية بدائية أو قديمة والتى لاتزال عناصرها بارزة لدى العديد من المجتمعات المعاصرة «كالأقزام» فى أفريقيا وآسيا، و«الإسكيمو» فى القطب الشمالى، وبعض من السكان الأصليين لأستراليا والغرب الأمريكى.

(ب) المجموعة الثانية:

وتضم هذه المجموعة أيضا ثلاثة مركبات حضارية أخرى أسماها «شميدت» بالمركبات «الحضارية الأولية»، وقال إنها تتمثل فى جماعات كثيرة تمتد بطول الأرض وعرضها، منها جامعو القوت المتقدمون، والقبائل الرحل التى تعيش على الرعى، والجماعات التى تعمل بالزراعة، وتتبع جماعات المجموعة الثانية تلك، نظام القرابة الذى يرتكز على «سلالة الأم»، حيث ينتسب خلاله الأبناء إلى «أمهاتهم» فلا يرث الأبناء آباءهم ولا يورثونهم، وإنما يرث الأبناء أخوالهم - إخوة الأم - ويورثونهم من دون الآباء.

(جـ) المجموعة الثالثة:

وهذه المجموعة الأخيرة تضم كذلك ثلاثة مُركبات «حضارية» ثانوية، تتمثل كلها فى ثلاثة نماذج من المجتمعات الزراعية حيث ينتسب اثنان منها إلى الأم بينما ينتسب إلى الأب من هذه المجموعة نموذج واحد فقط (١٣) .

★ ★ ★

المبحث الخامس:

نظرية كوندرسيه فى تطور المجتمعات البشرية منذ بدء الخليقة:

قدم « كوندريسه Condorcret » نظرية تفسر تطور المجتمعات الإنسانية منذ بدء الخليقة حتى العصر الذى عاشه « ١٧٤٠ - ١٧٩٤م »، وهو يرى أن الإنسانية قد مرت «بعشر مراحل» انتهت تسع منها بانتهاء القرن الثامن عشر، ولم يبق أمام الإنسانية إلا مرحلة واحدة.

المهم.. نحن لا نريد هنا أن نناقش مراحل نظرية « كوندرسيه » سواء من حيث البدء أو الانتهاء فقد كان لنا معها حديث طويل خلال مؤلفنا عن «علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية»، ولكنا سنعرض لهذه المراحل العشرة وباختصار شديد وعلى النحو التالى :

١ - المرحلة الطبيعية:

وهى مـرحلة عـاشـتـهـا الإنسـانيـة على الفطرة.. ويرى « كـوندرسـيـه » أن المجتمعات البشرية خلال تلك المرحلة الطبيعية كانت لها نفس صفات وخصائص مرحلة التوحش الدنيا التى حددها أو صورها «مورجان» من قبل.

٢ - مرحلة الرعى واستئناس الحيوان :

وهى مرحلة أكثر تقدما من سابقتها.. وتميزت المجتمعات الإنسانية خلالها بالإيجابية.. حيث بدأ الناس يشاركون بجهدهم وفكرهم فى ابتكار طرق أحسن لاستغلال أمثل للحيوان وللطبيعة.

٣ - مرحلة الزراعـــة:

وتعتمد هذه المرحلة على ما توفره الزراعة - خصوصا المستقرة منها - من تقدم حضارى وتكنولوچى وما يستتبع ذلك كله من تطور ثقافى واجتماعى.

٤ - المراحل التطورية الأخرى:

ما تلا ذلك من مراحل تبعد كثيرا عن نطاق دراسة هذا الكتاب ؛ وهى على كل حال مراحل : الحضارة اليونانية، الحضارة الرومانية، مرحلة العصور الوسطى المسيحية، مرحلة الإقطاع، مرحلة اختراع الطباعة، ومرحلة الثورة الفرنسية، ثم مرحلة مستقبل الإنسانية (*) .

وواضح أن بعض المراحل الأولى، هى فقط قد تكون الأقرب إلى موضوع دراسة هذا الكتاب، ولو أن الأمر لا يمنع القارئ العزيز من العودة إلى مؤلفنا عن «علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية » المشار إليه إن شاء فى الموضوع استطالة [١٤] .

★ ★ ★

(*) وقع «كوندرسيه» فى نفس الخطأ الذى وقع فيه كثير من التطوريين بتجاهل مرحلة الزراعة البدائية أو الزراعة البعلية «غير المستقرة» .

المبحث السادس :

نظرية دوركايم تصنف المجتمعات البشرية من البسيط إلى المركب :

يقسم « دور كايم » المجتمعات إلى قسمين رئيسين،أولهما بسيط محدود النطاق وثانيهما معقد التركيب وواسع النطاق، أولهما لا يخضع لمبدأ توزيع أو تقسيم العمل والوظائف فيه غير مميزة والمسؤولية فيه جماعية تضطلع خلالها هيئة المجتمع بكل شئون الاقتصاد والتشريع والسياسة والتربية وغير ذلك من مستلزمات الحياة الاجتماعية، وثانيهما على العكس من ذلك، واضحة فيه وظيفة ومسؤولية وعمل كل فرد، وتقوم خلاله العديد من المؤسسات المتخصصة التى تمارس دورا محددا إلى جوار بروز الطبقات الاجتماعية وسيادة القانون (١٥) .

ويرى « دور كايم » أن أبسط الأشكال الاجتماعية هو الأسبق إلى الوجود، والأولى بالتالى عند أى تصنيف لتطور المجتمعات، وعلى كل فإن « دور كايم » قد أقام ثنائية بين نموذجين من المجتمعات أولهما "المجتمع Segmental "، وثانيهما "المجتمع المتباين Differentiated " (١٦) .

ويتميز النموذج الأول بالتجانس، نتيجة لضعف مستوى تقسيم العمل إلى درجة كبيرة، بحيث يكاد يكون ذلك التقسيم مقصورا على توزيعه أو تصنيفه وفقا لمعيارى الجنس والعمر. وينقسم هذا المجتمع - النموذج الأول - إلى وحدات قرابية متماثلة من الناحية البنائية، فالقرابة إذن هى أحد العوامل التى تسهم فى تكامله.

ويرى « دور كايم » أن التكامل الاجتماعى فى هذه المجتمعات هو نتيجة طبيعية ومباشرة للتضامن الآلى Meckanical Solidarity.

ويعكس هذا التضامن قيم المجتمع الجماعية، وضعف مستوى التخصص، كما أن الفرد - فى نطاق النمط الأول - لا يتمتع بشخصية مستقلة أو بكيان مميز أو منفصل عن الجماعة التى ينتمى إليها ويستمد منها كل مقوماته، بل تذوب شخصية ذلك الفرد تماما فى نطاق الضمير الجمعى، ولذلك يشيع - أو يسود - فى هذا

المجتمع، قانون عقابى له قوة الردع لكل من يحاول انتهاك النظام الاجتماعى العام، أو الخروج على معايير الجماعة وتقاليدها والعرف السائد فيها (١٧) .

★ ★ ★

المبحث السابع :

طبيعة التنظيم الاجتماعى وفق معايير فيتشن البنائية :

اقترحت « فيتشن » معيارها البنائى ذا النقاط الخمس، حتى يمكن على أساسه التمييز بوضوح بين طبيعة التنظيم الاجتماعى لثلاثة مجتمعات مختلفة أو متباينة هى المجتمعات البدائية والقروية والحضرية وفقا أو على أساس المعايير أو القواعد الخمس التالية :

(أ) نظام القرابة :

تعتبر القرابة هى المحور الأساسى فى بناء المجتمع البدائى، بينما تشكل التنظيمات الاختيارية والتعاقدية مبدأ أساسيا للتنظيم الاجتماعى فى المجتمعين القروى والحضرى (*) .

(ب) درجة الاكتفاء الذاتى :

ترتبط المجتمعات البدائية ارتباطا وثيقا بالجماعات القرابية الأكبر منها، على عكس الوحدات العائلية والسكنية فى المجتمعين القروى والحضرى، حيث يكاد يكون لكل منهما اكتفاؤها الذاتى.

(*) هذه النقطة فيها نظر ، صحيح أن الخلاف أو التباين واضح ومؤكد بين كل من المجتمعات البدوية أو البدائية كما ذكرت « فيتشن » وبين المجتمعات القروية والحضرية، ولكن الأمر الذى غاب عن فطنة «فيتشن» هو ذلك التطابق المستحيل بين المجتمع القروى والمجتمع الحضرى، فضلا عن أننا نرى أن ما بين النموذج الأول - البدوى أو البدائى - وبين النموذج الثانى - القروى أو الريفى - أقرب فى كثير من الخصائص والسمات والتنظيمات والمؤسسات من التشابه أو التطابق الذى ذكرته « فيتشن » بين مجتمع القرية ومجتمع المدينة مع تسليمنا بوجود تشابه كبير بين بعض الخصائص والسمات المجتمعية .. لاسيما على المستوى الإقليمى أو المحلى . وهذا أمر تشترك فيه النماذج المجتمعية الثلاثة البدوية والريفية والحضرية ولكن بدرجة صدق أكبر أو ثبات أكثر بين المجتمعين البدوى والريفى .

(جـ) أهمية المجتمع المحلى:

المجتمعات القبلية تدين بولائها للجماعات القرابية بغض النظر عن بعدها الجغرافى أو المكانى، وعلى العكس من ذلك نجد أن المجتمع القروى مثلا تبرز فيه عدة ارتباطات محلية قوية وفعالة بين القرويين فى نطاق مجتمعهم المحلى.

(د) الترابط بين أبنية الوحدات الاجتماعية المختلفة والمجتمع الكلى:

فى المجتمع القروى تتساوى الوحدات الاجتماعية ولا يوجد بينها تمايز أفقى، وعلى عكس ما هو معروف عن المجتمع البدائى حيث تتداخل البدنات بعضها مع بعض وتتمايز تلك الوحدات فقط فى درجة علاقاتها مع العشائر [١٨] .

(هـ) درجة المشاركة أو التكامل مع مجتمع أو مع ثقافة أوسع:

حيث ترى « فيتشن » أن القرويين على عكس أفراد المجتمع البدائى يمثلون - أى القرويون - جزءا من مجتمع [١٩] .

وواضح أن هذا المعيار البنائى الذى اعتمدته « فيتشن » ما هو فى الحقيقة إلا معيار وصفى قصدت به فقط التفريق بين الملامح الأساسية للمجتمعات البدائية والريفية والحضرية دون أن يهدف أصلا إلى إيضاح كيفية تطور المجتمعات البشرية، وإن كان ذلك فى حد ذاته قد أسهم بطريقة غير مباشرة فى توضيح التدرج الطبيعى لتطور المجتمعات البشرية وهو ما دفعنا إلى الأخذ بهذا المعيار كأحد الآراء الموضحة أو المفسرة لكيفية تطور المجتمعات البشرية.

★ ★ ★

المبحث الثامن:

المجتمعات تتطور من خلال ما يجابهها من تحديات فى رأى توينبى:

اقترح « توينبى Toynbee » مبدأ التحدى والرد عليه خلال تفسيره للكيفية التى قام عليها أو التى نهض على أساسها المجتمع المصرى القديم، وكدليل على أن المجتمعات تتطور من خلال مواجهتها للتحديات وخصوصا تحديات الطبيعة.

ويؤكد « توينبى » أن كل تحد طبيعى كان يواجه بمجهودات بشرية للرد عليه وهكذا حتى أنجزت البشرية ممثلة فى المجتمع المصرى القديم إنجازات عظيمة كالأهرامات مثلا (٢٠) .

ومن هنا كان تطور المجتمعات مرتبطا بالضرورة ليس فقط بوجود تحديات وإنما يرتبط ذلك التطور بالدرجة الأولى بمدى قبول تلك المجتمعات للتحديات المفروضة عليها وبذلها جهودا ضخمة من أجل مواجهة أو التغلب على تلك التحديات (٢١) .

★ ★ ★

المبحث التاسع :

تطور المجتمع وفق نظرية الثورة المدنية عند تشيلد :

من رأى « تشيلد Childe » أن التاريخ - تاريخ الشعوب والأمم - يبدأ بتغيير جوهرى فى المجتمع، بمعنى أن كل فرد فى المجتمعات البدائية والمبكرة - على سبيل المثال - كان سيد نفسه وفى غنى عن الآخرين، حيث يتولى الفرد بنفسه إنتاج قوته، وإعداد ملابسه ومسكنه، وصنع أدواته وأوعيته وسلاحه، وهو الذى يقوم بعملية المبادلة أو المقايضة، ليستبدل شيئا لا يحتاجه بشىء آخر يحتاج إليه من منتجات الآخرين.

ولكن بدأت المصالح تتشابك والأمور تتعقد، وكان من الضرورى قيام تخصصات بعينها، فضلا عن نشوء أو بروز مهن أو حرف جديدة، الأمر الذى نتج عنه تحسن فى الزراعة وازدياد وتنوع فى مصادر الثروة، ونمو فى عدد السكان، ورقى فى الفنون، كما نشأت الحاجة إلى وجود اتفاقات متعارف عليها لتسيير مختلف علاقات الناس وتنظيم أمور حياتهم، وترتب على ذلك كله نشأة التنظيمات الإدارية المختلفة، فضلاعن بروز وتطور القوانين العامة ووضوح دورها، وكذلك نشأة الأديان القديمة والأديان القومية.

ويسترسل «تشيلد Child » خلال عرضه لنظريته تلك، موضحا أن ذلك كله - أى مظاهر الثورة المدنية - أدى بالضرورة إلى قيام دولة عظيمة الشأن فيها طبقة

من الموظفين لتسيير الأعمال سواء ما كان منها دنيويا أو كهنوتيا، « أى دينيًا » فضلا عن بروز حاجة ملحة لتوافر قوة ما. قد تكون بوليسية أوحربية - لتضمن امتثال الناس لطقوس الديانة وأوامر القانون.

وطبعا لن تحقق تلك الإجراءات أهدافها مالم تكن مكتوبة، ومن هنا نشأت الحاجة إلى الكتابة (٢٢) .

والنتيجة كما انتهى إليها « تشيلد » ومن خلال نظريته عن الثورة المدنية، أن أصبح الفرد متخصصا فى حرفة معينة عليه أن يتقنها وأن يتفانى فيها بكل مواهبه وإمكانياته، كما صارت الجماعة أكثر استقلالية وبعدا عن المجتمع الصغير الذى تميز باتصال الناس ومعرفة كل واحد منهم للآخر حق المعرفة فضعفت شخصية الفرد وأصبح واحدا وسط ملايين الناس، وساد قانون الدولة ودينها ونظامها أو نظمها وعلى النحو السابق لنا توضيحه.

★ ★ ★

المبحث العاشر:

المجتمع البدائى ومجتمع المدينة طرفا نقيض عند ريدفيلد:

يطلق علماء الحضارة على هذه النظرية نظرية « المجتمع الشعبى »، ويطلق عليها علماء الاجتماع وعلماء الأنثربولوجيا نظرية « الاستمرار من البدائى إلى المدنية»، والمهم هنا أن « ريدفيلد Redfield » يبرز خلال نظريته عن «مراحل تطور المجتمع»، ومن خلال تصوره لخصائص مجتمعين على طرفى نقيض، أولهما: المجتمع البدائى الذى يتميز بالبساطة وعدم التعقيد والانعزال والتشابه فى سلوك أفراده، إلى جانب جهلهم بالقراءة والكتابة، فضلا عن صغر حجم المجتمع البدائِى وتوحد وقوة وتماسك وتجانس أفراده، وقيام اقتصاد ذلك المجتمع البدائى على الاكتفاء الذاتى، واستناده أو اعتماده على الروابط العائلية، وارتكاز الصلة بين افراده على أسس شخصية أو قرابية، فضلا عن حرص ذلك المجتمع على المعتقدات الدينية

والعادات والأعراف إلى جانب خضوع معظم تصرفات الناس، إن لم تكن كلها داخل المجتمع البدائى، خضوعا تاما للتقاليد المجتمعية والأعراف العشائرية (٢٣) .

أما المجتمع الثانى: أو النقيض للمجتمع البدائى فهو مجتمع المدينة بتعقده وكبر حجمه وتباين سلوكيات أفراده وتفككه وضعف الروابط الاجتماعية فيه، وكذلك نمو الفردية والمادية بين مختلف وحداته، و سيادة القانون وبروز التخصص ووضوح دور العلوم فيه كذلك.

وارتكاز الصلات والعلاقات خلاله على أسس غير شخصية، وليس للعائلة فيه، أو للتقاليد سوى أهمية ضئيلة، ومجتمع المدينة فضلا عن ذلك كله مجتمع تنتشر فيه القراءة والكتابة وما يستتبعهما من معارف وفنون.

ومجتمع المدينة بغير شك كذلك مجتمع يتصف بالمرونة وبعيد كل البعد عن الجمود أو التطرف ويزخر بالحركة والنشاط والتنافس والصراع.

وواضح أن « ريد فيلد Redfield » قد وضع مجتمعين مثاليين على طرفى نقيض ووضع بينهما مقياسا أو سلما يجعل القرب من أحدهما بعدا بالضرورة عن الآخر (٢٤) .

هذا وقد عرَّف « ريد فيلد » المجتمع المحلى الصغير من خلال أربع خصائص هى :

(أ) التمييز Eisinctivness بمعنى أن بداية ونهاية الحدود الإقليمية للمجتمع المحلى واضحة ومعروفة.

(ب) الصغر Smallness. وذلك من حيث الحجم أو المساحة.

(جـ) التجانس Homogenatiy بمعنى أن الأنشطة والحالات العقلية تتشابه إلى حد بعيد لدى كل الأفراد الذين ينتمون إلى جماعات جنسية أو عمرية واحدة، كما أن مستقبل جيل معين يعكس بالضرورة حياة الجيل الذى يسبقه.

(د) الاكتفاء الذاتى Self-Sufficuncy، أى إن المجتمع المحلى الصغير يغطى كافة الأنشطة والاحتياجات الخاصة بالأشخاص الذين يقيمون فيه أو ينتمون إليه (٢٥) .

كما عاد « ريدفيلد » فى مقال لاحق، وعرض خصائص المجتمع الشعبى بوصفه مجتمعا صغيرا، منعزلا، أميا، متجانسا، يسود لدى أعضائه والمنتمين إليه شعور قوى بالتضامن الجماعى، والسلوك فيه تقليدى وتلقائى وشخصى [٢٦](*) .

★ ★ ★

المبحث الحادى عشر:
هل لتطور المجتمعات البشرية علاقة بنظرية الاغتراب عند ماركس وإنجلز؟!

تهدف نظرية الاغتراب عند « ماركس » إلى محاولة تفسير مختلف العمليات التى من شأنها أن تباعد بين الناس وبين حياتهم البدائية الأولى.

وترتكز نظرية « ماركس » فى الاغتراب على دعامتين أساسيتين، أولاهما: نظرة « ماركس » إلى مرحلة الشيوعية البدائية، وثانيتهما: أسلوب الإنتاج كمعيار أساسى لتفسير الحضارة عند « ماركس ».

ومجمل ما تؤكده نظرية «الاغتراب» أن الإنسان ينفصل عن بيئته الطبيعية التى يُعد جزءا منها، فلا تصبح علاقات ذلك الإنسان مع بيئته ودية أو مباشرة.

ومعنى هذا أنه على الرغم من تطور المجتمع من البدائية إلى مرحلة حضارية أكثر تقدما نتيجة لإحكامه - أى المجتمع - السيطرة على الطبيعة بما استحدثه ذلك المجتمع من وسائل تكنولوچية وما تستتبعه تلك السيطرة من نمو فى قواه الإنتاجية.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الإنسان - فى رأى « ماركس » - لا يشعر بالسعادة على طول الخط لأن الآثار الناشئة عن التطور ليست كلها بالضرورة آثارا

(*) لسنا نوافق « ريد فيلد » على كثير من افتراضاته المثالية خاصة فيما يتصل بالخطوط الفاصلة أو السمات الحديثة التى افترضها للتعبير عن مجتمعين متناقضين وهما المجتمع البدائى والمجتمع المدنى .

وإن كنا نتفق معه فى ذات الوقت فى صحة تمثيل أو حسن تعبير تلك الخصائص عن الكثير من المجتمعات البدوية والريفية والحضرية ، ومن ثم صدق وجود هذه السمات والخصائص فى تلك المجتمعات لكن بدرجات متفاوتة حسب وضعية التقدم الحضارى فى كل منها .

طيبة، نظرا لما يصاحب تلك الآثار أو ينبثق عنها من شرور وآثام تتضاعف كلما تقدمت الحضارة، ولعل من أبرز مشاعر الخيبة هذه عند «ماركس» هو الاغتراب (*) .

وعلى الجانب الآخر وصف «إنجلز» المجتمع البدائى - أو المجتمع الشيوعى البدائى كما يحب أن يسميه - خلال تركيزه على مستوى التطور التكنولوجى والاجتماعى لهذا المجتمع، فيقرر « إنجلز » وهو الشريك الأساسى لـ «ماركس»، أن معرفة الإنسان البدائى لقوى الإنتاج كانت معرفة محدودة جدا، فالطبيعة بالنسبة له عالم غامض تسيره قوى مجهولة، ومن هنا، ووفقا لتصور « إنجلز » عاش الإنسان البدائى حياته يوما بيوم لا يعرف غير الضرورى وبالكاد (٢٧) .

ومن المميزات التى رآها « إنجلز » فى المجتمعات البدائية ما يتوافر لهذه المجتمعات من حرية ومساواة، وإن لم يكن هناك نظام لتقسيم العمل فإن العمل للجميع وبالجميع، واعتبر « إنجلز » الإنتاج فى هذه الحالة عملية اجتماعية شيوعية، كما أدى عدم وجود نظام للملكية داخل المجتمعات البدائية فضلا عن عدم وجود نظام للطبقات بما يستتبعه من ضرورة وجود طبقة مستغلة أو مسيطرة.

كما تخلو كل المجتمعات البدائية من سيطرة أو احتكار المنتجين لمختلف عمليات الإنتاج، وذلك نظرا لأن الإنتاج يتم أصلا فى أضيق الحدود (٢٨) .

وكنتيجة مباشرة لهذه المميزات - فى رأى « إنجلز » - فقد ارتبط كل أفراد المجتمعات البدائية ووحداتها المختلفة بعضهم ببعض برباط وثيق على أساس من التكامل الذى يسهم خلاله كل واحد بما هو متاح لديه من قدرات وإمكانيات كما يحصل على احتياجاته مما ينتجه المجتمع ككل.

ومن هنا كان ارتكاز « ماركس » فى تفسيره للاغتراب.. على أساس أن الفرد الذى كان منطلقا أيام مجتمعه البدائى أصبح الآن مقيد الحركة بفعل مجموعة من

(*) انهار النظام الماركسى الشيوعى ، والذى تمثل فى الاتحاد السوفيتى السابق ، حيث تفكك المجتمع السوفيتى وانهار وتحول إلى دول ودويلات مازالت انهياراتها تحدث دويا حتى الآن فى « الشيشان » وغيرها من دول « الاتحاد الروسى » الذى قام أو نهض على أنقاض الإمبراطورية السوفيتية السابقة التى انهارت قبل نهاية القرن العشرين بعقد من الزمان .

الحدود والحواجز التى باعدت بينه وبين الطبيعة، وتتمثل تلك الحدود والموانع فى مختلف مظاهر الحياة الحضرية وعلى الأخص ما اتصل منها بالإنتاج كالآلات والأدوات والمعدات، التى اعتبرت - فى ظل نظرية الاغتراب - سلاحا ذا حدين، فهى التى تمكن أو تساعد الإنسان على السيطرة على قوى الطبيعة التى كان مجهولها فى الماضى يشكل العائق الرئيسى المتسبب فى تخلف ذلك الإنسان، وهى أيضا - أى تلك الآلات والأدوات والمعدات - التى باعدت بينه وبين الاتصال المباشر بالطبيعة.

وليس تطور وسائل الإنتاج وحده هو الذى يؤدى إلى الاغتراب - فى رأى «ماركس» - وإنما يفعل تقسيم العمل نفس الشىء نتيجة لظهور طبقة ما وسيطرتها على مقدرات وحياة الآخرين.

ثم يمضى « ماركس وإنجلز » فى تصوراتهما عن تطور المجتمعات البشرية وفقا لنظرية الاغتراب، فيقرران أن المجتمع البرجوازى يمثل ذروة الاغتراب أو منتهاه، حيث يجد الإنسان نفسه وقد صار عبدا لأدوات ووسائل وأساليب إنتاجية كان فى ذهنه وهو يبتكرها أن تكون تحت إمرته ورهن إشارته، ولكن الذى حدث هو العكس وصارت قمة الاغتراب كما يتصورها « ماركس وإنجلز » من خلال المجتمع البرجوازى، أن صار الآسر أسيرا [٢٩] .

وليس من المهم أن تكون نظرية « الاغتراب، مطلبا أو هدفا مباشرا لدراستنا التى نحن بصددها الآن،و خصوصا أنها - أى النظرية - والفكر الشيوعى الذى كان وراء ظهورها أصبح - مع النظرية - فى ذمة التاريخ بعد انهيار «الاتحاد السوفيتى» ومعسكره الشيوعى أو الاشتراكى، لكن الأهم أو المهم أن: « نظرية الاغتراب » هذه تلقى الضوء على مجموعة من خصائص المجتمعات البدائية كما رآها أو تصورها كل من « ماركس وإنجلز » وهو ما يعنينا فى هذا المجال، خصوصا إذا ما نحينا جانبا ما تضمنته هذه «النظرية» من أفكار وآراء سياسية كانت موجهة لخدمة أهداف معينة يمكن أن تتضح لو راجعنا النظرية السوسيولوچية عند « كارل ماركس » ضمن

مؤلفنا عن « معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر» السابق الإشارة إليه [٣٠](*).

هذا ويمكننا تصنيف المجتمعات البشرية من خلال فكر ومنظور « ماركس » و «إنجلز» إلى الأنماط السبعة الآتية :

١ - المجتمع البدائى أو القبلى.

٢ - المجتمع الآسيوى.

٣ - المدينة الأثرية.

٤ - المجتمع الجرمانى.

٥ - المجتمع الإقطاعى.

٦ - المجتمع الرأسمالى البرجوازى.

٧ - المجتمع الشيوعى، وهو المجتمع المثالى عند كل من «ماركس و «إنجلز» [٣١].

★ ★ ★

المبحث الثانى عشر:

قيام المجتمعات وتطورها وفقا للنظرية الاجتماعية:

ترتكز النظرية الاجتماعية فى تفسيرها لكيفية قيام المجتمعات البشرية وتطورها، على حقيقتين أساسيتين أو على ركيزتين رئيستين تتعلق أولاهما بنشأة الحياة الاجتماعية، وثانيتهما تتعلق بطبيعة الحياة الاجتماعية ذاتها، حيث توضح الحقيقة الأولى أن الإنسان حيوان اجتماعى وأن نزوعه إلى الاجتماع مع غيره سلوك فطرى أو تلقائى أو غريزى.

كما تبرز الحقيقة الثانية أن طبائع المجتمعات متنوعة، وأنها ليست من معدن واحد [٣٢] .

(*) ما لبثت دعاوى « ماركس و إنجلز » وما كان يمثلها أو ينهض على أساسها وهو الاتحاد السوفيتى السابق ، أن انهارت كل تلك الدعاوى مع انهيار الاتحاد السوفيتى فى نهاية القرن الماضى .

ومن هنا يمكن التمييز بين «ثلاثة» أشكال رئيسة للمجتمعات، كما يمكن لنا تلخيصها على النحو الآتى :

١ - المجتمعات البدائية :

أو ما يعرف بالمجتمعات غير التاريخية، ويمكن أن تتمثل تلك المجتمعات فى البطون والأفخاد أو العشائر أو القبائل القديمة، وتعتبر هذه المجتمعات من أقدم مظاهر الحياة الاجتماعية، وتتميز ببروز دور الدين وصبغته لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية.

٢ - المجتمعات القديمة :

وتتمثل هذه المجتمعات فى المدن والإمبراطوريات القديمة ومن أبرز خصائصها، خضوعها للعرف والتقاليد وللنظام الطبقى مع تقلص سيطرة الدين أو انكماش دوره إلى حد ما.

٣ - المجتمعات التاريخية والحديثة :

وهذه المجتمعات يمكن أن تتمثل فى الدول القومية والإمبراطوريات الحديثة، ومن أبرز ملامحها بروز سيطرة القانون، ووضوح ضعف دور الدين وقلة أو انعدام دور وتأثير العادات والتقاليد والأعراف وغير ذلك من الموروثات الشعبية [٣٣] .

★ ★ ★

المبحث الثالث عشر :

نظريات تفسيرية أخرى لنشأة المجتمع وتطوره :

لاتزال هناك مجموعة أخرى من النظريات التفسيرية لكيفية نشأة المجتمعات الإنسانية وتطورها، ونحن سنذكرها إجمالا وباختصار شديد، فقد سبق لنا بطريقة أو بأخرى التعرض لها خلال هذا الكتاب.

وعلى كل نحن سنذكر هنا بعض هذه النظريات بإيجاز شديد وعلى الوجه التالى :

أولا - نظرية التعاقد الاجتماعى:

تنهض النظرية التعاقدية على ركيزتين أو مقولتين أساسيتين، أولاهما : أن هناك حالة فطرية سابقة على الوجود أو التنظيم الاجتماعى، أما الركيزة الثانية : فتنطلق من اعتبار أن أفراد المجتمع الإنسانى لجأوا إلى التعاقد لإتقان أو ابتكار حياة اجتماعية منظمة تمكنهم من مواجهة مصالحهم المتشابكة وأحوالهم المعقدة.

والخلاصة - فإن المجتمع المتطور نشأ صناعيا - أى لم ينشأ تلقائيا وإنما نشأ ذلك المجتمع فى رأى أصحاب النظرية التعاقدية بإرادة تعاقدية حرة للأفراد والجماعات.

ثانيا: النظرية الأنثربولوچية:

وتبرز النظرية الأنثربولوچية - فى رأى أصحابها - وفقا لمنظور خاص، وهو أن المجتمع البشرى ما هو إلا وليد تطور حياة الإنسان من الكهف إلى القرية ثم إلى المدينة.

ويرى أصحاب تلك النظرية الأنثربولوچية أيضا أن المجتمع قد مر فى تطوره بأربع مراحل أو أربعة أشكال هى :

(أ) مرحلة الصيد البرى والنهرى والبحرى، إلى جوار قطف الثمار واستخراج الجذور الدرنية القريبة من سطح الأرض.

(ب) مرحلة الرعى، وتعتمد على رعى الأنعام « الحيوانات » مع ممارسة الزراعة البسيطة.

(جـ) مرحلة نشوء المدن والأمصار، وما نتج عنها من قيام وتأسيس الإمبراطوريات والممالك القديمة أو التاريخية.

(د) مرحلة قيام الدول والقوميات الحديثة أو المعاصرة.

ثالثا: النظرية النفسية:

تحتوى هذه النظرية على مجموعة آراء متعددة لعدد من علماء النفس حيث فسرت هذه الآراء نشأة الحياة الاجتماعية استنادا على غريزة حب البقاء لدى الأفراد والمجتمع، كما تستند على غرائز الأبوة والأمومة، وقد يفسرها - نشأة

الحياة الاجتماعية - البعض منهم مرتكزا على عنصرى الخير والشر الكامنين فى الطبيعة الإنسانية وما ينشأ عنهما من صراع ينتهى بانتصار الخير على الشر.

كما يرجع بعض علماء النفس نشأة المجتمع إلى «غريزتى» حب السيطرة وحب الخضوع، والمجتمع هنا عندما ينشأ أو يتكوَّن - كما يتصور أصحاب ذلك الرأى - لا يكوَّن أو ينشأ إلا نتيجة لتسلط «محبى السيطرة»، وهم أقلية على «محبى الخضوع» وهم أكثرية.

كما يفسر بعض علماء النفس كذلك نشأة الحياة الاجتماعية استنادا إلى ظاهرة «التقليد» حيث يلجأ الناس إلى تقليد «الابتكارات» التى يأتى بها النابهون والعظماء ذوو الشأن فى المجتمع، وما تلبث هذه الابتكارات - بفعل التكرار أو الإشادة - أن تصبح جزءا من التراث الاجتماعى.

رابعا - النظرية البيولوجية «نظرية التركيب العضوى»:

يعتقد أصحاب النظرية البيولوجية أن المجتمع فى تطوره إنما يشبه الكائن الحى ويسير فى تطوره وفق القوانين التى تسير عليها الظواهر البيولوجية، وبالتالى فإن المجتمع يخضع - هو الآخر - فى تطوره ونموه لقانون الأدوار أو الحالات الثلاثة التى يخضع لها بالتالى نمو الفرد، وهى أدوار أو حالات الطفولة والرجولة والشيخوخة.

خامسا - نظرية التفاعل أو الصراع الاجتماعى:

وترجع هذه النظرية الفضل فى نشأة الحياة الاجتماعية إلى تفاعل العلاقات بين الأفراد، حيث أدى النمو المتزايد فى هذا التفاعل وسرعة تطوره إلى قيام الحياة الاجتماعية المستقرة [٣٤].

وقد لقيت هذه النظريات «انتقادات» عديدة، لعل من أهمها :

(أ) أنها لا تعبر أو تنطلق من حقائق موضوعية بقدر ما تعبر عن آراء شخصية لأصحابها.

(ب) هذه النظريات خلطت بين طباع الأشياء كتصورها وجود تماثل بين المجتمع والمركب العضوى من جهة. وبين المجتمع والنفس البشرية من جهة ثانية، وبين المجتمع والغرائز الحيوانية والإنسانية من جهة ثالثة. والنتيجة.. أن هذا الخلط جعل ذلك التماثل المزعوم ليس مستندًا أو قائما على أساس علمى.

(جـ) فى الوقت الذى عجزت فيه تماما هذه النظريات عن تفسير طبيعة المجتمعات البشرية، راحت تلك النظريات تفسر بعض مظاهر الحياة الفردية، والعكس كان هو المطلوب تماما [٣٥] .

(د) هذه النظريات نهضت على أساس خاطئ عندما تعاملت أو نظرت إلى المجتمعات ككل ضاربة عرض الحائط بخصوصية تلك المجتمعات.

(هـ) وبالتالى اقتصرت صلاحية كثير من هذه النظريات على عدد محدود أو غير كثير من المجتمعات البشرية، ومن ثم لا يمكن فى كل الأحوال تعميمها أو اتخاذها أساسا لتفسير التطور الإنسانى، ومن أوضح النظريات فى ذلك، نظرية « الصراع أو التفاعل الاجتماعى »، حيث لا تصدق هذه النظرية - إن صدقت - إلا على المجتمعات الصناعية فقط.

(و) والنتيجة المنطقية أو النهائية لذلك النقد، هى فساد تلك النظريات وعدم صلاحيتها للتعميم أو التطبيق - إن صلحت - إلا بالنسبة لعدد محدود من المجتمعات وبالكاد، الأمر الذى وضع تلك النظريات خارج نطاق الموضوعية أو الصدق ووصمها باللاعلمية، ومن ثمَّ بالفساد [٣٦] .

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ١٠٢ .

(أ) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٨ - ٢٤٨ .

(ب) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع في عالم متغير ، مصدر سابق ، ص ص ١٣٢- ١٥٠.

(٢) د. صلاح الفوال - المدخل لعلم الاجتماع الاسلامى - مصدر سابق - فى فقرات كثيرة منه .

(٣) د. صلاح الفوال -علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق - ص ص ١٣٢ - ١٥٠ ،

(٤) للاستزادة انظر: د . صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مرجع سابق - ص ص ١١٤-١٢٥.

(٥) د. صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية - مرجع سابق ص ص ٥٥ -٧٦، وانظر كذلك مؤلفنا علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق .

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٧) للاستزادة حول هذه النظرية التطورية الحديثة أو القديمة : أنظر دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق ص ص ١٩٩ - ٢١٨ .

(٨) للاستزادة حول هذه النظرية : انظر : مؤلفنا : علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق ص ص ١٥٥ -١٨٣.

(٩) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١١٩ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ص ١١٩ - ١٢٠ .

(١١) للاستزادة انظر : كتابنا : دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٣٤ - ٢٣٦ . وانظر أيضا : المصدر السابق - ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(١٢) Shmidt W. The Cuture Historical Method of Ethnolgy, New York, 1959 .

(١٣) للاستزادة انظر مؤلفنا عن « معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر» - مرجع سابق - ص ص ٤٥-٤٩.

(١٤) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - مرجع سابق ، ص ص٢٩ -٣٣ .

(١٥) انظر : الدكتور السيد الحسينى وآخرون - ميادين علم الاجتماع - مرجع سابق ، ص ١٨١.

(١٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق ، ص ص ٢٦٩-٢٨٩.

(١٧) انظر : دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر - مرجع سابق، ص ص ٨٣ -٩٨.

(١٨) انظر : علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مصدر سابق - ص ص ١٢١ - ١٢٣.

(١٩) للاستزادة انظر : دكتور حسين فهيم - بعض الاتجاهات الانثربولوچية فى الدراسات القروية - كتاب الحلقة الداسية لعلم الاجتماع الريفى فى ج م ع - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٧١ - ص ص ٥٧ - ٧٧ .

(٢٠) للاستزادة انظر جون ولسون - الحضارة المصرية - ترجمة أحمد فخرى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٥ - ص ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ١٢٣ .

(٢٢) انظر : V. Gordon Child, Man Makes Himself, London, 1936, pp. 157-201 . and : What Happend in History, Penguin Books, 1946, pp. 106-117.

(٢٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ص ١٢٤ - ١٢٥ ، المتن والهامش.

(٢٤) Robert Redfield, The FolkSociety. American Journal of Sociology, III, 1947, pp. 293-308.

(٢٥) انظر - بوتومور - تمهيد فى علم الاجتماع - ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرون - دار الكتب الجامعية - الاسكندرية ١٩٧٢ - ص ١٤٢ .

(٢٦) انظر - ميادين علم الاجتماع - مرجع سابق - ص ١١٧ ، وانظر أيضا - الفروق الريفية الحضرية فى بعض الخصائص السكانية للمرحوم الأستاذ الدكتور السيد محمد الحسينى والمرحوم الأستاذ الدكتور محمد على محمد ، ضمن كتاب الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى - مرجع سابق ص ٢٤٧ .

(٢٧) انظر : المرجع السابق - ص ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢٨) للاستزادة انظر مؤلفنا عن « معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر » - مصدر سابق - ص ص ٥٤-٥٥ .

(٢٩) انظر دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣٠) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق - ص ص ١٨٥-١٩٥ .

(٣١) وجه نيقولا تيماشيف مجموعة من الانتقادات للنظرية السوسيولوچية عند كارل ماركس وإنجلز يحسن الرجوع إليها ضمن كتابه « نظرية علم الاجتماع » السابق الاشارة إليه وكذلك الترجمة المشار إليها قبلا ص ص ٧٧-٧٩.

(٣٢) انظر : « المرحوم الاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب - علم الاجتماع ومدارسه - الكتاب الثانى - مطبعة لجنة البيان العربى - القاهرة ١٩٦٢ ص ص ١٥٠ - ١٥١ » للتعرف على الانتقادات الموجهة إلى تلك النظريات .

(٣٣) للاستزادة انظر - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - مصدر سابق، وانظر كذلك. د . صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٣٤) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٣٥) وانظر كذلك : دكتور مصطفى الخشاب - علم الاجتماع ومدارسه - الكتاب الثانى - مرجع سابق، ص ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٣٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ١٣٩ .

★ ★ ★

الفصل الثالث

إسهامات معاصرة تفسر تطور المجتمعات البشرية

- دور كايم يعاود تصنيف المجتمعات البشرية
- هربرت سبنسر وتصنيف المجتمعات البشرية
- تصنيف تونيز للمجتمعات البشرية .
- أشكال المجتمعات عند سمنر .
- أنماط المجتمعات والجماعات عند كولى .
- نظرة نقدية إلى التصنيفات السالفة .
- عودة إلى آراء وفكر ابن خلدون .
- قانون الحالات الثلاث عند كونت كأساس لتصنيف المجتمعات البشرية.
- أنماط تفسيرية معاصرة أخرى لتطور المجتمعات الإنسانية .

إسهامات معاصرة تفسر تطور المجتمعات البشرية

مقدمة:

حتى تكتمل الصورة لابد لنا هنا أن نذكر ولو فى إيجاز بعضا من الآراء التى قد تكون مغايرة أو موافقة لوجهات النظر الأخرى التى أُعلن عنها قبلا سواء كانت لنفس الباحثين أو العلماء أو لغيرهم، واختلاف وجهات النظر تلك بالسلب أو بالإيجاب إنما يرتكز على القدرات والإمكانات الشخصية لكل واحد منهم علاوة على تخصصه والمنهج المستخدم فى البحث.

وعلى كل فإننا سنحاول أن نبرز وجهات النظر تلك، لنبين - قدر المستطاع - مختلف الاسهامات المعاصرة والمفسرة لتطور المجتمعات الإنسانية، وذلك من خلال المباحث التسعة التالية [1] (*) :

★ ★ ★

المبحث الأول:

دوركايم يعاود تصنيف المجتمعات البشرية:

يرتكز « دور كايم Durkheim » فى تصنيفه المعدَّل للمجتمعات الإنسانية أو البشرية على أساسين:

(أ) المعيار أو الأساس الأول:

هو معيار مورفولوچى: حيث يرى «دور كايم » أن أبسط الأشكال الاجتماعية كانت هى الأسبق إلى الوجود، وبالتالى جاءت هى الأولى عند أى تصنيف.

(*) هذا وقد توجد مجموعة أخرى سواء من النظريات أو الاجتهادات التى تحاول تقديم تفسير مقبول لتطور المجتمعات البشرية وسنتحدث عنها إن شاء الله ببعض التفصيل خلال المبحثين السابع والثامن من هذا الفصل .

(ب) الأساس أو المعيار الثانى:

ويعتمد هذا الأساس على مدى تماسك الوحدة الاجتماعية، ومدى قدرتها كذلك على أداء وظائفها، ومن هنا كان تقسيم «دور كايم» للمجتمعات البشرية مرتكزا على أنها :

١ - إما أن تكون مجتمعات بسيطة التركيب محدودة النطاق لا تخضع لمبدأ تقسيم العمل وغير مميزة أو محددة الوظائف، وبناء على ذلك فقد رأى «دور كايم » أن أول نموذج افتراضى لنشأة الحياة الاجتماعية هو المعشر ثم العشيرة ثم الاتحاد ثم القبيلة،ويرى «دور كايم » أيضا أن القبيلة كانت هى أكثر تلك النماذج تقدما، وأن الدين كان له تأثير كبير فى الحياة الاجتماعية لتلك النماذج المجتمعية جميعا (٢)(*) :

٢ - وإما أن تكون على عكس سابقتها، مجتمعات معقدة التركيب مميزة الوظائف واسعة النطاق، ومن أمثلتها الإمبراطوريات القديمة والمدن.

★ ★ ★

المبحث الثانى:

هربرت سبنسر وتصنيف المجتمعات البشرية:

ارتكز « هربرت سبنسر Herbert Spencer » فى تصنيفه للمجتمعات على أساسين، أولهما «التكوين» المورفولوچى وثانيهما «الوظيفة» الاجتماعية، والمجتمعات فى رأى « سبنسر » من حيث تكوينها المورفولوچى تنقسم إلى مجتمعات بسيطة، وأخرى مركبة، ويفترض « سبنسر » أن المجتمعات تبدأ بسيطة ثم تتجه من خلال نموها إلى التنوع والتعقيد، وهو يرى كذلك أن التطور والرقى يشكلان هدفا أساسيا للمجتمعات الدنيا أو البسيطة، كما يرى «سبنسر» أيضا أن التجمعات البسيطة قد تتوحد وتنصهر فى تجمعات أكبر بفعل القوة أو الغزو (٣)(**):

(*) هذا القول « فى رأينا - لا يعبر عن حال القبيلة إلا عندما تستقر وتدع الترحال وتبحث عن عوامل التقدم الاقتصادى، وأولها بطبيعة الحال الاعتماد على الصناعات البيئية فضلا عن الصناعات التحويلية للمواد الخام المتوافرة داخل المجتمع البدوى المحلى .

(**) «ابن خلدون» هو أول من أثار هذه النقطة وقال صراحة أن البدو غايته التحضر والعمران ولنفس الأسباب تقريبا فضلا عن عاملى الدين والعصبية، انظر فى ذلك مؤلفنا عن «البداوة العربية والتنمية» السابق الإشارة إليه.

كما قسم « هربرت سبنسر » المجتمعات من حيث الوظيفة الاجتماعية إلى نموذجين أساسيين أولهما: مجتمع "حربى" يعيش أهله على القتال ويتم التعاون فيما بينهم عن طريق الإجبار، وثانيهما: مجتمع "صناعى" يحيا أهله على العمل ويسود بينهم التعاون الاختيارى (٤) .

هذا ويرى «بوتومور» فى مؤلفه المشار إليه قبلا أن « سبنسر » قد ميَّز بين أربعة انماط من المجتمعات هى :

(أ) مجتمعات بسيطة.

(ب) مجتمعات معقدة

(جـ) مجتمعات أشد تعقيدا.

(د) مجتمعات بالغة التعقيد(٥) .

★ ★ ★

المبحث الثالث:

تصنيف تونيز للمجتمعات البشرية:

ارتكز « تونيز F.Toennies » فى تصنيفه للمجتمعات على اعتبار أن المجتمع إما أن يكون مجتمعا محليا أو مجتمعا عاما، وهو أول من أطلق على المجتمع المحلى لفظ Gemenischaft وعلى المجتمع العام لفظ Ceselischaft وتصور «تونيز» أن المجتمعين المحلى Community والعام Society على طرفى نقيض بحيث نجد أن:

١ - المجتمع العام حقيقة عامة، بينما المجتمع المحلى وحدة محدودة النطاق.

٢ - بينما يخضع المجتمع العام لسيطرة القانون وتبرز فيه الروابط التعاقدية وتنمو فيه الطبقية، نجد المجتمع المحلى يسيره مزيج من سلطة الدين والعادات والتقاليد.

٣ - العواطف والمشاعر والمشاركات الجمعية لها الغلبة فى المجتمعات المحلية، بينما لا سلطان فى المجتمع العام لغير المصلحة الخاصة والمنفعة، ومن هنا يبرز دور التنافس والصراع والانتهازية.

٤ - أساس وحدة المجتمع المحلى هو الأسرة، بينما تلعب الجماعة الدور الأساسى فى المجتمع العام بتنوعها واختلاف مظاهر نشاطها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والدينى والثقافى... إلخ.

ويرى « تونيز » أيضًا أن تيار التطور الحديث قد جذب نحوه الكثير من مظاهر الحياة فى المجتمعات المحلية، فهو قد حد بذلك من شوكة العصبية الدينية والقبلية وقلل من أهمية كثير من الروابط المحلية إن لم يكن قد قضى عليها نهائيا.

كما أرجع «تونيز» الفضل فى ذلك كله إلى التطور الذى مكن الأفراد والجماعات من الانتقال من دائرة المجتمعات المحلية الضيقة أو المحدودة النطاق إلى مجال الحياة الاجتماعية الأرحب والأعم والتى لا وجود لها الا فى نطاق المجتمع العام (٦) .

★ ★ ★

المبحث الرابع:
أشكال المجتمعات عند سمنر:

ارتكز «سمنر G.Sumner » فى تصنيفه للمجتمعات على نمطين رئيسين من المجتمعات البشرية: أولهما داخلى Ingroups ، وثانيهما خارجى Outgroups.

وتصور «سمنر» أن كلا من المجتمعين على طرفى نقيض، فلو كان المجتمع «الداخلى» يمتاز بتضامن أفراده وشدة تماسكهم اجتماعيا، فلابد أن يكون النموذج الثانى «الخارجى» مغايرا للأول «الداخلى» تماما فى مشاعر أعضائه، بل ومتعارضا معه أو معاديا له كذلك فى كثير من المبادئ والأهداف.

وعلى هذا الأساس فإن مشاعر الأخوة ومظاهر التعاون والود إنما هى من سمات الجماعات «الداخلية» التى توحد تلك المشاعر بين أفرادها فى ذات الوقت الذى يشعر فيه هؤلاء الأفراد بالحقد والكراهية تجاه الجماعات الأخرى «الخارجية»، ومن هنا كان قول «سمنر » : إن المجتمعات «الداخلية» تسودها مشاعر وعلاقات مجمعة أو إيجابية بالنسبة لأفرادها، فى ذات الوقت الذى تسيطر فيه على تلك الجماعات «الداخلية» مشاعر مفرقة أو منفرة أو سلبية وموجهة بالدرجة الأولى للجماعات الأخرى «الخارجية» (٧).

★ ★ ★

المبحث الخامس :

أنماط الجماعات والمجتمعات الإنسانية عند كولى :

يرى « كـولى Coeley » أن المجـتـمـعـات ترتكز فى تكوينهـا على نوعين من الجـمـاعـات، «الأولى» هـى الجـمـاعـات «الأوليـة Primary Groups »، و«الثـانيـة» هـى الجماعات الثانوية Secondary groups .

ويبرُز النموذج «الأول» فى جماعات الأسرة والجوار وجماعات الأصدقاء والأندية الخاصة... إلخ، وهى جماعات تمتاز كلها بالترابط والتعاون والعلاقات المباشرة.

أمـا النمـوذج «الثـانى» فيـتـمـثل فى النقـابات والهـيـئات العـامـة، وبديهى أن العلاقـات بين أفـرادها لاتقـوم على المباشـرة مثل سـابقـتها، وإن كانت تتميـز بقـوة تأثيرها فى الحياة الاجتماعية وتعتبـر أثقل وزنا وأكثـر إيجابية فى صلتها بالمجتمع العام من الجماعات الأولية (٨) .

★ ★ ★

المبحث السادس :

نظرة نقدية إلى التصنيفات الخمسة السابقة :

هذا وقد وجه أستاذنا «المرحوم الدكتور مصطفى الخشاب» مجموعة من الانتقادات إلى كل تصنيف من التصنيفات السابقة:

فهو يرى مثلا أن تصنيف «دوركايم Dyrkheim » لا ينطبق إلا على المجتمعات المستقرة والثابتة التى نشأت واستقرت وتمتاز بالدوام وبالاتجاه إلى التكامل.

كما يرى أن تقسيم « سبنسر Spencer » أو تصنيفه للمجتمعات، فيه الصواب وفيه الخطأ، فقد سلم مع « سبنسر » أنه من الناحية «المورفولوچية» فإن المجتمعات تنقسم إلى بسيطة ومركبة، أما من ناحية «الوظيفة» فهو يخالف « سبنسر » حيث لا توجد حدود فاصلة بين مجتمعات صناعية وأخرى حربية. فضلا عن أنه توجد مجتمعات أخرى إلى جوار هذين النمطين، كالمجتمعات الزراعية التى ظهرت بعد

مرحلة «الصيد وقطف الثمار والرعى»، والتى يرجع إليها الفضل فى ظهور النظم والأوضاع والسنن الاجتماعية، فضلا عن أن المجتمع الصناعى لم ينشأ إلا بعد الثورة الصناعية فى العصر الحديث وبعد أن قطعت المجتمعات شوطا كبيرا على طريق التطور الاجتماعى.

كما يأخذ «المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى الخشاب» على «تونيز Teonnies» أن تقسيمه لم يستوعب مختلف أنواع النماذج الاجتماعية لأن المجتمع المحلى الذى عرضه إنما هو فى الواقع شكل متقدم عن نماذج اجتماعية أخرى عريقة فى القدم.

كما يأخذ على نظرية " سمنر Sumner " أنها تصلح لإلقاء بعض الضوء على طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل الجماعة وخارجها أكثر من صلاحيتها لتصنيف المجتمعات إلى نماذج متجانسة فضلا عما فى النظرية - نظرية سمنر - من خطورة لما ينشأ عنها من تفرد بيئى وانعزال اجتماعى يؤديان حتما إلى تعزيز التمييز العنصرى أو التمايز الطبقى، فضلا عما يجرانه من صراع عنيف بين الوحدات الاجتماعية والسياسية للمجتمع.

ومن رأى «المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى الخشاب» أيضا أن تصنيف العلامة الأمريكى « كولى Coeley » تقسيم خفيف الوزن ويجده لا يستحق عنده عناء المناقشة حيث لا يعالج هذا التقسيم إلا مظهرا واحدا من النماذج الاجتماعية وهو الجماعات فقط (٩) .

★ ★ ★

المبحث السابع:

عودة إلى آراء وفكر ابن خلدون حول تنميط المجتمعات الإنسانية:

قسم « ابن خلدون » المجتمعات التى عاصرها أو عايشها أو تلك التى أتيحت له الفرصة للاطلاع على تراثها، وقسمها إلى «نموذجين» رئيسين، يتناقض كل منهما مع الآخر على طول الخط، محاسن أيهما قبح بالضرورة للثانى، وبينهما صراع أزلى

يمتد عبر أجيال أربعة - هى عمر الدولة عند ابن خلدون - وينتهى بهرم الدولة وركوعها تحت أقدام قبيل غاز جديد قوى العصبية والشكيمة، ثم ما يلبث ذلك القبيل - بفعل الاستقرار والحضارة - أن يعتريه الضعف ويزداد ضعفه عبر الأجيال حتي يهرم ويشيخ ويصبح نهبا لغيره.. وهكذا [١٠] .

(أ) والنموذجان الرئيسان اللذان صاحبا ذلك الصراع الشهير كما حددهما «ابن خلدون » هما : البداوة والتحضر أو البدو والحضر.

(ب) ولندع « ابن خلدون » ليتحدث بنفسه عن النموذج الأول من المجتمعات قائلا :

« اعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة، أهل الخيام لسكناهم، والخيل لركوبهم، والأنعام لكسبهم، يقومون عليها، ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها، ويحملون أثقالهم على ظهورها، يتنازلون حللا متفرقة، ويبتغون الرزق فى غالب أحواله من القنص وتخطف الناس من السبل، ويتقلبون دائما فى المجالات فرارا من حرارة القيظ تارة وصبارة البرد أخرى، وانتجاعا لمراعى غنمهم، وارتيادا لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم » و « فهذه كلها شعائرهم وسماتهم، وأغلبها عليهم اتخاذ الإبل، والقيام على نتاجها، وطلب الانتجاع بها لارتياد مراعيها ومفاحص توليدها، بما كان معاشهم منها ».

ويستطرد « ابن خلدون » وهو يبرز بصورة أوضح معالم النموذج «الأول» قائلا [١١]:

« هؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون إليه » و«العرب - أى البدو - أبعد الناس عن الصنائع لأنهم أعرقهم فى البدو، وأبعد عن العمران الحضرى ».

أما عن النموذج «الثانى» فيرتكز على تعريف « ابن خلدون » للحضارة من خلال قوله : « إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه

ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله » [١٢] :

(جـ) وبصرف النظر عن كون هذا التعريف ناقصا إلا أنه صالح تماما لتوضيح مفهوم النموذج الثانى عند « ابن خلدون » والذى يعتبر أن : « أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا فى النعيم والترف، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى مواليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم » [١٣] .

(د) ثم يضع « ابن خلدون » أهل البدو وأهل الحضر وجها لوجه ويقارن بينهما بصفة مباشرة فيقول : « قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر - هم - المعتنون بحاجات الترف والكمالى فى أحوالهم وعوائدهم، ولاشك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه، لأن الضرورى أصل والكمالى فرع ناشئ عنه، فالبدو - هم - أصل المدن والحضر وسابق عليهما لأنه أول مطالب الضرورى، ولا ينتهى إلى الكمالى والترف إلا إذا كان الضرورى حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى إليها، وينتهى بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرياش الذى حصل له به أحوال الترف وعوائده عاد إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قيادة المدنية.. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم » [١٤] .

(هـ) « والحضرى لا يتشوق إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها، أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته ». وآية « ابن خلدون » فى ذلك « أننا إذا فتشنا أهل مصر من الإمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين - هم - بناحية ذلك المصر وفى قراه، أنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذى فى الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها».

(و) ولكن هل تسير كل المجتمعات البدوية أو الحضرية على وتيرة واحدة أم أن هناك تفاوتا فيما بينها ؟! وهل وجود هذا التفاوت شيء ضروري، وذلك هو ما يؤكده « ابن خلدون » حيث يقول :

«ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه : فرب حى أعظم من حى، وقبيلة أعظم من قبيلة، ومصر أوسع من مصر، ومدينة أكثر عمرانا (*) من مدينة » (١٥) .

(ز) هذا ويمكن أن نبرز أو نوضح خلاصة رأى « ابن خلدون » فى هذا الشأن على النحو الآتى :

١ - إن المجتمع يتكون من قطاعين رئيسين، أولهما القطاع البدوى، وثانيهما القطاع الحضرى، والقطاع البدوى أسبق إلى الوجود من القطاع الحضرى.

٢ - إن القطاع البدوى سائر حتما إلى التحضر عبر أجيال أربعة تبدأ من حالة البداوة إلى حالة الملك فحالة التحضر ثم حالة الهرم، وهى نهاية دورة حياة المجتمع البشرى عند « ابن خلدون » حيث تبدأ بعدها دورة جديدة وهكذا.

٣ - إن هناك فوارق ليس فقط بين النمطين الرئيسين فى المجتمع، ولكن بين البناء الاجتماعى لكل نمط على حدة، وقد تكون هذه الفروق بيولوجية بين الأفراد فى كل نمط، وقد تكون فروقا إيكلوجية أو حضارية بين الوحدات المحلية لكل من النمطين البدوى والحضرى على حدة (١٦) .

★ ★ ★

(*) الحى هنا بمعنى الحى السكنى أو القطاع العمرانى أو الإقليم الذى فيه بعض مسارح القبيلة وهو ما يقصده « ابن خلدون » فى هذا المجال .

المبحث الثامن:

قانون الحالات الثلاث عند كونت كأساس لتصنيف المجتمعات البشرية:

صنف « أوجست كونت A.Conte » المجتمعات طبقا لقانون الحالات الثلاث والمرتكز على نوعية المعرفة فى أى من المجتمعات، وبناء على ذلك يرى «كونت» أن المجتمعات تنقسم إلى ثلاثة أنماط رئيسية هى [١٧] :

١ - المجتمع العسكرى، وهو ذلك المجتمع الذى تفسر خلاله الأحداث والظواهر المختلفة بالرجوع إلى قوى غير طبيعية، وهو لذلك مجتمع متحكم ومتسلط، يعتمد على الزراعة وللأسرة فيه مكانة ممتازة حيث تعتبر هى الخلية الأولى أو الرئيسية، وتعد الأسرة بذلك أساس الوحدة الاقتصادية ومن خلالها تنتقل الملكية والسلطة [١٨] .

٢ - مجتمع الفقهاء، ويتميز ذلك المجتمع بوضوح السلطة الروحية عن السلطة الدينية، وتكون السيادة فيه لأفكار أخرى غير فكرة الدين، ومنها أفكار الوطن والدولة، وربما كان ذلك راجعا إلى أن النوازع الدينية فى مجتمع الفقهاء كما أوضحه « كونت »، قد صارت تلك النوازع الدينية موضع شك وجدل، وهذا المجتمع وإن كان معروفا عنه أنه مجتمع التفكك والأزمات والثورات إلا أنه ضرورى - فى رأى كونت - للتمهيد لظهور المجتمعات الصناعية [١٩].

٣ - المجتمع الصناعى، وهو ذلك المجتمع الذى يخضع فيه تفسير الأحداث والأشياء والظواهر إلى قوانين وضعية، ويرى « كونت » أن ذلك النمط هو قدر الإنسانية جمعاء التى لابد لها أن تصله يوما ما [٢٠] .

★ ★ ★

المبحث التاسع :

أنماط تفسيرية معاصرة أخرى لتطور المجتمعات الإنسانية :

توجد إلى جوار كل تلك الأنماط السابقة، أنماط أخرى كثيرة منها ما أورده «هنرى سمنر مين H.S.Main » عن المجتمعات ذات النمط "الأبوى" التى ترتكز على المكانة وضمنها كل المجتمعات القديمة التى تقوم على العلاقات الاجتماعية الأولية، والمجتمعات "التعاقدية" وضمنها كل الأنماط الحديثة للمجتمعات.

وما قدمه « هوارد بيكر H. Becker » كذلك عن المجتمعات الدينية أو المقدسة، والمجتمعات "الدنيوية" أو العلمانية، وكذلك ما أوضحه «بوبر K.Popper» عن المجتمعات المفتوحة والمجتمعات المغلقة (٢١) .

هذا إلى جانب ما قدمه « لويس ويرث L. Wirth » من خصائص للمجتمع «الحضرى» يمكن اعتبارها مقابلة لتلك الخصائص التى قدمها «ريد فيلد Redfield» عن المجتمع "الشعبى" السابق الإشارة إليها، المهم أن ما قدمه « ويرث » من خصائص للمجتمع "الحضرى" يمكن إيجازها فى النقاط الثلاث الآتية :

(أ) أن المجتمع "الحضرى" يتمثل فيه ضعف روابط القرابة والجيرة وتضاؤلها، وكنتيجة لذلك تظهر المنافسة وميكانزمات الضبط الرسمى لتحل محل روابط التضامن، والعلاقات السائدة فى المدينة تتميز بأنها ثانوية أكثر منها أولية، بالإضافة إلى أنها سطحية وانتقالية وانقسامية (٢٢) .

(ب) كما توجد عدة مقارنات بين المجتمعات، المجتمع القبائلى أو العشائرى «البدوى » فى مقابل المجتمع الحضرى أو «المدنى»، لعل من أهمها تلك المقارنة بين المدينة والقبيلة فى منطقة جنوب آسيا الغربى خلال مرحلة إنتاج الطعام، وهذه المقارنة جديرة بالتسجيل هنا على اعتبار أنها تبرز نوعين من المجتمعات أولهما : مجتمع "المدينة" وثانيهما : مجتمع "القبيلة".

(جـ) هذا ومن الخطأ أن نتوهم أن المدينة قد تنشأ من مجرد نزول القبيلة الراعية فى مكان ما حتى ولو كان بصفة دائمة، كما أنه من الخطأ أن

نتوهم كذلك أن القبيلة الراعية كانت أهل مدينة ارتحلوا عنها وتحللوا من قيودها، وليس أشد من الخلاف بين عقلية المدينة وعقلية القبيلة من نظرتهما إلى الحياة، فجماعة المدينة قائمة على الجوار، وتجىء القرابة عندهم فى المنزلة الثانية وربما الثالثة، أما القبيلة فتقوم على القرابة وما يلحق بها من التبنى وغيره، وفى المدينة تنمو الكتابة والتعاقد والالتزام بالقوانين، أما فى القبيلة فالسمات البارزة لها هى : الوعد بكلمة يقولهاالرجل، والمبايعة باليمين يقسمها، والاستمساك بطلب الثأر.

كما أصبحت فنون العمارة والهندسة وصناعة المعادن من خصائص المدينة تماما كما صارت صناعة الجلد وترويض الحيوان والانتجاع المنظم من خصائص القبيلة، وكان للعوامل الاقتصادية أثر كبير فى المدينة، وأما القبيلة فالذى يسيطر عليها هو العرف المرعى منذ زمن قديم علاوة على ما دخل عليه من المناسك الدينية، والمدينة قمينة - أو معنية - بقبول الغرباء وإدماج العناصر التى ليست منها فى حياتها، وأما القبيلة فعلى الرغم مما عندها من سنن الضيافة والقرى - أى الكرم - لا تبرح أن تكون فى صميمها مقصورة على نفسها، نافرة من غيرها (٢٣) .

★ ★ ★

المصادر

(١) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٥٢ - ٢٦٥.

(٢) للاستزادة انظر مؤلفنا عن « معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر » لتأخيذ فكرة أوضح عن أفكار دور كايم فى هذا الشأن ص ص ٨٦ - ٨٧ ، ص ص ٩١ -٩٢ ، وأنظر كذلك مؤلفنا - علم الاجتماع فى عالم متغير - ص ص ٢٧٦ - ٢٨٧.

(٣) حول هذا الموضوع أنظر : د . صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٩ . وللاستزادة انظر كذلك - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق ص ص ١٥١ - ١٦٧ .

(٤) Herbert Spencer : Descripitive Sociology, Vol. I (Lowestm aces) ‘ London , 1874.

(٥) انظر - بوتومور - مرجع سابق - ص ١٦٢ . وانظر أيضا مؤلفنا « معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر » مصدر سابق ، ص ص ٦١ - ٧٠ .

(٦) انظر مؤلفنا « معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر » ص ص ٧٥ - ٨٠ ، وأنظر ذلك مؤلفنا عن دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٧) انظر تيماشيف - مرجع سابق ، وانظر كذلك - دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٨) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٩) للاستزادة - انظر دكتور مصطفى الخشاب - مرجع سابق - ص ص ١٥٣ - ١٦٣ ، وانظر كتابنا - دراسة علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ٢٥٣ - ٢٦٤ .

(١٠) للاستزادة انظر الدراسة النقدية والمقارنة التى أعددناها عن فكر ابن خلدون ضمن كتابنا «البداوة العربية والتنمية » وعلى امتداب الباب الأول كله بفصوله الثلاثة ص ص ١٥ - ١٢٥.

(١١) للاستزادة انظر مؤلفنا عن « المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى » ص ص ١٧١ - ١٨٤.

(١٢) انظر مقدمة ابن خلدون - مرجع سابق ، فى مواضع كثيرة منه .

(١٣) للاستزادة - انظر مؤلفنا عن المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى - مصدر سابق - ص ١٨٣.

(١٤) المصدر السابق - ص ص ١٠٦ - ١٢٥ .

(١٥) انظر مقدمة ابن خلدون - مصدر سابق

(١٦) انظر: دكتور صلاح الفوال - المدخل لعلم الاجتماع الإسلامى - مصدر سابق - ١٨٠ - ١٨٤.

(١٧) انظر مؤلفنا عن « معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر » لتأخذ فكرة أوضح عن كونت وآرائه ص ص ٢١ - ٣٥ .

(١٨) للاستزادة : أنظر كذلك : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع فى عالم متغير - مصدر سابق ص ص ١٥١ - ١٦٨ ، ص ص ١٧٧ -١٩٥ ، ص ص ٢٠٠ - ٢١٤ .

(١٩) المصدر السابق - ص ص ١٦١ - ١٦٩ .

(٢٠) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوچى المعاصر - مصدر سابق - ص ص ٢١٣ - ٢١٥ .

(٢١) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .

(٢٢) انظر - السيد الحسينى ومحمد على محمد - مرجع سابق .

(٢٣) تاريخ العالم - ترجمة إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم - المجلد الأول - الطبعة الثانية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ص ٢٣٣ .

★ ★ ★

الفصل الرابع

كيف تطورت المجتمعات البدوية
وما موقعها على خريطة المجتمعات البشرية؟

- مقدمة
- مراحل تطور المجتمعات البشرية .
- متى نشأ عصر البداوة ؟
- إيفانز بريتشارد و تطور المجتمعات البدوية .
- ما المجتمع البدوى وما خصائصه ؟
- تعريف المجتمع البدوى .
- موقع المجتمعات البدوية المعاصرة .

مقدمة
حول كيفية تطور المجتمعات البدوية وما موقعها على خريطة العالم ؟!

يتطلب الرد على هذا السؤال الطويل.. كيف تطورت المجتمعات البدوية، وما موقعها على خريطة تطور المجتمعات البشرية ؟ أن نقول إن هذا السؤال.. يستلزم قبل أن نجيب عليه.. طوافا بمسيرة المجتمعات الإنسانية وهى تعبر بوابة الزمان.. سواء وهى تمتطى متن سلحفاة تارة.. أو هى تعتلى ظهر جمل تارة أخرى.. أو وهى - مسيرة المجتمعات - تركب قطارا وقوده النار والفحم أو وهى تعدو بسيارة تستخدم عجلات من حديد.. أو وهى تركب طائرة تطير بركابها إلى عنان السماء. بدءا من مخاطرة « عباس بن فرناس » الذى لقى مصرعه وهو يحاول تقليد الصقور والحمائم، وانتهاء بالطائرات الأسرع من الصوت أو من الضوء، علاوة على بعض الصواريخ والأقمار الموجهة بالليزر وتعتمد قوة الدفع فيها على الطاقة النووية، والتى جعلت البشرية كلها تتخطى حاجز الزمن أو حاجز المستحيل وعلى كل المستويات والاهتمامات، وهى تستمتع أو تتناول العديد من الابتكارات والمخترعات العلمية والتكنولوچية فى معظم مناحى الحياة.. والتى جعلت ذلك التمتع حقا متاحا لكل المجتمعات من شارك منها في الاختراع، ومن لم يشارك فيه.. علاوة على الثورة الحقيقية فى عالم الاتصالات والمعلومات التى حولت.. ليس فقط المجتمعات البدوية وإنما العالم كله إلى مجتمع واحد بل إلى قرية واحدة.

ولكن رغم كم ذلك التطور الهائل، الذى كان هو المستحيل ذاته منذ بضعة عقود من الزمن فمازال فى عالم الغيب الكثير والكثير، سبحان الخلاق العظيم ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٨). صدق الله العظيم.

★ ★ ★

المبحث الأول:

مراحل تطور المجتمعات البشرية كما نراها:

نود أن نوضح فى البداية أننا لم نتعرض لكل ما سبق من آراء ونظريات عن تطور المجتمع البشرى إلا بالقدر الذى يمكننا ليس فقط من وضع تصورنا عن تطور المجتمع البشرى، وإنما - وبالدرجة الأولى - يمكننا من تحديد موقع المجتمع البدوى على خريطة التطور البشرى كما أسلفنا، ومن هنا كان اعتقادنا بأن المجتمع البشرى مر أثناء تطوره بالمراحل التالية (١).

إننا لا ندّعى سلفا أن تصنيف هذه المراحل اختراع عظيم لنا غير مسبوقين إليه، وإنما هذا التقسيم فى الواقع ابن شرعي لكل ما سبق وسلف من آراء ونظريات من جهة، وهو - أى التقسيم - من جهة أخرى لا يعدو أن يكون عملية اعادة ترتيب لمراحل تطور المجتمع البشرى من خلال نظرة اجتماعية تؤمن بالتأثير المتوازن لمختلف الظروف البيئية والبشرية والحضارية على المجتمع، أى مجتمع - بغير تفوق مطلق لأى من تلك العوامل الجغرافية أو الاقتصادية أو البيولوچية أو التكنولوچية أو الدينية أو العصبية أو الاجتماعية... إلخ، لأن كل تلك العوامل تتعاون وتتفاعل وتتصارع أحيانا، ولكنها جميعا تسهم فى النهاية بنصيب ما فى رسم الصورة النهائية للمجتمع.. أى مجتمع (٢).

أولا - مرحلة جمع الطعام:

أو مرحلة الالتقاط، وتندرج تحت هذه المرحلة أو هذا النمط - جمع الطعام - مجتمعات الالتقاط والقنص والصيد بنوعيه : النمط السفلى، وهو الذى يعيش خلاله الإنسان متنقلا فى الغابات خلف فريسته التى غالبا ما تكون فأرا أو أرنبا بريا أو قردا أو سحلية، وإن كان همه الأول النقاط ما يعثر عليه من ثمار الأشجار أو ما يستخرجه من سطح الأرض من درنات وجذور، أما النمط العلوى فهو الذى يكون فيه القنص والصيد مهمة رئيسة للإنسان البدوى (*).

(*) العلامة الفارقة بين النمطين السفلى والعلوى تتمثل فى مدى تدخل إرادة الإنسان البدوى وقدرته على بذل الجهد الابتكارى - نسبيا - فى الحصول على طعامه .

ثانيا - مرحلة إنتاج الطعام:

أو مرحلة بداية الاستقرار أو لاستقرار الجزئى، ويضم نمط أو مرحلة إنتاج الطعام، مجتمعات الرعى والزراعة البدائية (*)، وبالنسبة لمجتمعات الرعى فيعتمد الناس خلالها اعتمادا كليا على حيواناتهم سواء كان هذا الاعتماد مباشرا أم غير مباشر، الأمر الذى أدى أو يؤدى إلى تحكم كل من حاجات الحيوانات ومنتجاتها فى نمط الحياة السائد لدى الجماعات الرعوية على اختلاف مسمياتها « رعاة الإبل ورعاة الضأن ورعاة البقر ورعاة الرنة... إلخ»، ونظرا لأن الرعى فى هذه المرحلة يعتمد على المراعى التى تجود بها الطبيعة وهى بطبعها ضنينة، الأمر الذى حدا بالجماعات الرعوية إلى أن تتنقل باستمرار سعيا وراء الماء والكلاء، وسواء كان هذا التنقل بصفة دائمة أو دورية أو موسمية فإنه - أى التنقل أو الارتحال - يشكل السمة الرئيسة للمجتمعات الرعوية وإن اختلفت عمقا واتساعا بحسب طبيعة الحيوان الراعى (٣).

ولا شك أن مجتمعات الرعى هذه تتمتع بخطوات أكثر ثباتا على درب الحضارة لو قورنت بما سبقها من مجتمعات الالتقاط والقنص أو الصيد.

هذا عن المجتمعات الرعوية، أما عن مجتمعات الزراعة البدائية وغير المستقرة فالمقصود: بها « تلك المجتمعات التى تدخل الزراعة البسيطة بشكل مباشر أو غير مباشر ضمن سعيها على الرزق ».

ونعنى بالشكل المباشر أن تكون الزراعة هى السمة الأساسية للمجتمع ولكن بصورتها البدائية كما هو حادث الآن فعلا فى الأقاليم الاستوائية ذات الحرارة العالية والأمطار الدائمة، وكذلك فى الأقاليم المدارية حيث تطهر أرض الغابات بوسائل بسيطة لا تخرج فى الغالب عن البدء بحرق النباتات البرية دون إزالة جذورها من الأرض، ثم تزرع التربة بمحصولات ضئيلة، وعادة ما تفقد التربة

(*) الزراعة البدائية هى الزراعة البعلية التى اشرنا إليها قبلا والتى تعتمد أساسا ومباشرة على المطر ، وهى الزراعة التى لا تعتمد على التكنولوجيا أو التقنيات الفنية الحديثة .

صلاحيتها بسرعة، الأمر الذى تلجأ معه تلك المجتمعات إلى البحث عن تربة أخرى، وتبدأ معها دورة جديدة من الاستصلاح ثم الاستزراع ثم الهجرة لتبدأ نفس الدورة من جديد وهكذا، وهنا يكون التنقل بهدف الزراعة لا من أجل الرعى، وإن كان ذلك لا يمنع من استئناس بعض الحيوانات وتربيتها.

أما ما نقصده بالشكل غير المباشر، فهو ما تمارسه الجماعات الرعوية من استزراع لبعض النباتات عند حلِّها أو إقامتها بجوار مصادر المياه بهدف مد أبنائها بما يحتاجون إليه من مأكل بعيدا عن أن تكون الزراعة هى مقصدهم الأساسى، أو أن تشكل - الزراعة - هدفا أصيلا لديهم.

ثالثا - المرحلة الحضارية:

أو مرحلة الاستقرار الكلى، وتضم هذه المرحلة - مرحلة الحضارة - مجتمع الزراعة المستقرة أو الكثيفة، وتضم أيضا إلى جوارها مجتمع الصناعة.

وقد يكون المجتمع فى المرحلة الأولى «جمع الطعام» مجتمعا «متوحشا»، وفى المرحلة الثانية «إنتاج الطعام» مجتمعا «بربريا»، وفى المرحلة الثالثة «المرحلة الحضارية» مجتمعا «متحضرا»، وقد يكون المجتمع فى المرحلة الأولى، مجتمعا «بسيطا» ثم نشأت بعض النظم ذات الوظائف المتعددة فى المرحلة الثانية، حتى تعددت نظمه وعلاقاته وتعقدت فى المرحلة الثالثة، وقد يكون المجتمع فى المرحلتين الأولى والثانية مجتمعا «بدائيا أو غير تاريخى»، وقد يكون المجتمع فى المرحلة الثالثة مجتمعا «تاريخيا» عظيما عرف الإمبراطوريات، أو قد يكون ذلك المجتمع أيضا مجتمعا «حديثا» عرف المدن والدول العظيمة، وقد يكون كذلك المجتمع فى المرحلتين الأولى والثانية مجتمعا «محليا» محدود النطاق، وربما يكون المجتمع فى المرحلة الثالثة مجتمعا واسع النطاق «متعدد» القوميات، كما قد يكون المجتمع فى المرحلتين الأولى والثانية مجتمعا «تقليديا»، أو حتى قد يكون المجتمع «متخلفا» بغير علم ولا ابتكار أو حضارة، وقد يكون المجتمع فى المرحلة الثالثة مجتمعا «متقدما» ومنفتحا على العالم كله ويحيا حياة عصرية بكل ما تضمه تكنولوچيا العصر من آفاق رحبة، أو قد يمكن القول، بأن

المجتمع قد تضمن هذا كله أو غيره من التطورات قولا صحيحا، ولكن المهم فى كل ذلك : هو تحديد موقع المجتمع البدوى على خريطة تطور المجتمع البشرى ككل.

وبغير تردد نقرر: أن المجتمع البدوى يقع فى مكان ما يمتد طولا وعرضا على خريطة تطور المجتمع البشرى ابتداء من مرحلة جمع الطعام وانتهاء بمرحلة إنتاج الطعام بالمفهوم الذى أوضحناه قبلا (٤).

وذلك لأن نظرة سريعة إلى الإنسان المتبدى تدلنا على أنه قضى حياته كلها منذ سالف العصور حتى الآن ساعيا وراء القوت وجامعا له، وهو قد سلك من خلال تبديه طريقين نعتقد أنه لم يسلك غيرهما (٥).

وأول الطريقين: كان التقاط ما يعثر عليه من الثمار أو الجذور الدرنية، وثانى هذين الطريقين: هو صيد الحيوانات والأسماك بوسائل بدائية، لذلك كان الإنسان المتبدى خلال تلك الفترة، ليس عالة على الطبيعة ينتظر ما تلقيه إليه فقط، ولكنه كان أيضا متطفلا عليها وعلى ما تحتوى عليه البيئة من الحيوانات كذلك.

لهذا كانت مجتمعات ذلك الإنسان المتبدى كثيرا ما تواجه المجاعات إذا ما كفت الطبيعة عن البذل - لسبب أو لآخر - أو إذا ما عجزت النبال والسهام والشباك عن بلوغ مراميها لتحظى بصيد أو فريسة.

لذلك كله كانت معظم اهتمامات المجتمعات المتبدية آنذاك محصورة فى جمع القوت بأى شكل من الأشكال، وانصرف كل القادرين من الرجال (*)، إلى إنجاز هذه المهمة الصعبة فيما يشبه الصراع، وانتظم بدو تلك المجتمعات فى صراعهم مع الطبيعة ضمن أسر أو عائلات وبطون وعشائر وقبائل تتجول فى مساحات شاسعة من الأراضى، لا تحمل معها من الأدوات إلا ما خف حمله، وذلك حتى يتمكن الكل - رجالا ونساء - من جمع الطعام الذى يكفيه ولو بالكاد، لأن من لا يجمع طعاما لا يأكل لسبب واحد وبسيط، هو أنه لا يوجد فائض من الطعام مع أى من الناس يمكن له أن يتنازل عنه لأحد.

(*) ومعهم الكثيرمن النساء فى أغلب الأحوال وعلى ضوء تقسيم العمل السابق الإشارة إليه .

وكان من نتيجة انصراف كل أبناء المجتمع البدوى والمجتمع البشرى عموما خلال «مرحلة جمع الطعام»، إلى الحصول على بعض ما يكفيهم ويكفى أطفالهم وشيوخهم، كان من نتيجة ذلك عدم وجود مهن أخرى تسمح بوجود تخصص نسبى فى العمل تنشط على أثره حركة تبادل السلع التى قد تنشأ فى ظل ذلك التخصص النسبى من خلال مقايضة سلعة لا يحتاجها البدو أو المجتمع البدوى، بأخرى يحتاجها، ويسعى كل من البدوى والمجتمع وبكل جهده للحصول عليها أو لإشباعها (٦).

وظل ذلك الإنسان المتبدى خلال عصور چيولوچية كثيرة على حاله يجمع القوت، حتى حدثت عدة تحولات چيولوچية لم تغير معالم البيئة الطبيعية والمناخية فقط، ولكنها دفعت ذلك الإنسان البدوى أيضا - ولو بشكل تدريجى - إلى اختراع استخدامات أو ابتكارات جديدة طوَّرت أدواته وأساليبه فى جمع القوت، وأدى به ذلك الاختراع أو الاستخدام فى النهاية إلى أن يكون لديه فائض من الطعام، ووضعه ذلك الفائض على أعتاب «مرحلة حضارية تالية» هى مرحلة إنتاج الطعام السابق الإشارة إليها.

واعتمدت مرحلة إنتاج الطعام هى الأخرى، على بعض صور الزراعة أو الاستنبات، علاوة على تربية الحيوان الراعى وصيد البحر والنهر وكذلك صيد البر، ولكن فى استخدامات وأغراض أخرى، كل ذلك علاوة على استنباط وسائل تكنولوچية أو تقنية أخرى، سهلت لذلك الإنسان المتبدى أداء مهامه، أو يسرت مأمورياته فى السعى على الرزق، وذلك على النحو الآتى :

١ - النبات الذى كانت تلتقط ثماره من فوق سطح الأرض أو من باطنها القريب وبغير مجهود ابتكارى يذكر، هذا النبات استزرع فى ظل المرحلة الجديدة بالقرب من مصادر المياه - ولو بشكل بدائى - ليسد حاجات جديدة، هذا فضلا عما استتبع ذلك الاستزراع من تنوع للمحصولات الزراعية.

٢ - والحيوان الذى كانت استخداماته مقصورة على لحمه النيئ (*) عرف هو

(*) من خلال القنص أو عن طريقه بغرض الأكل أو الانتفاع المباشر بصوفه أو جلده أو وبره أو عظامه أو دمائه أو حوافره... إلخ .

الآخر نوعا من الاستقرار، واستأنسه ذلك الإنسان المتبدى وراح يربى أنواعا عديدة منه كالماشية والجمال والرنة والأغنام والماعز... إلخ، كما نشأت أيضا استخدامات جديدة لذلك الحيوان، وامتدت منافعه من اللحم إلى الدم واللبن والجلد والعظام والوبر والصوف. هذا علاوة على الاستخدامات الجديدة لريش بعض الدواجن وخاصة الملون من ذلك الريش، هذا فضلا عن استغلال الحيوانات فى الركوب وحمل الأشياء أو المتاع.

كما امتد ذلك الاستخدام للحيوانات إلى أن تكون بعض تلك الحيوانات - فى كثير من الحالات أو المناسبات - هى القربان المتقبل عند الآلهة، تماما كما كانت هى المهر المدفوع عند الزواج، أو الدية المقبولة عند القصاص... إلخ.

وعرف الإنسان البدوى - فى ظل مرحلة إنتاج الطعام - الفائض، وما استتبعه ذلك الفائض من ظهور تخصصات جديدة وتقسيمات مبتكرة للعمل ونظم للتبادل والمقايضة حتى يحصل كل إنسان بدوى على احتياجاته بالتنازل عن بعض ذلك الفائض للغير بشكل أو بآخر فضلا عن قيام بعض الأسواق (٧).

وليس معنى هذا أن تلك المجتمعات المتبدية، قد تخلت تماما عن المرحلة الأولى - مرحلة جمع القوت - بكل صورها، فقد ظل الصيد ملازما للمرحلة الجديدة أيضًا، وإن تطورت بعض أساليبه وأدواته، كما ارتقت كذلك أهدافه.

وفى اعتقادنا أن أعظم ما خلفته مرحلة إنتاج الطعام هذه ليس فقط بالنسبة للمجتمع البدوى وإنما للبشرية عموما، هو ذلك التطلع الذى أصاب الإنسان المتبدى نتيجة إحساسه بوجود فائض تحت يده، حيث دفعه ذلك التطلع إلى أن يشتاق إلى الحصول على أشياء وأدوات من إنتاج غيره من المتخصصين النسبيين (*).

(*) نعنى «بالنسبية» هنا أن هذه المجتمعات لم تكن تعرف التخصص المطلق بمعنى أنه لم يتوافر فيها إنسان ما قد تفرغ تماما لعمل ما أو لجزء منه طوال وقته ، كما لم تكن تلك المجتمعات قد عرفت تقسيم العمل بمعناه المعروف به الآن .

ومهما كانت مسارات ذلك التطلع فقد أدى فى النهاية إلى ابتكار وسائل جديدة سواء عند الإنتاج أو البيع، خصوصا بروز أو نشأة ظاهرة السوق فضلا عن ظهور العملة بأشكالها المتطورة المختلفة، لتسهل عملية التبادل للسلع الزائدة عن الحاجة أو غير المحتاج إليها للاستهلاك المحلى أصلا، من خلال انتشار ظاهرة الأسواق، بصورها وأشكالها المتعددة سواء من حيث المكان أو النوعية.

نقول أمكن لتلك المبتكرات أن تحدد - فى إطار وظيفى معين - كيفية تحقيق حصول الإنسان على ما يشتاق أو يتطلع إليه، فضلا عن القدرة الابتكارية التى يولدها ذلك التطلع لتحقيق أمر ما أو لإشباع حاجة معينة.

هذا ولو أخذنا تطور المجتمع المصرى القديم كمثال، لتبين لنا أن الحياة بدأت على الأرض المصرية منذ عصور ما قبل التاريخ حيث كان السكان يتجمعون على مقربة من نهر النيل، ويعتمدون على الصيد فى معيشتهم، وأن المصريين كانوا جماعين للقوت يعيشون من جنى أو التقاط الثمار وصيد الحيوان والأسماك والطيور، ومثل هذه الحياة تستلزم بالضرورة التنقل الدائم ولا تسمح بإقامة البيوت ولا السكن المستقر أو الثابت، وما كاد العصر الحجرى ينتهى حتى عرف المصريون أنه يمكنهم أن يستنبتوا بعض حبوب النباتات البرية وأن يزرعوا الأشجار المثمرة فتوافرت لديهم بذلك كميات أكبر من القوت، أو كلما كانت حصيلتهم، أو كان حصادهم أكثر كمًا ونوعا مما كانوا يجمعونه أو يحصدونه أو يحصلون عليه قديما (٨).

وهكذا فى بداية العصر الحجرى الحديث تلونت الصورة فى مصر بلون للحياة جديد، فبعد أن كان المصريون صيادين وجماعين للقوت فقط، أصبحوا مزارعين ومربين للضأن وللماشية، وتحول الاقتصاد المصرى من اقتصاد يعتمد على جمع الغذاء إلى اقتصاد منتج للغذاء، وقد استتبع هذا التحول فى الاقتصاد المصرى تحولا كذلك فى المعطيات الحضارية، فتطورت الأدوات التى يستخدمها أو يستعين بها، كماتطورت معها طريقة حياة ذلك الإنسان المصرى نفسه تطورا يتناسب مع الوضع الاقتصادى الجديد،ولم يعد المصرى القديم مضطرا للترحال أو للرحيل سعيا

وراء قوته، وإنما كان مضطرا أكثر للاستقرار أو للإقامة فى مكان معين ليزرع أرضه ويجنى ثمارها، وبنى المصرى القديم البيوت الثابتة لتكون مسكنا له وأصبح لا بديل أمامه عن اختراع أدوات لحفظ غلاله ومنتجات أرضه وماشيته فصنع أدوات وأوانى تحقق ذلك الغرض من الطين، وما لبثت هذه الأدوات أو المعدات أن تطورت، كما ارتقت مساكنه، ولم يأت العصر الحجرى الحديث حتى كان الإنسان المصرى يعيش فى قرى صغيرة ويرتدى الملابس ويصنع أدوات الزينة والتماثيل ويدفن موتاه فى قبور، ومع الاستقرار نشأت وعلى أثره وفى ظل هذا التطور الهائل والسريع، بدايات تحول نهضوى عظيم لم يلبث أن أخذ بيد مصر القديمة فى جنوب الوادى وشماله، صوب آفاق حضارية جديدة وعظيمة حيث استقرت بالمصريين الحياة، وفى ظل سُبل مختلفة وراقية للمعيشة باعتمادهم على الزراعة وفطنتهم لاستعمال المعادن، واضطر المصريون القدماء فى خطوهم نحو الحضارة إلى التعاون فيما بينهم، ولقد أوجب هذا الاستقرار فيما أوجب تنظيم العلاقات الاجتماعية الوليدة بين الأفراد فى تجمعهم الجديد، علاوة على ما فى ذلك التجمع من حماية للأمن مع بروز حاجة ملحة لوجود رئيس يحتكم إليه ويشرف على تصريف دفة مختلف شئون البلاد وأمورها (٩).

★ ★ ★

المبحث الثانى:

متى نشأ عصر البداوة؟!

نقرر بغير تردد أن عهد البداوة أو عصرها قد نشأ، كما سبق أن أسلفنا مع مرحلة إنتاج الطعام، أو اعتبر مرادفا لها، وذلك فى بداية العصر الحجرى الحديث، وفى الفترة التى أطلق عليها العلماء ثورة العصر الحجرى الحديث حيث يرى هؤلاء العلماء أنه لو قسم الزمن الذى قضاه الجنس البشرى على الأرض مائة جزء، فإن البشر جميعهم قضوا ما لا يقل عن خمسة وتسعين جزءا منها وهم « متوحشون »، وفى خلال الفترة الطويلة التى يسميها الچيولوچيون بالعصر الجليدى، كان جمع

القوت واقتناص الحيوانات التى تعيش فى البر والنهر، وصيد الأسماك،وكلها تعد هى المصادر الوحيدة لغذاء البشر (١٠).

ومع هذا ففى فترة ما بعد الجليد التى يسميها الچيولوچيون مرحلة «العصر الأخير»، ظهر نظام جديد كل الجدة وأخذ يكمل نقص نظام جمع القوت وينازعه مكانته، فقد أخذ بنو البشر يزرعون نباتات صالحة للأكل، وأخذوا أيضا يربون الماشية والأغنام والماعز، للإفادة من لبنها ودمها وجلدها ووبرها وصوفها، إلى جانب لحومها، ويطلق على هذا النظام الاقتصادى الجديد اسم مرحلة « إنتاج الطعام » أو « عهد البداوة ».

وإنتاج الطعام سواء بالزراعة أو بتربية الماشية أو بالجمع بينهما فيما يسمى «بالزراعة المختلطة»، كان كل ذلك تمهيدا لبدء العصر « الحجرى الحديث». وتسمى بداية هذه المرحلة عادة « ثورة العصر الحجرى الحديث»، تشبيها لها بالثورة الصناعية الحديثة والتى كان لها فضل النقلة الحضارية التى تحياها البشرية اليوم (١١).

★ ★ ★

المبحث الثالث:

ايفانز بريتشارد وتطور المجتمعات البدوية:

يرى « ايفانز بريتشارد » أن كلمة « بدائى Primitive » (*) بالمعنى الذى تستخدم به عادة فى الكتابات الأنثربولوچية لا تعنى أبدا أن المجتمعات التى توصف بتلك الصفة « البدائى » أسبق فى الزمن أو أدنى فى المنزلة من بقية المجتمعات الإنسانية الأخرى، Prmitiveness فمن المعروف علميا أن تلك المجتمعات البدائية أو البدوية لها تاريخ طويل قد يماثل فى طوله تاريخ المجتمعات الأوروبية ذاتها، وإن كانت هذه المجتمعات العشائرية أو البدوية لم تتطور فى بعض النواحى أو المجالات بنفس

(*) كلمة Primitive كمصطلح تعنى « أصلى ، أولى ، بسيط ، بدائى ، ساذج أو فطرى أو على الفطرة » والجمع اصطلاحا يعنى Primitiveness ، من القاموس العصرى .

النسبة أو الدرجة التى تطور بها المجتمع الأوروبى مثلا [١٢]. فإنها تفوقه - أى المجتمعات الأوروبية - تطورا فى الواقع فى نواحى أخرى، وعلى ذلك فربما كانت كلمة « بدائى » اختيارا غير موفق، ولكنها أصبحت الآن اصطلاحا واسع الذيوع والانتشار إلى حد لا يمكن معه - أى مع الذيوع والانتشار - تجنبها كإصطلاح مستخدم وشائع.

ويكفى فى هذه المرحلة كما يقول « إيفانز بريتشارد » : أن الباحثين أو العلماء الأنثربولوچيين حين يستخدمون هذه الكلمة « بدائى » فإنهم يقصدون بها الإشارة إلى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان أو المساحة أو من حيث تشعب العلاقات الاجتماعية داخلها، والتى تتميز هى الأخرى ببساطة الفنون الآلية والاقتصاد البدائى وقلة أو انعدام التخصص فى الوظيفة الاجتماعية فضلا عن غيبة التكنولوچيا وانعدام التقنيات الفنية الحديثة، إذا ما قورنت بالمجتمعات الأخرى الأكثر تقدما.

ويحب بعض الأنثربولوچيين أن يضيفوا إلى ذلك مقاييس ومعايير أخرى أهمها عدم وجود تراث مكتوب، وبالتالى عدم وجود أى فن أوعلم أو لاهوت منهجى منظم [١٣].

ونحن مع « ايفانز بريتشارد » فى اعتراضه أو تحفظه على كلمة «بدائى Peimetive » ولكننا لسنا معه فى بعض مبررات ذلك الاعتراض خصوصا ما تعلق منها بقصر استخدام كلمة « بدائيين » - كخطأ شائع - للإشارة إلى المجتمعات الصغيرة سواء من حيث عدد السكان أو المساحة، ونضع تحت كلمة المساحة هذه أكثر من خط، وذلك لأن الصحارى سواء الجافة أو الجليدية منها هى موطن كثير من المجتمعات البدائية، أو شبه البدائية، بالمفهوم أو وفقا لذلك الخطأ الشائع، والذى اعتبره « إيفانز بريتشارد » واسع الذيوع ولا يمكن تجنبه.

والصحارى كما هو معروف علميا، مناطق شاسعة تشغل حيزا كبيرا أحيانا ورهيبا فى معظم الأحيان، فكيف يتسنى إذن قصر استخدام كلمة «بدائى» فقط للإشارة إلى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان، أو المساحة ؟!!

كما يمكن أيضا أن يثار اعتراض على انسحاب كلمة « بدائى » على المجتمعات قليلة السكان،حيث توجد على الخريطة العالمية للسكان، أمثلة كثيرة لمجتمعات تاريخية أو معاصرة كانت متقدمة أو تعد ضمن المجتمعات الحديثة على الرغم من ضآلة عدد سكانها علاوة على صغر مساحتها.

كما أننا نخالف « إيفانز بريتشارد » أيضا فيما قاله عن تفوق المجتمعات البدائية على المجتمعات الأوروبية فى « نواحى أخرى »، ونظن أن ما ساقه «إيفانز بريتشارد » نفسه من خصائص وسمات للمجتمعات البدائية، قد دحر بغير قصد أى تفوق لهذه المجتمعات على المجتمعات الأوروبية وذلك للأسباب التالية [١٤].

١ - المجتمعات الأوروبية - كمفهوم - لم تظهر إلا فى حقبة حضارية حديثة لو قيست ببضع مئات من السنين فلا شك أن عمر المجتمعات البدائية سيقاس فى هذه الحالة ببضع ألوف من السنين.

٢ - المجتمعات التى تفوقت على المجتمعات الأوروبية فى عدة نواحى ويمكن أن تكون مجتمعات بدائية بالمفهوم الشائع - رغم خطئه -، فى فترة سابقة، هى، من حيث مبدأ التفوق، المجتمعات البدوية العربية، وخصوصا فى صدر الإسلام حيث عاشت البداوة العربية فى ظل تلك الفترة عصرها الذهبى، وتفوقت بغير شك على كثير من المجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية، ولم يكن التفوق فقط فى بعض النواحى ولكن - وبكل صدق وحق - فى كل النواحى.

★ ★ ★

المبحث الرابع:

ما المجتمع البدوى وما خصائصه ؟!

إذن ما المجتمع البدوى؟! .. هل المجتمع البدوى مجتمع «بدائى».. هل هو مجتمع «بسيط».. هل هو مجتمع «متخلف».. هل هو مجتمع «تقليدى» .. هل .. هل؟! .. كلها أسئلة تحتاج إلى إجابة .. وإلى إجابة محددة وصولا إلى تعريف دقيق للمجتمع

البدوى، وسوف نعتمد فى الإجابة على هذه الأسئلة، على ما سبق أن تقدم من آراء ونظريات (١٥).

(أ) هل المجتمع البدوى مجتمع بدائى؟!

على الرغم من التحفظات الكثيرة حول استعمال كلمة « بدائى » نظرا لما توحى به هذه الكلمة من معانى التدهور والانحطاط، فلا شك أن أولئك البدائيين يحملون عبء تقاليد تكاد لا تتغير، كما أن هناك ظروفا كثيرة ومنوعة وخصوصا البيئية منها، قد ألقت بهؤلاء البدائيين خارج تيار الحضارة، أو قد عوقت ليس فقط تطورهم الاجتماعى وإنما تقدمهم الحضارى أيضا ولفترات طويلة تمتد فى بعض الأحيان لعشرات المئات من السنين.

ومن هنا بدت مجتمعات هؤلاء البدائيين غير متحضرة، وتصورها الكثير من دارسيها وكأنما تحجرت فى قوالب جامدة منذ آلاف السنين، ليس فقط لأنهم كانوا بمعزل عن سبل الحضارات القديمة والعظيمة، وإنما لأنهم ظلوا أيضا غرباء حتى عن الوسائل والأسباب التى أدت إلى تطور وتقدم مجتمعات أخرى كثيرة.

ولعل الجمود الذى يُعد أبرز سمات تلك المجتمعات البدائية لم يعوق نمو وتقدم الجماعة البدائية فقط، بل وامتد تأثيره بالتالى ليضع قيدا على حركة الأفراد وحريتهم حينا بل ويكاد ذلك القيد أن يلغى حركة المجتمع البدوى وحريته نحو التطور والنمو فى أحيان كثيرة.

فالفرد منذ ولادته يظل حبيس الجماعة التى هو واحد منها، تفرض عليه ليس فقط عاداتها ومعتقداتها وطريقة معيشتها، وإنما تجبره أيضا على أن يتزوج ويعمل ويتملك. ويمارس عباداته - وبدون تفكير - طبقا لنظم وطقوس معينة.

والجماعة البدوية أو البدائية من خلال تلك السيطرة والقهر لا تلغى فقط شخصية الإنسان البدوى أو ذاتيته، وإنما تجعله أيضا مسئولا عن عائلته وعن غيره من الأقارب إن غرما أو غنما، وتحوط الجماعة البدائية ذلك كله بجو من القهر

الاجتماعى الذى لا يمتد سلطانه إلى نشاط أفراد الجماعة فقط، وإنما «تتوسع دائرة ذلك القهر» لتضم أفكارهم ومعتقداتهم أيضا (١٦).

ومن هنا ربما كان ذلك القهر الذى تفرضه الجماعة البدائية على أعضائها أكثر ثقلا من القهر الذى تفرضه الظروف البيئية على الجماعة البدائية ذاتها (١٧).

وعلى كل فقد أثبتت آراء ونظريات تطور المجتمع السابق الإشارة إليها، أنه حتى المجتمعات البدائية لا تقف كلها على قدم المساواة، فمنها مازال متوقفا عند حالة أو مرحلة التوحش، ومنها ما تجاوزها إلى مرحلة البربرية بدرجاتها المختلفة الدنيا والوسطى والعليا، ولابد أن يكون للمجتمع البدوى مكان ما عند مرحلة البربرية وإن اختلف ذلك المكان بعدا أو قربا من بداية أو نهاية تلك المرحلة حسب طبيعة وظروف كل مجتمع بدوى على حدة (١٨).

وليس المهم هنا إثبات مكان المجتمع البدوى على مقياس حالة البربرية التى افترضها « مورجان »، بقدر أهمية توضيح الصلة الحتمية بين المجتمع البدوى والمجتمعات البدائية (١٩).

هذا ويرى عدد من العلماء أنه برغم أن الترجمة الحقيقية لاصطلاح Primitive هى: «بدائية »، إلا أن وصف المجتمعات صغيرة الحجم، ذات النسيج الاجتماعى المتكامل: والمحدود، والتى تمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصاد، وقلة التخصص أو انعدامه، فضلا عن عدم وجود معرفة بالقراءة والكتابة، إلى جانب عدم ممارسة الزراعة أو التخصص فيها، والاعتماد فى المعيشة على الصيد أو الرعى أو كليهما معا (٢٠).

المهم أن بعض العلماء يرى أن وصف هذه المجتمعات بالبدائية وصف غير دقيق على الرغم من الترجمة الدقيقة لمصطلح Primitive المشار إليه.

وهم يرون كذلك أن استخدام وصف « شبه البدائية » ربما كان أكثر لياقة وإنصافا وواقعية لا لشىء إلا لأن تلك الشعوب لا تمثل بدء الحياة الاجتماعية للمجتمع الإنسانى وإنما هى أقرب المجتمعات الإنسانية للحياة الاجتماعية الأولى التى لا نعرف عنها إلا الافتراضات والتصورات (٢١).

(ب) هل المجتمع البدوى مجتمع بسيط ؟!

لو سلمنا بالتصور المطلق الذى افترضه « ريد فيلد R.Redield » عن تطور المجتمع البشرى، وقلنا معه إن هناك مجتمعين على طرفى نقيض، أولهما مجتمع بسيط.. وثانيهما مجتمع معقد، لو سلمنا بذلك التصور المطلق أو المثالى لقلنا على الفور إن المجتمع البدوى هو بالضبط ذلك المجتمع البسيط الذى عناه وقصده أو أشار إليه وحدد معالمه « ردفيلد » (٢٢).

ولو سلمنا كذلك بالاعتقاد السائد لدى معظم الأنثربولوچيين بأن المجتمعات البدائية هى تلك المجتمعات التى تتميز بصغر حجمها من ناحية مساحتها وعدد سكانها، والتى تتميز فى الوقت نفسه ببساطة ما يسود فيها من علاقات اجتماعية، وخاصة ما اتصل من هذه العلاقات بالنواحى أو المجالات الاقتصادية والفنية والعلمية وتقسيم العمل (٢٣) (*).

هذا ويرى أستاذنا المرحوم الدكتور على أحمد عيسى: أن المجتمع البدائى هو ذلك المجتمع الذى يتميز بخمس خصائص هى:

(أ) الاعتماد فى المعيشة على البيئةالطبيعية إلى أقصى حد ممكن.

(ب) الارتباط بنظام معين للقرابة.

(جـ) انعدام تقسيم العمل إلا ماتعلق منه بالسن والنوع.

(د) الاعتقاد فى السحر.

(هـ) الجهل أو شيوع الأمية بأنماطها المختلفة.

هذا وقد اعتبر «المرحوم الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى» خلال مؤلفه «الأنثربولوچيا الاجتماعية » المشار إليه قبلا، اعتبر مجمتع « النوير » فى السودان مثالا نموذجيا للمجتمعات البدائية حيث تنطبق عليه تماما الخصائص الخمس السالفة الذكر (٢٤).

(*) التسليم هنا بمعنى الاعتقاد أو الإقرار بوجهة نظر أو رأى الآخرين .

ولم ينشأ لدينا ذلك التسليم بما اعتقده العلماء والباحثون الأنثربولوچيون وجاهروا به من فراغ، لأنه من البديهى أن تقع كل المجتمعات البشرية - فى حالة التسليم بالتصور المطلق « لريد فيلد » - على نقطة ما على سلم التطور سواء عند البداية أو النهاية ولا فرق فى ذلك بين مجتمعات الأمس واليوم البدائى منهاوالمتمدين [٢٥].

ولو تركنا البديهيات جانبا واستعرضنا الخصائص المثالية للمجتمع البسيط التي أبرزها « ريدفيلد »، لتبين لنا بوضوح أن هناك تشابها يكاد يصل أحيانا إلى حد التطابق التام بين خصائص كل من المجتمع البدوى والمجتمع البسيط وبالشكل الذى تصوره أو افترضه « روبرت ريدفيلد Robert Redfield » والذى حدد خصائصه على الوجه الآتى [٢٦] (*) :

١ - صغر حجم المجتمع البدائى علاوة على صغر حجم مختلف وحداته أو مكوناته.

٢ - تشابه أفراد المجتمع البدائى من حيث النوع (**).

٣ - عدم معرفة السكان - البدو أو البدائيين - لفنون القراءة والكتابة على الرغم من وجود لغة للتخاطب فيما بينهم.

٤ - الشعور القوى لدى أعضاء المجتمع البدوى أو البدائى بالتماسك العضوى والتضامن الآلى.

٥ - تكاد المجتمعات البدائية أن تعيش فى انغلاق أو عزلة تامة.

٦ - توافر قدر متساو من المعرفة والخبرات لدى كل فرد من أعضاء المجتمع البدائى أو البدوى.

٧ - نظام القرابة الذى يرتكز أو يعتمد على « العصبية » هو أساس البناء الاجتماعى للمجتمع البدائى أو البدوى.

(*) هذه الفقرة نقلناها عن « روبرت ريدفيلد» من خلال مؤلفه عن « الفلكلور الشعبى أو المجتمعى» السابق الإشارة إليه لكن بكثير من التصرف .

(**) يقصد بالنوع هنا - تصنيف السكان من حيث الذكورة والأنوثة وتشابههم من حيث الخصائص الجسمية والعقلية ، أوتلك التى تميز جنسا عن جنس آخر... إلخ .

٨ - تنقسم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع البدائى أو البدوى إلى أنماط ترتكز هى الأخرى على الاختلافات أو الفروق الموجودة أو القائمة بين أفراد المجتمع البدوى. فهم ينقسمون من حيث الخصائص والسمات سواء منها الفردية أو الجماعية وفقا للمعايير الثلاثة التالية :

(أ) النوع أو الجنس، وينقسم اعضاء المجتمع البدوى وفقا لهذا المعيار إلى ذكور وإناث.

(ب) السن أو العمر، ويتفرقون تبعا لمعيار السن إلى أطفال وشباب ورجال وكهول وشيوخ.

(جـ) المكانات أو المنازل - جمع منزلة - والأدوار، وينقسم أعضاء المجتمع البدوى وفقا لهذا المعيار إلى آباء وأمهات وأبناء وبنات، إخوة وأخوات، وأعمام وعمات، وأخوال وخالات، وأجداد وجدات، وأحفاد وحفيدات... إلخ [*].

٩ - يتعاون أعضاء المجتمع البسيط « البدوى أو البدائى » لتوفير أو لإشباع أبسط الحاجات وأهمها، ومنها : الملبس والمأوى والمأكل والمشرب والاشباع الجنسى، فضلا عن تضامن الجماعة كلها للدفاع عند الخطر أو عند رد العدوان [٢٧].

١٠ - دوافع العمل وتبادل الجهود والأشياء داخل المجتمعات البدوية أو البدائية، لا تنشأ عن دوافع اقتصادية بقدر انتمائها إلى التقاليد أو الشعور بالمسئولية الجماعية أو ارتكازها على العلاقات القرابية أو للاعتبارات الدينية والأخلاقية.

(*) يمكن إضافة عشرات المكانات أو المنازل أو الدرجات والأدوار التى يحتلها أو يضطلع بها سكان المجتمعات البدوية ، مع ملاحظة أنهم لا يختلفون كثيرا فى ذلك عن بقية أعضاء المجتمعات البشرية الأخرى ، وخاصة فيما ينشأ عن تلك المكانات والأدوار من مسئوليات ومزايا ووظائف مختلفة ومتعددة .

١١ - تتميز الحياة الاقتصادية للمجتمعات البدائية أو البسيطة بنوع من الاكتفاء الذاتى.

١٢ - العمليات المختلفة للضبط الاجتماعى داخل المجتمعات البدائية غير رسمية أو غير تعاقدية.

١٣ - النظام السياسى داخل المجتمعات البدائية بسيط ومحدود، بل ومعدوم فى العديد من الحالات، وفى أكثر الأحيان (*).

١٤ - يسود لدى أعضاء المجتمعات البدوية أو البسيطة اعتقاد قوى فى الأشياء الغيبية أو المقدسة (**).

١٥ - ينشأ الشعور الفردى أو الشعور الجمعى أو الجماعى بالصواب أو الخطأ من جذور أو أصول جماعية لا شعورية وكنتيجة للضمير الجمعى أو المسئولية الجماعية.

١٦ - النظام الأخلاقى المتعارف عليه لدى كل أبناء المجتمع البدوى أو المنتمين إليه، وغير المكتوب بشكل النظام الأساسى الذى يربط أو يوحد ما بين أفراد المجتمع جميعا.

١٧ - اكتساب المعارف يعتمد على التجربة وحدها، حيث لا توجد أساسيات نظرية للتربية أو للتنشئة الاجتماعية وللعملية التعليمية بالمفهوم الحديث أو المعاصر للعلم.

١٨ - المجتمع البدائى أو البدوى مجتمع بسيط من الناحية التكنولوجية (***).

١٩ - لا توجد مدن، بالشكل أو بالمعنى المعروف، بالمجتمعات البدائية القديمة أو المعاصرة (٢٨).

(**) أى لا وجود له - النظام السياسى - فى كثير من الحالات والأحيان .

(**) ومنها الخرافات والأساطير والعادات والتقاليد والأعراف والثقافات الموروثة أو ما يطلق عليه الفلكلوريات.

(***) تكاد المجتمعات البدائية أو البدوية التقليدية تكون خالية تماما من التقنيات الفنية .

(جـ) هل المجتمع البدوى مجتمع متخلف؟!

نكاد بغير حاجة إلى أدلة أو براهين جديدة، نقول إن المجتمع البدوى مجتمع هو - بطبعه وظروفه - متخلف، لأن مجتمعا له خصائص وملامح المجتمع البدائى ومقومات ونظم المجتمع البسيط لابد أن يكون مجتمعا متخلفا، ومع هذا فلو حاولنا إلقاء بعض الضوء على التكوين المورفولوچى للجماعات أو المجتمعات المتأخرة لوجدنا فى النهاية تشابها يكاد يصل إلى حد التطابق بين خصائص ومقومات كل من الجماعات البدائية والبسيطة التى قلنا عنها قبلا إن المجتمع البدوى تربطه بهما - من حيث التشابه أو التماثل - صلات وثيقة، فلو عدنا إلى ماسبق أن عرضناه لآراء ونظريات تطور المجتمع، وعلى الأخص لما ذكره كل من « ابن خلدون »، و « هربرت سبنسر» و « دور كايم »، و «مورجان»، وغيرهم، لو عدنا لإسهاماتهم فى هذا المجال لوجدنا أن أهم خصائص التكوين المورفولوچى Morphology العام للجماعات أو المجتمعات المتأخرة أو البدائية أو البدوية هى [٢٩] :

١ - البساطة وعدم التعقيد.

٢ - انعدام التخصص لعدم وجود نظام لتقسيم العمل.

٣ - صغر حجم المجتمع سواء من حيث المساحة أو من حيث قلة عدد السكان.

٤ - تشتت السكان وعدم استقرارهم.

٥ - التقارب فى درجة الكفاءة بين السكان، وبالتالى حدوث أو وجود التشابه فى وظائفهم أو فيما يقومون به من أعمال، فضلا عن ارتباط تلك الأعمال من حيث الأداء بالعمر والجنس « النوع ».

٦ - عدم وجود مؤسسات أو هيئات متعددة الأهداف والوسائل لخدمة السكان.

٧ - يؤدى أفراد المجتمع الأعمال المنوطة بهم، كما يشبعون احتياجاتهم ويدافعون عن انفسهم ضد الغير وضد الطبيعة فى تكامل وترابط وتعاون شبه آلى [٣٠].

ما المقصود بالمورفولوجى Morpholology

وحتى تتكامل صورة المجتمعات البدائية، وخاصة من الناحية المورفولوچية، قد يكون من المفيد هنا إيضاح ما هو المقصود المورفولوچى كمصطلح، يقصد به هيكل وبنية وتكوين الأشكال أو الوحدات الاجتماعية من حيث إن المجتمع يبدو فى مظهره المادى الخارجى مكونا من مجموعة من السكان الذين لهم كثافة معينة، وموزعين على المساحة الكلية للبيئة بشكل خاص، كما يتناول أو يحتوى المورفولوجى أيضا على مدى تأثير البيئة والظروف الجغرافية المحيطة بهؤلاء الناس من حيث درجة الكثافة والتخلخل والهجرة ونظم المعيشة... إلخ، كما يقصد بالأشكال المورفولوجية أيضا، أنماط الوحدات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع أو التى ينتمى إليها المجتمع ذاته، ومن الملاحظ أن الإنسان بشكل عام، وفى أى مكان، ينتمى على الأقل لوحدتين اجتماعيتين رئيستين أولاهما الأسرة وثانيتهما المجتمع المحلى. ولو أخذنا المجتمعات البدائية أو البدوية كمثال لوجدنا أن الأشكال المورفولوچية السائدة إلى جانب الأسرة أو العائلة، هى الفخذ والبطن والعشيرة ثم القبيلة، وإن كانت الأخيرة - أى القبيلة - تعتبر الشكل المورفولوجى العام والسائد فى هذه المجتمعات البدائية، حيث تتكون القبيلة من عدة أفخاذ وبطون وعشائر أو معاشر، أى تضم القبيلة أو تكوَّن من عدة مجتمعات محلية (٣١) (*) .

(د) هل المجتمع البدوى مجتمع تقليدى ؟!

لاشك أيضا أن المجتمعات البدوية مجتمعات تقليدية تعتمد على مجموعة من النظم والعلاقات المتشابكة ويقل فيها التخصص إلى أدنى درجة ممكنة، أو قد ينعدم نظام تقسيم العمل بها على الإطلاق، هذا بعكس المجتمعات الحديثة التى تؤكد ليس فقط على أهمية تمييز النظم الاجتماعية والفصل بينها، بل وترتكز المجتمعات المدنية أيضا على أهمية الهدف الذى يحققه كل نظام من هذه الأنظمة أو النظم كل

(*) سنتناول هذا الموضوع « التكوين المورفولوجى للمجتمعات البدوية أو البدائية » عند حديثنا عن «مورفولوجيا المجتمعات البدوية » فى فصل تال من هذا الكتاب .

على حدة، ولو أخذنا الأسرة كنظام - ولو على سبيل المثال - لوجدنا أن وظيفتها الاجتماعية الأساسية هى إنجاب الأبناء الشرعيين فى إطار جو من العلاقات المرتكزة على المحبة والتعاون بين أعضاء تلك الأسرة، ويزداد دور هذه الأسرة وضوحا وتحديدا فى المجتمعات المتقدمة، وذلك على العكس بالنسبة للمجتمعات التقليدية حيث تبرز إلى جوار الهدف الأساسى للأسرة، كوجود أو ككيان، مجموعة أخرى من الأهداف التربوية والدينية والاقتصادية والتعليمية والسياسية، وتختلف هذه الوظائف الإضافية عمقا واتساعا من مجتمع إلى آخر حسب طبيعة وظروف كل مجتمع على حدة، فلو أخذنا الوظيفة السياسية للأسرة أو للعائلة فى المجتمعات القبلية، لوجدنا أن الأسرة هى أصغر وحدة سياسية فى المجتمع البدوى، وتعتبر هذه الأسرة على صغرها متمايزة، بمعنى أن لها أبا أو شيخا أو رئيسا مستقلا من أبرز مهامه تنظيم العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعائلة مع غيرها من العائلات، كما يتولى ذلك الرئيس فض المنازعات سواء تلك التي تقوم بين أعضاء العائلة نفسها أو بينهم وبين الآخرين.

ولو أخذنا نظام التربية والتعليم كمثال آخر لطبيعة ووظيفة النظم لتبين لنا أن العملية التربوية أو التعليمية لا ترتكز فى المجتمعات البدوية التقليدية على المدرسة وحدها -إن وجدت - وإنما تسهم أيضا العائلة - كمثال - إلى جوار المدرسة فى أداء مهمة التربية والتعليم عن طريق ما تقدمه الأسرة البدوية لأبنائها من معارف مختلفة فى العديد من المجالات التى تحيط بالجماعات التقليدي (*).

وما يقال عن الأسرة والتربية والتعليم يمكن أن يقال أيضا عن مختلف النظم الاجتماعية الأخرى، الأمر الذى يؤكد ما سبق أن قلناه عن أن المجتمعات البدوية مجتمعات تقليدية تتشابك فيهاالنظم والعلاقات وتتشابه، بدرجة يصعب معها تحديد وظيفة واحدة محددة المعالم وواضحة لأى من تلك النظم منفردة (٣٢).

(*) يجب مراعاة أن كثيرا من المجتمعات البدوية لا توجد بها مدارس على الإطلاق وبحيث تعتبر عملية التربية والتعليم هى إحدى المسئوليات المباشرة للأسرة وعلى النحو الذى وضحناه عند حديثنا عن الأسرة ضمن تناولنا للأشكال المورفولوجية البدوية ضمن مؤلفنا عن « البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية » المشار إليه قبلا .

تعريف المجتمع البدوى:

وحتى نجيب على السؤال المطروح.. ماالمجتمع البدوى ؟!!.. نرى أنه يمكن أن نعرف المجتمع البدوى على النحو الآتى :

« المجتمع البدوى هو ذلك المجتمع الذى يضم تلك الجماعات أو المجتمعات البدائية المحلية التى تحيا فى العصر الحاضر حياة تقليدية تتميز بالبساطة وعدم التعقيد، فضلا عن تشابك العلاقات والنظم الاجتماعية وتعدد وظائفها فيه، كماتمثل تلك الجماعات أو المجتمعات حالة حضارية أقل تقدما لو قورنت بحالات حضارية أخرى متقدمة سواء كانت سالفة أو معاصرة، هذا فضلا عن أن البداوة بصورها المتعددة وبمحتواها المادى والبشرى، تعتبر حجر الزاوية بالنسبة لتلك المجتمعات والجماعات البدوية » (٣٣).

★ ★ ★

المبحث الخامس:

ما موقع المجتمعات البدوية المعاصرة ؟!

بعد العرض الذى قدمناه عن الدراسات التى تناولت العديد من المجتمعات والجماعات البدوية والتى حرصنا أن تكون هذه الدراسات عينة ممثلة لمختلف أنماط تلك المجتمعات.. حيث ضمت الرعاة إلى جانب الصيادين والقناصين وممارسى الزراعة البدائية أو "البعلية"، كما شملت تلك الدراسات، أو احتوت أيضا على مجتمعات صحراوية تقليدية « رملية »، وأخرى "جليدية"، وثالثة "سواحلية"، ورابعة.. تشكل "الغابات" أهم ملامحها الأيكولوچية.

ولكن.. لو أثير سؤال.. أين تقع المجتمعات البدوية وشبه البدوية المعاصرة على خريطة العالم اليوم ؟ !

فإن الجواب فى اعتقادى، يتمثل فى أن البيئات الصحراوية وشبه الصحراوية من العالم اليوم – فى مطلع القرن الحادى والعشرين – تعد المحتوى الأساسى لمعظم

المجتمعات البدوية المعاصرة،وإن كان ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أن تكون ظاهرة البداوة بالضرورة وقفا أو مقصورة على الصحراء.

حيث نجد أنه من أبرز ما أوضحته الدراسات السابقة، أنه توجد هناك مجتمعات بدوية عديدة لا تعيش فى مناطق صحراوية أو حتى شبه صحراوية، بقدر ما تعيش تلك البداوة فى عقول ووجدان كل من كان لهم صلة ثقافية أو حضارية، أو يرتبط بالبدو - الناس - بصلة نسب أو قرابة تشده نحو التضامن مع أعضاء تلك المجتمعات البدوية (٣٤).

وعلى كل فإن الإجابة النهائية للسؤال المطروح تحيط بهاعدة اعتبارات هى :

١ - إنه ليس فى استطاعتنا ذكر كل المجتمعات البدوية على سبيل الحصر ؛ لأن ذلك الحصر الشامل على قدر علمنا شىء ليس له وجود، وبالتالى فإنه من العسير تحديد موضع مجتمعات مجهولة على خريطة معالمها ليست محددة بالوضوح الكافى أو بالكفاءة الواجبة (*).

٢ - إن ما قدمناه من نماذج للمجتمعات البدوية، تم من خلال عدد من الدراسات الحقلية التى قام بها جيل من الباحثين الرواد على امتداد العالم كله، وخاصة باحثى الاجتماع والأنثربولوچيا على مختلف تخصصاتهم.

٣ - إن الثبت أو الحصر الوحيد الموجود - على حسب أو على قدر علمنا - للمجتمعات البدوية هو ذلك الثبت الذى أورده « سبنسر » و«جونسون» ضمن « الأطلس الأنثربولوچى » عام ١٩٦٠، ولقد اعتمد هذاالثبت فى تحديده لوجود المجتمعات البدوية على أساس المناطق الحضارية فى العالم، كمازُود ذلك الأطلس بمجموعة من الخرائط لتوضيح حدود ومعالم كل منطقة حضارية منها على حدة وتعيين أو تحديد أماكن كل منطقة حضارية على امتداد قارات العالم الخمس (٣٥).

(*) وذلك على الرغم من ثورة الاتصالات التى تجتاح وبعنف معظم مجتمعات القرن الحادى والعشرين وتكاد تجعلها - أى المجتمعات - أشبه ما تكون بقرية صغيرة مكشوفة ، لا يمكنها كتمان كل أسرارها حتى ولو رغبت فى ذلك .

٤ - وقع الأطلس المذكور فى خطإ ربما يكون مقصودا (*)، عندما أدخل عرب الشمال « القحطانيين» وعرب الجنوب « العدنانيين» ضمن نماذجه عن الجماعات البدائية. وواضح أن ذلك تجنٍّ قصد به الإساءة إلى العرب، فضلا عن وقوع مؤلفى الأطلس فى خطإ شائع باستعمال لفظ « عرب » للدلالة على البدو، وهذا فهم خاطئ سبق أن تصدينا له فى غير هذا المكان، وما نحب أن نؤكده فى هذا المجال هو أن للبداوة العربية قيمها ودورها الحضارى المقدَّر منذ حملت لواء الدعوة الإسلامية (٣٦).

٥ - إنه لا يجب أن نغفل عن التغيرات العديدة والمتلاحقة التى لحقت بمجتمعات بدوية كثيرة، وذلك بفعل احتكاكات حضارية وثقافية نقلت بعضا من تلك المجتمعات من زمن الجمل والبغل والبقر والرنة وكلاب الصيد إلى عصر الترانزستور والتكنولوجيا الحديثة والليزر والكومبيوتر، وكذلك عصر الإنترنت، وما أحدثته وسائل الاتصال وما نتج عنها من ثروة معلوماتية ذات قيمة عالية.

صحيح أن هذه التغيرات قد هزت بنيان عدد من تلك المجتمعات البدوية وشبه البدوية، بل ودكته دكا، ولكن ذلك التغيير - كتغيير - صار أمرا واقعا، يستدعى وقفة متأنية وتتبعا واعيا أو مدروسا لمختلف مساراته واتجاهاته وآثاره خصوصا ونحن فى رحاب الألفية الثالثة من مسارات ذلك التغيير واتجاهاته وآثاره.. الزمان المعروف (**) (٣٧).

★ ★ ★

(*) وذلك لأنه احتوى على تعميمات غير معبرّة وأحكام غير دقيقة أثّرت إلى حد كبير على مصداقية ما احتواه ذلك الأطلس عند البدو والبداوة .

(**) نقصد بالزمان المعروف، الزمان المرتكز على التقويم «الميلادى» أو التقويم العربى «الهجرى». وغير ذلك من التقويمات الأخرى كالتقويم القبطى... إلخ.

المصادر

(١) للاستزادة انظر مؤلفينا عن تنمية المجتمعات الصحراوية - الأسس النظرية - مرجع سابق ص ص ٧٧ - ١٠٦ ، ودراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ١٦٩ - ٢٨٩ .

(٢) انظر : علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مرجع سابق - ص ١٣٩ .

(٣) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٤) انظر : دكتور صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية - مرجع سابق ص ص ٥٦ - ٥٨ .

(٥) للاستزادة انظر - تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية - المصدر السابق - فى مواضيع كثيرة منه .

(٦) انظر : كيفية تبادل الفائض ضمن المصدر السابق ص ص ٥٨ - ٦٤ .

(٧) انظر : كيفية تبادل الفائض فى : دكتور صلاح الفوال - الأسس النظرية لتنمية المجتمعات الصحراوية - مصدر سابق ، ص ص ٥٨ - ٦٤ .

(٨) انظر : دكتور محمود السقا - تاريخ القانون المصرى - مكتبة القاهرة الجديدة - القاهرة ، ص ص ١٩ - ٢١ .

(٩) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، مصدر سابق ، ص ص ١٤١ - ١٤٢ المتن والهامش .

(١٠) انظر دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(١١) المصدر السابق ص ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(١٢) انظر : Robert Redfield . "The Folk Society " . The American Journal of Sociology . 1947.

(١٣) انظر ايفانز بريتشارد - محاضرات فى الأنثربولوچيا الاجتماعية - ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد - منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٦٠ ص ص ٢٦ - ٢٧ ، و انظر أيضًا : دكتور صلاح الفوال - المصدر السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ المتن والهامش .

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(١٥) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٧٢ - ٢٨٣ .

(١٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ١٤٦ الهامش .

(١٧) للاستزادة انظر - دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(١٨) المصدر السابق - ص ٢٧٧ .

(١٩) للاستزادة انظر - دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

(٢٠) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ١٤٧ الهامش .

(٢١) الدكتور عاطف وصفى - الانثربولوجيا الاجتماعية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧ - ص ص٤٧ ، ص ص ٩١ - ٩٢ .

(٢٢) للاستزادة انظر : دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢٣) الدكتور عبد الحميد لطفى - الأنثربولوجيا الاجتماعية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٨ ص ص٨٧ - ٨٨ .

(٢٤) انظر : Aly A. ISSA , Social Anthropology , Cairo , 1964, pp. 279 - 280

(٢٥) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الكتاب الثانى - البنية الاجتماعية للمجتمعات البدوية - مكتبة غريب - القاهرة - ٢٠٠١ .

(٢٦) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - الطبعة الثالثة - مصدر سابق - ص ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٢٧) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢٨) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٤٨ - ١٤٩ ، المتن والهامش .

(٢٩) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - الطبعة الأولى - مرجع سابق - ص ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٣٠) انظر : دكتور أحمد الخشاب - دراسات أنثربولوجية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٠ ص ١٣٣ .

(٣١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٥٠ - ١٥١ ، المتن والهامش .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣٣) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٣٤) انظر مؤلفنا عن « البداوة العربية والتنمية » لتأخذ فكرة أوضح عن البداوة القيمية .

(٣٥) Spencer R. and Johnson E. At,last for Anthropology.

(٣٦) انظر مؤلفنا عن « البداوة العربية والتنمية» - مصدر سابق ، ص ص ٣٦ - ٣٩ .

(٣٧) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ١٥٢ .

★ ★ ★

الباب الرابع

البداوة والترحال

أهم ملامح المجتمعات البدوية

- مقدمة حول طبيعة البداوة والترحال فى المجتمعات العشائرية.
- البداوة نمط الحياة السائد فى المجتمعات البدوية.
- أنماط البداوة فى المجتمعات القبائلية.
- الترحال.. طبيعته وتأثيراته فى المجتمعات العشائرية.

مقدمة
حول طبيعة البداوة والترحال في المجتمعات العشائرية

تحدثنا قبلا عن المجتمع البدوى، واستعرضنا بعض النظريات والآراء التى تناولت تطور المجتمعات البشرية، وصولا إلى تحديد دقيق أو شبه دقيق لموقع المجتمع البدوى على خريطة تطور المجتمعات البشرية.

وانتهينا إلى تعريف للمجتمع البدوى برزت من خلاله مجموعة من الحقائق الآتية :

١ - ان المجتمع البدوى يشتمل على مجموعة من المجتمعات البدائية، بما ضمته أو تضمنته تلك المجتمعات من وحدات اجتماعية مختلفة ومتعددة، ابتداء من العائلة، وانتهاء بالقبيلة، و مرورا بالفخذ والبدنة والبطن والعشيرة.

٢ - ان المجتمعات البدوية.. مجتمعات تقليدية تتميز بالبساطة وعدم التعقيد إلى جوار تشابك النظم والعلاقات الاجتماعية بها، مع تعدد وظائف تلك النظم وتداخل أهدافها.

٣ - ان المجتمعات البدوية وقفت، فى تطورها، نتيجة لظروفها الخاصة - عند حالة أو مرحلة حضارية متخلفة إلى حد كبير لو قورنت بغيرها من المجتمعات المتحضرة سواء منها التاريخية أو المعاصرة.

٤ - ان البداوة - كظاهرة - بصورها وأنماطها المختلفة وبمحتواها المادى والبشرى تعتبر حجر الزاوية بالنسبة لتلك المجتمعات البدوية القبائلية منها أو العشائرية.

٥ - ان الترحال بخصائصه وتأثيراته المختلفة - يعتبر من أبرز مظاهر الحياة فى المجتمعات البدوية وضوحا، وأكثرها تأثيرا على مقدرات غالبية تلك المجتمعات خصوصا الرعوية منها.

ومن هنا.. كان لابد لنا أن نتناول.. كلا من البداوة والترحال بمزيد من الشرح أو التفصيل.. البداوة باعتبارها نمط الحياة السائد فى المجتمعات البدوية أو شبه البدوية على اختلاف صورها، والترحال باعتباره السمة السائدة لدى مجتمعات بدوية كثيرة، سواء التاريخى منها أو المعاصر.

★ ★ ★

الفصل الأول

البداوة .. نمط الحياة السائد فى المجتمعات البدوية

- مقدمة .
- حول مفهوم البداوة .
- البداوة كما نراها .

البداوة.. نمط الحياة السائد فى المجتمعات البدوية

مقدمة:

سبق أن قلنا فى غير هذا المكان أن البداوة وإن كانت تبدو اليوم نمطا خاصا من أنماط الحياة الاجتماعية يمكن وصفه بالتخلف، إلا أنها - أى نمط أو حالة البداوة - كانت تمثل منذ القدم حضارة ما قبل التاريخ.

والبداوة القديمة وإن كانت تختلف فى معظم صورها عما هى عليه اليوم، إلا أن جمهرة المؤرخين قد أجمعت على أن الإنسانية قد نشأت بين أحضان البداوة، حيث كانت بداوة ما قبل التاريخ ترتكز على عدم الاستقرار والتنقل سعيا وراء مصادر القوت، ومن هنا، من استمرار تميز حياة البداوة بالترحال المستمر، علاوة على عدم الاستقرار، نقول ومن هذه النقطة كان الإجماع لجمهرة الباحثين والمؤرخين على أن الإنسان بدأ حياته بدويا، وظل على بداوته وتجواله حتى استقر على شواطئ الأنهار بعد اكتشافه للزراعة.

كما أوضحنا أيضا أن بداوة ما قبل التاريخ اتسمت بأنماط مختلفة مازالت بعض حلقاتها متصلة حتى اليوم، فقد عرفت البداوة جمع الثمار والصيد والرعى والزراعة المتنقلة والبعلية (*) ومازالت معظم هذه النشاطات على أصالتها حتى الآن، وعلى الأخص الرعى الذى ظل يشكل جانبا أساسيا وهاما من ملامح البداوة فى عصرنا مع ما يتطلبه الرعى من حركة وتنقل، تحدده طبيعة الحيوان الراعى والسائد لدى الجماعة العشائرية البدوية [1].

(*) أى تلك الزراعة التى تعتمد على المطر وحده .

وبيَّنا كذلك أن رعاة الإبل والخيل والرنة هم أكثر البدويين تجوالا فى الصحراء، على عكس رعاة الضأن والماعز والبقر الذين يميلون إلى الاستقرار النسبى حول منابع المياه ومصادر العشب أو الكلأ خصوصا عند أطراف الصحارى، حتى لا تنفق أو تموت حيواناتهم نتيجة لعدم قدرة هذه الحيوانات على تحمل الجفاف والعطش والجوع [٢].

★ ★ ★

المبحث الأول:

حول مفهوم البداوة:

هذا ويمكننا أن نتعرف أكثر على البداوة من خلال ما يأتى [٣] :

١ - البداوة هى نمط الحياة القائم على التنقل والترحال الدائم للإنسان فى طلب الرزق، أو حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار عندها أو حولها، على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية، وعلى كفاية أو كفاءة الوسائل المستعملة فى استغلال أو استثمار تلك الموارد من ناحية أخرى، وكذلك على مدى كفاية الأمن الاجتماعى والطبيعى الذى يمكن أن يتوافر للبدو من جهة ثالثة [٤].

٢ - البداوة اصطلاح يطلق على فئة من السكان الذين يتميزون بخصائص معينة، وسلوك خاص تتحدد ملامحه إلى جد كبير من خلال البيئة المحيطة بهم، ولا تسمح - تلك البيئة - بإقامة حياة سكانية مستقرة، فالبداوة تعنى الترحال وعدم الاستقرار فى مكان ثابت طوال العام، إذ تضطر بعض الجماعات أو العشائر إلى أن تغير مناطق إقامتها من آن لآخر، أو من فصل لآخر سعيا وراء مصادر الغذاء أو القوت، وسعيا كذلك وراء أبواب الرزق المختلفة ومنها الرعى أو الزراعة أو التجارة كما هو الحال فى كثير من أقاليم السهول والصحارى، وفى عُرف بعض

الجغرافيين لا يطلق هذا اللفظ « الترحال »، إلا على ذلك النوع المنظم من الترحال، أما القبائل والجماعات التى تتجول دون أن تعرف لها أوطانا ترجع إليها، ومنها «الغجر» و بعض الجماعات التى تعيش على الالتقاط فى أستراليا وأفريقيا فلا تدخل تحت تعريف هذا الاصطلاح، وإن كان من الصعب أن نجزم بوجود جماعات لا أوطان لها على الإطلاق (٥).

٣ - البداوة مرحلة متميزة من مراحل النمو أو التطور الحضارى للمجتمعات البشرية، هذا التطور الحضارى الذى يتناول بالتغيير عادة جانبين أساسيين هما :

(أ) الجانب المادى : ويشمل ما يستخدمه الإنسان من أدوات وأجهزة، وغيرها من عناصر البيئة الطبيعية التى تحيط به.

(ب) أما الجانب غير المادى : فيتناول العادات والتقاليد والأعراف والقيم، علاوة على غير ذلك من الأساليب التى تنظم سير الحياة الاجتماعية بأنظمتها المختلفة (٦).

٤ - البداوة سمة من سمات الحياة الاجتماعية فى الصحارى نشأت - أى البداوة - كرد فعل إيجابى لظروف الحياة فيها (٧).

٥ - البداوة مرحلة حضارية قديمة كانت تمثل حياة الإنسان كله على سطح الأرض منذ نشأته حتى العصر الحجرى الحديث، والبداوة الحالية من الناحية الجغرافية عبارة عن حالة ملاءمة بشرية بين هؤلاء المتخلفين وبين ظروف البيئة الطبيعية (٨).

٦ - البداوة لا تعنى أبدا التجوال بغير هدف عبر الصحارى بل هى تمثل أقصى نوع من التوافق والتكيف للحياة البشرية مع الطبيعة القاسية (٩).

٧ - تميل معظم التعريفات السابقة إلى الربط ما بين ظاهرة البداوة وبين المجتمعات الصحراوية، وبحيث تكاد تلك التعريفات بشكل أو بآخر

تتصب على نمط واحد من أنماط البداوة ونعنى به البداوة الرعوية، صحيح أن البداوة الرعوية تكاد تمثل أكثر أنماط البداوة سعة وانتشارا، إلا أن البداوة الرعوية ليست هى نمط البداوة الوحيد حيث توجد إلى جوارها عدة أنماط أخرى سنتعرض لها فى حينه.

★ ★ ★

المبحث الثانى:

البداوة كما نراها:

لو حاولنا وضع تعريف لظاهرة البداوة من وجهة نظرنا لقلنا :

« إن البداوة هى نمط من أنماط الحياة المجتمعية، وتسود بوجه خاص لدى المجتمعات العشائرية البدوية - محلية كانت أو أممية أو عالمية - وتعتبر البداوة نوعا من التكيف الاجتماعى لكل من الفرد والجماعة والمجتمع مع الظروف البيئية الصعبة والقاهرة التى أحاطت به، وارتكز هذا التكيف سواء بالنسبة للإنسان أو للمجتمع على مجموعة من القيم والعادات والتقاليد والأعراف والنظم التى مكنته - فردا كان أوجماعة أو مجتمعا - من أن يحيا ويستمر على الرغم من العزلة شبه التامة المفروضة عليه ».

هذا ويمكن أن نستخلص من التعريف السابق مجموعة الحقائق الآتية (١٠):

(أ) إن مظاهرة البداوة هى احد أنماط الحياة التى عرفتها وتعرفها المجتمعات البشرية مثلها فى ذلك مثل ظاهرتى التريف والتحضر.

(ب) إن البداوة نمط حياة متكامل له من الخصائص ما يمكنه من الحفاظ على حياة المجتمعات العشائرية البدوية بكل ما تضمه من جماعات وأفراد.

(جـ) إن للبداوة محتويين أحدهما مادى والآخر بشرى أو قيمى، ونعنى بالمحتوى المادى مختلف الظروف والعوامل الاقتصادية والجغرافية والطبيعية التى تشكل سمة الحياة الرئيسة فى أى مجتمع بدوى.

ونعنى بالمحتوى البشرى، أو القيمى أو الإنسانى : الناس، البدو بكل ما ينظم حياتهم من معتقدات وعادات وتقاليد وقيم ونظم ونماذج وسلوك، أفرزتها الموروثات الشعبية.

(د) إن العزلة - سواء فى ذلك العزلة المكانية أو العزلة الحضارية - تكاد تكون هى الطابع المميز للبداوة، وبحيث يمكن اعتبار تلك العزلة أحد أسباب ظاهرة البداوة وأداة تأصلها فى آن واحد، وذلك بما فرضته تلك البداوة سواء على البدوى كفرد أو على المجتمع البدوى ككل، من وسائل ونظم ونماذج سلوك، تكاد تكون نمطية فى معظمها لدرجة تجعل من الصعب الخروج منها أو تعديلها.

(هـ) إن البيئة تمارس نفوذا لا حد له على المجتمعات البدوية، فهى التى تحدد للبدوى نوع غذائه وكيفية حصوله عليه، وكذلك ملبسه ومشربه ومسكنه... إلخ، كما تحدد له أيضا حيواناته كما ونوعا. والأكثر من هذا، أن البيئة تمارس تأثيرها على الإنسان نفسه، من حيث لون بشرته ومدى قوته أو ضعفه، بل وتحدد أيضا مبدأ وجود ذلك الإنسان نفسه فى بقعة ما من عدمه، كما تحدد كذلك مزاجه النفسى والاجتماعى أيضا (١١).

وفى نفس الاتجاه عن أثر البيئة على الحياة البشرية، تحدث «داريل فورد» خلال مؤلفه « البيئة والاقتصاد والمجتمع » لندن - ١٩٦٢، وتحدث كذلك العالم العربى ابن خلدون ضمن مقدمته الشهيرة المعروفة باسمه عن ذات الموضوع، وتناول نفس الموضوع أيضا « مونتيسكيو» خلال كتابه « روح القوانين ».

كما ذكر « توينبى » خلال كتابه « دراسة فى التاريخ » لندن - ١٩٦٢، أن الطبيب الإغريقى « هيبوقريطس »، كان أول من نبه خلال القرن الخامس قبل الميلاد إلى أهمية دور البيئة فى حياة الإنسان، وأوضح أثر

الجبال والوديان على التكوين الجسمانى وكذلك على التكوين العقلى للإنسان، كما تحدث المؤرخ العربى المسعودى خلال كتابه «مروج الذهب» عن أثر البيئة فى حياة الإنسان (١٢).

هذا وقد تحدث « لوسيان » باستفاضة عن أثر البيئة على التطور البشرى خلال كتابه « الأرض والتطور البشرى » والذى ظهر ضمن الموسوعة التاريخية الفرنسية الكبرى عن تطور الإنسانية أو البشرية (١٣).

(و) إن البداوة لم تعد نمط الحياة الوحيد فى أى مجتمع من المجتمعات المعاصرة، ومن الجائز أن ذلك كان موجودا أيام المجتمعات التاريخية، ولكن من المؤكد أنه لم يعد موجودا الآن، حيث صارت المجتمعات البدوية لا تعدو أن تكون على أحسن الأحوال، قطاعا من مجتمع يشكل مع غيره من القطاعات، الريف والحضر مثلا، ركائز مجتمع متكامل، وقد تكون البداوة فى كثير من تلك المجتمعات، لا تعدو أن تكون مجرد جيب متخلف كما يحلو للبعض أن يسميه، وقد لا توجد بداوة بمعناها التقليدى - على الإطلاق - كما هو الحال فى مجتمعات أوروبية كثيرة (١٤).

(ز) كان ذلك الحديث عن الناحية المادية للبداوة، أما الكلام عن الجانب القيمى أو الفكرى للبداوة، أى القيم والعادات والتقاليد والأعراف وغيرها من الموروثات الشعبية، فمن المؤكد أن تأثيرات ذلك الجانب القيمى قد جاوزت حد القطاع البدوى، وخصوصا بالنسبة للمجتمعات العشائرية التى كانت البداوة هى النمط الوحيد السائد فيها لأجيال بشرية أو بدوية كثيرة (١٥)(*).

(ح) إن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول لم تحد فقط من الحرية التى كانت ممنوحة للقطاع البدوى، وإنما أوجبت أو استلزمت ترويض

(*) البداوة كانت ومازالت وستظل نمط الحياة السائد فى كثير من المجتمعات البدوية .. العشائرية منها والقبائلية ، ونقول « نمط الحياة السائد » وليس الوحيد لوجود أنماط أخرى بالضرورة منها الريفى والحضرى « المدنى » .

ذلك القطاع ليخضع لسلطان الدولة من جهة، وليكون عنصرا مشاركا من جهة أخرى فى بناء الدولة ككل، هذا إلى جانب ما صاحب تلك الظروف من تغيرات حضارية وتكنولوجية جعلت حياة البداوة - حتى على نطاق الدولة - الواحدة شيئا يكاد يكون غير مقبول على الإطلاق [١٦](*).

★ ★ ★

(*) خصوصا ونحن فى رحاب الألفية الثالثة من الميلاد ، وفى ظل وسائل اتصال تكنولوچية وحضارية هامة على رأسها الكومبيوتر والإنترنيت «الحاسب أو الحاسوب الآلى، وشبكة تبادل المعلومات الدولية وحفظها» ، وما صاحبها من تغيرات بالنسبة للبنيتين الفوقية والتحتية وفى كل المجتمعات بما فيها المجتمعات العشائرية البدوية .

المصادر

(١) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ٣١٦ .

(٢) للاستزادة انظر : كتابنا البداوة العربية والتنمية - مرجع سابق ص ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ص ١٣٤ - ١٣٧ .

(٤) دكتور محيى الدين صابر ، دكتور لويس كامل مليكة - البدو والبداوة - مركز تنمية المجتمع - سرس الليان منوفية - ١٩٦٦ ص ٨ .

(٥) انظر : دكتور يوسف كونى - معجم المصطلحات الجغرافية - القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٣ فى دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ٢٩٨ .

(٦) للاستزادة انظر : دكتور صلاح العبد - رعاية البدو فى المملكة العربية السعودية - فى « رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم » - الجامعة العربية - القاهرة ١٩٦٥ - الجزء الأول ص ٣٧٥ .

(٧) لواء محمد حسين صبيح - المرجع السابق ص ٤٨٦ .

(٨) دكتور إبراهيم رزقانة - الجزء الثانى من المرجع السابق ص ٣٣١ .

(٩) Berger, Morroe, The Arab Word, Doubleday & Co. New York, 1964, p. 43 .

(١٠) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٣٠٠ - ٣٠١، فى مواضع كثيرة منه .

(١١) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ، ص ص ٣٠٠ -٣٠١.

(١٢) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ١٥٧ -١٥٨ ،

(١٣) انظر : لوسيان - الأرض والتطور البشرى - ترجمة الدكتور محمد السيد غلاب - مشروع الألف كتاب الجزأين الأول والثانى - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٥٧ .

(١٤) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ١٥٧ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(١٦) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٣٠٠ - ٣٠٢ .

★ ★ ★

الفصل الثانى

أنماط البداوة وأشكالها فى المجتمعات القبائلية

- مقدمة .
- البـدواة فى ظل نمطى الجـمع والالتـقـاط والصيد .
- خصائص البداوة فى الالتقاط والصيد.
- حول مفهوم البداوة الرعوية.
- أنماط البـداوة الـرعـوية وأشكالهـا «بداوة الرعى».
- أسباب البداوة الرعوية وخصائصها.
- بداوة الزراعة غير الدائمة والبدائية وبعض الأنماط الأخرى للبداوة.
- مظاهر البداوة وحجمها فى المجتمعات البدوية.
- هل البداوة وقف على الصحراء ؟!

أنماط البداوة وأشكالها فى المجتمعات القبائلية

مقدمة:

يمكننا أن نحدد الأنماط المختلفة لظاهرة البداوة معتمدين أو مستندين فى ذلك التحديد، على ما سبق أن أوردناه خلال حديثنا عن «ماهية المجتمعات البدوية»، لنجد أن البداوة تضم أربعة أنماط رئيسة هى [1]:

(أ) بداوة الجمع والالتقاط.

(ب) بداوة الصيد والقنص.

(جـ) بداوة الرعى.

(د) بداوة الزراعة البدائية أو البعلية.

وسنحاول هنا أن نلقى بعض الضوء على كل نمط، وإن كنا نلفت النظر منذ البداية إلى حقيقتين أساسيتين:

١ - الحقيقة الأولى:

أنه ليس هناك نمط بداوة متمايز من حيث الوجود، أو يسود نمط وحيد بصورة أو بصفة مطلقة، وإنما قد تتداخل بعض هذه الأنماط، أو قد توجد معا فى آن واحد، ولكن يظل بروز واحد منها شيئا ضروريا كعلامة على مرحلة حضارية معينة.

٢ - أما الحقيقة الثانية:

تتجلى هذه الحقيقة فى أن ما سنذكره هنا من تتابع لتلك الأنماط العشائرية، لا يعنى بالضرورة تدرجا لها، بمعنى أنه ليس من الضرورى أن يمر مجتمع بدوى ما خلال نموه الحضارى من مرحلة إلى التى تليها فى تتابع زمنى أو حضارى رتيب

أو حتمى، فكثير من المجتمعات قد تعرف «نمط» الجمع والالتقاط والصيد والزراعة البدائية أو حتى الزراعة الكثيفة دون أن تعرف «بداوة» الرعى، وقد تعرف مجتمعات عشائرية أخرى كثيرة، بداوة «الرعى» دون أن تمر أو تعرف بداوة الجمع والالتقاط أو الصيد بمفهومه المرتكز على عملية «القنص»، كما هو الحال بالنسبة لكثير من المجتمعات البدوية «العربية» حيث عاشت منذ القدم وحتى اليوم فى ظل نمط البداوة «الراعية» وحده، والأمثلة كثيرة سواء من خلال المجتمعات التاريخية أو المعاصرة التى عاشت وتعيش فى رحاب أو فى ظل ظاهرة البداوة.

★ ★ ★

المبحث الأول

(أ) البداوة فى ظل نمطى الجمع والالتقاط والصيد:

تعتبر بداوة الجمع والالتقاط هى أول أنماط الحياة الإنسانية، بل إن بعض المفكرين يعتبرون أن هذه المرحلة هى «المهد» الذى ضم طفولة الإنسان المبكرة منذ آلاف السنين، ومن خلال هذه المرحلة عاش الإنسان البدوى عالة على ما تقدمه له الطبيعة دون أن يبذل جهدا ابتكاريا يذكر.

ومن أبرز الأمثلة المعاصرة لجماعات «مرحلة» الجمع والالتقاط، جماعات «الأستراليين الأصليين» التى تعيش فى أواسط أستراليا، وكذلك «البوشمان» و«البيجمى» فى جنوب ووسط القارة الأفريقية، وسبق أن تحدثنا عن كل من القبائل الأسترالية والبوشمان فى الفصلين الثالث والعاشر ضمن الباب الأول من هذا الكتاب.

(ب) بداوة الصيد:

لا شك أن الجماعات أو الوحدات العشائرية داخل هذا النمط أكثر تقدما فى سلم الحضارة من جماعات نمط الجمع والالتقاط، حيث يعيش أعضاء هذا النمط على الصيد، ابتداء من صيد السمك على طول شواطئ البحار والأنهار والبحيرات، وانتهاء بصيد الحيوانات داخل الصحراوات المختلفة بوسائل ابتكارية كالقوس والسهم وما إليهما.

ومن أبرز جماعات هذا النمط «الإسكيمو»، و«الهنود الحمر»، وسبق أن تحدثنا عن كل منهما بتفصيل أكثر خلال الفصلين الخامس والسادس ضمن الباب الأول من هذا الكتاب.

هذا وقد ذكر «الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر» خلال حديثه عن قبائل «الظهوريين» الموجودة على ساحل عمان: ذكر أنهم ينقسمون إلى أهل بحر أو "رعاة بحر"، وأهل جبل أو "رعاة جبل"، ويرى أنهم جميعا "أنصاف" بدو، حيث يعمل أهل "البحر" أو رعاته، فى الصيد وإن كانوا قبلا يعملون فى الغوص بحثا عن اللؤلؤ، أما أهل "الجبل" ورعاته فهم منصرفون إلى الرعى ويقتنون الإبل والخيل والبقر والضأن والماعز ويزرعون القمح والشعير زراعة موسمية، ولقد دار حديث "الدكتور محيى الدين صابر" فى هذا الشأن حول المقارنة بين نمط "البداوة الرعوية" بالمفهوم السائد، وبين نمط آخر أطلق عليه نمط "الحياة البدوية البحرية" مرتكزا فى تلك المقارنة على غلبة نوع النشاط الاقتصادى السائد(٢).

★ ★ ★

المبحث الثانى:

خصائص البداوة فى ظل نمطى الجمع والالتقاط والصيد:

تتميز البداوة فى ظل هذين النمطين بمميزات أو خصائص عامة أو مشتركة يمكن أن نوجزها فيما يلى :

(أ) وضوح تأثيرات البيئة الطبيعة وبروز سيطرتها :

حيث أدت كل الظروف البيئية الصعبة إلى خضوع مجتمعات هذين النمطين واستسلام البدو إلى تلك الظروف المحيطة بشكل يكاد يكون تاما، وكما فرضت نفس الظروف البيئية نباتات وحشائش أو غابات معينة، استوجبت أيضًا هى الأخرى ضرورة وجود حيوانات خاصة كذلك، وهى تلك التى يمكنها أن تعيش على هذه

النباتات أو الحشائش الصحراوية، كما أن البيئة الطبيعية الصحروابة قد فرضت أيضا على إنسان هذين النمطين حياة اجتماعية «بدائية»، وظروفا معيشية خاصة.

(ب) التقوقع والعزلة الشديدة :

ويتم هذا التقوقع بعيدا عن مسارات الحضارة الإنسانية، وترتبط هذه الخاصية «التقوقع» بشكل أو بآخر بالخاصية التى سبقتها، حيث أدت نفس الظروف البيئية إلى إرغام مجتمعات هذين النمطين إلى التقوقع على نفسها داخل مناطق نائية أو قاحلة، وبعيدة عن المناطق الحضارية سواء التاريخية منها أو المعاصرة.

(ج) التنقل الدائم والترحال المستمر:

وذلك لأن اعتماد الجماعات العشائرية فى نطاق «بداوة» الجمع والالتقاط أو الصيد على ما تجود به الطبيعة من ثمار وجذور درنية وحيوانات صغيرة، يجعل - أى ذلك الاعتماد التام على ما تجود به الطبيعة - يجعل أى مكان من مسارح العشيرة أو القبيلة عاجزا وحده عن سد أو اشباع احتياجات الجماعة البدوية إلى فترة طويلة تسمح بالاستقرار، لذلك فالجماعات العشائرية أو البدوية داخل هذين النمطين - الالتقاط والصيد - دائمة التنقل سعيا وراء ما يمكن أن يلتقط أو يجمع أو يصطاد من مختلف أشكال الغذاء نباتية كانت أو حيوانية... إلخ.

(د) ضآلة عدد الوحدات العشائرية القرابية :

علاوة على ضعف سيطرة تلك الجماعات القرابية، وعدم بروز دور التنظيمات المجتمعية بشكل واضح، ولعل ذلك راجع لضآلة موارد الرزق من جهة، ولاضطرار الجماعة البدوية إلى التنقل الدائم أو الارتحال المستمر من جهة أخرى.

أما عن ضعف التنظيمات الاجتماعية فلعل ذلك راجع إلى أن المستوى الحضارى والثقافى لهذه الجماعات العشائرية، لا يُمَكّن من قيام أو تكوين تنظيمات اجتماعية قوية، إن لم يكن يمنع وجودها أصلا.

هذا ويرى كثير من الباحثين أن الصحراء ليست غرما كلها على ساكنيها، فهى إلى جانب أنها مستقر البدوى وقراره، تقوم بدور الرقيب الأمين على تقاليده المقدسة، وهى أيضا الحافظة عليه لغته الخالصة ودمه النقى، وهى خط دفاعه الأول ضد عدوه الزاحف عليه من العالم الخارجى، أيا كانت هوية ذلك العدو أو مطلبه، فقد يأتى غازيا أو متعصبا لحضارة أو لثقافة، أو لدين أو لعنصرية ما، أو جاء ذلك العدو، ساعيا إلى تجارة أو ما شابهها... إلخ.

نقول إن الصحراء هى خط الدفاع الأول للبدويين ضد العدو، والعدو الخارجى بالذات، حيث تتحول عيوب الصحراء إلى مميزات، ولدرجة أن كل الأعداء الطبيعيين فى الظروف العادية "الجفاف والقحط أو ندرة المياه، وشدة" الحر. ووعورة المسالك، وفقدان الطعام »، حتى كل هؤلاء ينقلبون من خصوم للإنسان البدوى فى الظروف العادية، إلى أقوى الحلفاء له فى حالة الخطر، ومن هنا كان اعتزاز البدوى - خصوصا فى نطاق البداوة العربية - بنفسه وبقبيلته وعشيرته، وعدم خضوعه لمذلة محتل أو دخيل، وأدرك كثير من الحاضرين «أى أهل الحضر» من العرب، بعض مميزات البوادى والصحراوات فراحوا يتلمسون المراضع لأطفالهم فى البادية لأمرين، أولهما : ان أولئك الأطفال يبتعدون فى البوادى عن أمراض الحواضر والتى كثيرا ما تصيب الصغار، وهناك فى البدو - أى الصحراء - تقوى أجسامهم واعوادهم وتشتد أعصابهم، وتصفو أذهانهم، لما فى هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن، وثانيهما : أن الصغار يتقنون اللسان العربى فى مهدهم أو منذ نعومة أظفارهمَّ «كما يقولون»، وبدو الصحراء إلى جانب فصاحتهم أجهر صوتا وأسلس عبارة (٣) (*).

★ ★ ★

(*) يمكن للقارئ العزيز أن يعود إلى آراء المفكرين والفلاسفة العرب فيما يخص أسباب تفضيل العرب لسكنى البدو ، وبصفة خاصة ما كتبه « المسعودى » فى هذا المجال ضمن الباب الأول من هذا الكتاب .

المبحث الثالث:

حول مفهوم البداوة الرعوية

(أ) ما بداوة الرعى أو البداوة الرعوية ؟ !

لعل البداوة الرعوية هى نمط الحياة السائد الآن لدى كثير من المجتمعات العشائرية البدوية المعاصرة، وخصوصا تلك التى تعيش منها فى المجتمعات أو البيئات الصحراوية، لدرجة أن كثيرا من الباحثين قد ربطوا بين «البداوة» كظاهرة وبين الصحراء أو «البيداء» كمحتوى مكانى، وبحيث يكون وجود أحدهما مدعاة لوجود الآخر (٤).

وعموما يمكننا أن نتعرف أكثر على البداوة «الرعوية» من خلال النقاط التالية (٥) :

(ب) ما مفهوم البدو والبادية ؟!

بغير أن تجرنا اللغة إلى متاهاتها البعيدة والمرهقة، نقول : إن البادية هى الصحراء، ومن ينتسب إليها فهو بدوى، ومن أقام بها فهو متبدى، والإطار العام الذى يشمل الإقامة فى الصحراء والتعود على العيش بها هو "البداوة"، وعلى هذا يكون أهل البدو - أى أهل الصحراء - غير أهل الحضر، والبدو هم أصحاب النجعة، وارتياد الكلأ، وتتبع مصادر الغيث أو المطر.

هذا وقد صنف «المرحوم الأستاذ محمد مبروك نافع» فى كتابه «تاريخ العرب»، صنف سكان البلاد العربية إلى نوعين رئيسين "بدو" رحل، و"حضر" مقيمين، والخط الذى يفصل ما بين عناصر الرحل وعناصر المقيمين من السكان، هذا الخط ليس دائما واضح التحديد، فهناك مراحل نصف بدوية وأخرى نصف حضرية، ولا يزال سكان المدن الذين كانوا فى يوم ما بدوا، ينمون عن أصلهم البدوى، ودماء السكان الحضريين تتجدد باستمرار بما يُقْدِم - أى يضاف أو يفد أو يَجِد - عليها من الأصول البدوية.

وعلى هذا فإن «البدوى» هو ساكن الصحراء أو البيداء، و«البدو».. جمع بدوى. يشكلون فى مجموعهم عددا من القبائل الرحل التى يعيش أعضاؤها فى الخيام ويعتمدون على الرعى فضلا عن منتجات حيواناتهم بصفة أساسية (٦)(*).

ويؤلف البدو " الرعاء " أو الرعاة نسبة لا يستهان بها من عدد سكان العالم، حيث بلغ تعدادهم بالنسبة لسكان منطقة كالشرق الأوسط مثلا بما فى ذلك البلاد العربية، حوالى العشر، وإن كانوا يعيشون ويستخدمون فى ذات الوقت حوالى تسعة أعشار مساحة أرض المنطقة، ويقضون معظم أيام السنة فى تجوال مستمر سعيا وراء الماء والعشب أو الكلأ (٧).

والذى يحدد دورة التجوال السنوية للبدو هو حاجات قطعانهم للغذاء حيث يتجولون داخل الصحراء أثناء فصل الشتاء الممطر، ويستقرون قريبا من العيون والآبار، وعند أطراف الصحارى خلال شهور الصيف الجافة والحارقة (٨)(**).

★ ★ ★

المبحث الرابع:

أنماط البداوة الرعوية وأشكالها

مقدمة:

كان « ابن خلدون » سبَّاقا عندما وضع البدو على درجات أو مستويات أو أنماط ثلاثة تبعا لدرجة ظعنهم فى الصحراء، وبعدهم عن الحضارة، وأطلقنا على هذه المستويات خلال كتابنا « البداوة العربية والتنمية» مصطلح « سلم البداوة »، المهم أننا نلمح فى أقصى السلم، البدو الذين يعتمدون على الإبل فى معاشهم، ويطلق « ابن خلدون » على هؤلاء لفظ «الإبالة » أى « رعاة الإبل » (***). ويليهم فى

(*) ينطبق هذا المفهوم على البداوة المرتبطة بالصحراوات الجافة أو الرملية الحارة ، اكثر مما ينطبق عى المفهوم الواسع للصحراء الذى انتهينا إليه .

(**) ليست البداوة وقفا على الصحراء، ولقد سبق أن عالجنا هذه القضية ضمن كتابينا «البداوة العربية والتنمية»، و«تنمية المجتمعات الصحراوية بجزأيه» كما أوضحنا ذلك أيضا فى فقرات كثيرة من هذا الكتاب، خاصة فى المبحث الخامس من هذا الفصل.

(***) وقد يطلق عليهم لفظ «الجمالة».

الترتيب « الشاوية » أى أصحاب «الشاة » أو الشياه وهم رعاة « الضأن »، ووضع «ابن خلدون » معهم - أى مع الشاوية - على نفس الدرجة « البقارة » أى رعاة البقر، ويأتى فى أسفل السلم - سلم البداوة - الممتهنون للزراعة وهم «الزراع» الذين مارسوا أو يمارسون نوعا من أنواع الاستقرار «الجزئى»، فى الواحات وحول الآبار والعيون والوديان أو بجوار أحد المراكز الحضرية القريبة (٩).

كما يمكننا أيضا التعرف على أنماط أو أشكال البداوة الرعوية من خلال معيار « مدى تأصل ظاهرة البداوة من عدمه »، حيث توجد فى هذا الشأن أربعة أنماط أو أشكال رئيسة هى :

(أ) البداوة الخالصة أو البداوة الكلية « أو الكاملة » أو « البداوة التامة» :

وتمارس الجماعة البدوية بكل بدناتها خلال هذا النمط، الظعن « الترحال » فى قلب الصحارى، ومن الطبيعى أن يكون دليلها فى ذلك هو الجمل بما له من قدرة فائقة على التكيف مع الظروف البيئية الصعبة، علاوة على ما للجمل من وضعية أو مكانة ممتازة خاصة عند البدويين الصحراويين (١٠).

هذا ويكفى دليلا على ما للجمل من أهمية ومكانة خاصة فى حياة بداوة كالبداوة العربية مثلا، أن اللغة العربية تضم نحو ألف اسم للجمل على اختلاف أنواعه وجنسياته ومراحل نموه،ولا يضارع الجمل فى ذلك إلا عدد المرادفات لكلمة «السيف»، ومما يروى عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب قوله : « إن العربى "أى البدوى" ينجح حيث ينجح الجمل » (١١).

ويرى فريق من الباحثين أن الصحراء تحكمها حكومة «ثلاثية» قوامها البدو، والإبل، والنخيل، كما يضيف عدد من الباحثين إلى هؤلاء الحكام، الرمل كحاكم رابع لإمبراطورية الصحراء (١٢).

(ب) البداوة الجزئية أو البداوة الناقصة :

وهى أقل توغلا أو تأصلا فى البداوة، وذلك نتيجة لعدم قدرة الحيوان الراعى على التوغل داخل الصحارى وعدم احتماله للجفاف الشديد الكائن أو الموجود فى قلب تلك الصحارى.

ومن هنا كان هروب «بدو» هذا الشكل أو النمط خصوصا الشاوية منهم ؛ أو فرارهم إلى أطراف الصحارى، رد فعل طبيعى حتى لا تنفق حيواناتهم فتحل عليهم الكوارث والنكبات.

(جـ) بدو الاستقرار الجزئى :

وبدو هذا الشكل أو النمط قد مارسوا نوعا من الاستقرار بالقرب من المجارى المائية ومصادر المياه، ومنها الآبار والعيون والأنهار، وعند حواف المناطق الزراعية، وكذلك عند الواحات، أو بالقرب من المراكز الحضارية المختلفة والمنتشرة فى البوادى.

(د) بدو الاستقرار الكامل :

ويكون البدو خلال هذا الشكل أو النمط قد استقروا تماما واستبدلوا بعاداتهم ونظمهم، عادات ونظما حضارية جديدة وما عادوا من البدو فى شىء [١٣](*).

ولو أخذنا المثال مرة أخرى من واقع حياة المجتمع المصرى القديم، لوجدنا أن «ولسون » قد ذكر خلال تفريقه ما بين تغلغل "الهكسوس" في دلتا النيل بمصر وبين هجرة بعض العشائر البدوية إليها، حيث قال عن ذلك التغلغل أنه : « لم يكن تغلغل الآسيويين فى الدلتا هذه المرة شبيها بما كان فى عصر الأسرة الأولى، عندما كان يأتى عدد قليل من البدو الشرقيين، لا يكاد يكون معهم شىء، وكان هؤلاء البدو يحسون بعرفان للجميل لما هيأته لهم الفرصة للاستقرار فى الأرض الخصبة وسرعان ما هضمتهم الحضارة المصرية القديمة » [١٤].

★ ★ ★

(*) اللهم الاّ «البداوة القيمية » التى أشرنا إليها قبلا .

المبحث الخامس:

أسباب بداوة الرعى أو البداوة الرعوية وخصائصها :

(أ) أسباب البداوة الرعوية:

يمكن لنا حصر هذه الأسباب من خلال أربع نقاط أساسية هى :

١ - الماء، على اعتبار أن الماء يشكل هدفا أساسيا للتجوال لدى بدو هذا النمط حيث يجدون إلى جوار الماء كل أسباب الحياة والخصب والنماء(*).

٢ - المرعى، حيث لايزال الكلأ من أهم العوامل التى تحرك البدو الرعاة وتحدد مع الحيوان الراعى، طبيعة تجوالهم(**).

٣ - العوامل البيئية والطبيعية، لأن ما تمارسه تلك العوامل من ضغط يشكل سببا رئيسا فى حل البدو وترحالهم سعيا وراء ظروف طبيعية أو بيئية أو مناخية أحسن.

٤ - أما السبب الرابع والأخير لتأصل البداوة الرعوية، فيتمثل فى العديد من الظروف الإنسانية التى تتعرض لها الجماعات الرعوية، كالهجرة أو الغزو أو الثأر، وكلها أمور تؤدى دائما إلى «تبدى» مجموعات بشرية كثيرة (***).

وفى هذا الشأن يقول المرحوم الأستاذ محمد مبروك نافع فى مؤلفه المشار إليه قبلا : « وليس البدوى جواب آفاق يسير على غير هدى لمجرد رغبته فى جَوْب الآفاق، إنه - أى الإنسان البدوى - يعطينا أحسن مثل للبشر الذين يكيفون أنفسهم تكييفا يتلاءم وظروفٍ الصحراء، فأنى وجدت أرض تصلح للزرع والإنبات كان يذهب إليها ساعيا وراء الرعى » (١٥).

(*) وصدق الله العظيم حين قال فى محكم التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠)

(**) الكلأ أو العشب يعتبر فى ظل نمط « البداوة الرعوية » أهم النباتات التى تتغذى عليها الماشية فى المناطق الصحراوية الجافة أو الرملية .

(***) يقصد «بالتبدى» هنا هو الايغال فى البدو أو الصحراء حيث يجد الإنسان المتبدى مأمنه أو مطلبه .

(ب) خصائص البداوة الرعوية :

قلنا قبل قليل إن البداوة الرعوية هى نمط الحياة السائد لدى مجتمعات بدوية كثيرة خصوصا فى منطقتنا العربية، ولقد سبق أن أوضحنا فى أكثر من مناسبة، أن البداوة العربية بخصائصها ونظمها وتنظيماتها كانت محور حديثنا الذى طال وامتد على صفحات كتبنا السابقة فى هذا الشأن، ولسنا بحاجة إلى أن نكرر هنا دعوتنا لمن أراد الاستزادة بأن يعود إليها، وعلى كل نحن قد تعرضنا لهذه الخصائص أثناء حديثنا عن الأنساق والنظم فى المجتمعات البدوية ضمن مؤلفنا عن « البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية» المشار إليه. كما سنتعرض بايجاز هنا لبعض خصائص البداوة الرعوية خلال حديثنا عن الترحال والمجتمعات البدوية فى فصل تال من هذا الكتاب.

★ ★ ★

المبحث السادس:

بداوة الزراعة غير الدائمة والبدائية «غير المستقرة» وبعض الأنماط الأخرى للبدواة:

(أ) بداوة الزراعة غير المستقر:

والمقصود هنا بالزراعة غير المستقرة، تلك الزراعة المتنقلة أو البدائية، والتى لا تسمح بالاستقرار الكامل أو التوطن النهائى فى مكان ما، والتى تتواءم مع احتياجات جماعات قليلة العدد دائمة الحركة [١٦].

ويرى عدد من الباحثين أنه من المرجح أن تكون المرأة هى مكتشفة الزراعة البدائية لخبرتها الطويلة فى التقاط الثمار والجذور، حيث تولت المرأة مسئولية الزراعة بالعصا المعقوفة، ولعل هذا يفسر فى رأيهم [١٧] ما للمرأة من مكانة خاصة لدى الكثير من جماعات نمط بداوة الزراعة غير المستقرة، وهم يرون كذلك أن التنظيم الاجتماعى قام أو ارتكز لدى بعض الجماعات الزراعية البدائية على أساس من البطون «الأمومية» (*) التى تحتل المرأة وخط قرابتها، خلالها مكان الصدارة.

(*) أى تلك العشائر التى تنسب إلى الام وتعترف للخال - شقيق الأم - دون الأب ، بكل مظاهر القرابة بما فيها حقوق التوريث أو الإرث المتبادل بين الولد وخاله وعلى النحو الذى بيناه فى أكثر من مجال فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا المشار إليها .

ومن أبرز أمثلة جماعات هذا النمط، قبيلة « الايروكوى Iroguois » وهى إحدى قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية (١٨).

ولكننا نعتقد أن هذا النمط من البداوة أعجز من أن يقوم بذاته وإنما يكون دوما مصاحبا أو فى خدمة نمط متميز آخر لاسيما نمطى الصيد والرعى (١٩).

هذا ويرى بعض الباحثين أن الزراعة كانت هى الأسبق خلال مراحل التطور البشرى، أى إنها كانت تلى بداوة الجمع والالتقاط، وبداوة الصيد مباشرة، ويرجحون أن بداوة الرعى أو البداوة «المرتحلة» كما يسمونها، وكانت تلك البداوة "المرتحلة" فى أغلب الأحوال من الأعمال الثانوية التى صحبت الزراعة (٢٠).

والاعتقاد عندى أن الزراعة المقصودة هنا هى الزراعة المستقرة التى تسمح بوجود فائض فى الإنتاج، والتى مورست - أى الزراعة المستقرة - على ضفاف كل من نهرى النيل والفرات، إبان الحضارات التاريخية العظيمة والتى كان الرعي يشكل خلالها أحد الأعمال الهامشية المصاحبة للزراعة، ولكن الزراعة غير المستقرة والتى تحدثنا عنها قبلا، هى مرحلة سابقة على الزراعة المتوطنة أو المستقرة والتى ليست من البداوة فى شىء على الأقل من حيث جوانبها أو عناصرها المادية (٢١).

(ب) أنماط أخرى للبداوة :

هذا وتوجد بعض الأنماط الأخرى للبداوة خصوصا فى منطقتنا العربية، ومن أظهرها «بداوة النخيل» فى كل من سيناء بجمهورية مصر العربية وبعض إمارات الخليج العربى، حيث يتجمع البدو حول ما يمتلكونه من نخيل فى موسم حصاد البلح، ثم ما يلبثون أن يتفرقوا من جديد بعد أن كانوا قد مارسوا نوعا من الاستقرار المؤقت حول ما يمتلكون من نخيل، وهم فى حلّهم أو ترحالهم يميلون إلى الانخراط فى جماعات أو بدنات للمعاونة والمدافعة (٢٢).

★ ★ ★

المبحث السابع:

مظاهر البداوة وحجمها فى المجتمعات البدوية:

للبداوة كما سبق أن أوضحنا مظهران.. أولهما مادى وثانيهما معنوى، ويتمثل ذلك المظهر المادى فى وسيلة كسب العيش وتبعا لنوع النشاط الاقتصادى السائد لدى البدو، وطبيعة تجوالهم المستمر أو المؤقت، وطبقا لسيادة أو ريادة الحيوان الراعى أو المستأنس، جملا كان أو ضأنا أو ماعزا أو بقرا أو رنة أو كلبا أو ياكاً... إلخ.

أما المظهر "المعنوى" للبداوة، فيرتكز على أسس وقواعد غير محسوسة، يمكن أن نطلق عليها "البداوة الفكرية"، وتتمثل هذه البداوة فى القيم والمعتقدات ونماذج السلوك، إلى جانب الاعتقاد الراسخ لدى البدو - ضمن إطار البداوة الرعوية بالذات - بأن البداوة قوة وما عداها ضعف (*).

والمظهران المادى والمعنوى للبداوة مرتبطان ببعضهما البعض ويتكاملان معا ويؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به.

هذا عن «مظهر» البداوة ماديا كان أو معنويا، أما عن "حجمها" فلا يقل أهمية عن مظهرها، حيث لا ينكر أحد أهمية تحديد حجم ظاهرة البداوة كما ونوعا فى مجتمع ما، خصوصا بالنسبة للبرامج والمشروعات التنموية المختلفة، حتى يمكن الاعتماد أو الارتكاز على هذا التحديد سواء عند تخطيط تلك البرامج أو عند تنفيذها، أو حتى عند مراحل متابعتها تقييما وتقويما.

هذا ويمكن القول أيضا بأن المظهر المادى للبداوة لا يتجلى فقط فى العوامل البيئية البدوية، إنما يتضح أو يبدو كذلك فى مختلف الظروف المادية والاجتماعية التى يعيش البدو فى ظلها، وليست العوامل البيئية طبيعية فقط، بل هى أيضا ظروف صناعية تضم مختلف المبتكرات والاختراعات والإضافات التى طرأت نتيجة لجهد البدو أو سعيهم لتحقيق سيطرتهم على بعض ظروف البيئة الصعبة والقاهرة.

(*) تلعب الموروثات الثقافية الشعبية دورا هاما ومؤثرا فى هذا الشأن.

كيف يتم تحديد حجم البداوة؟

لتحديد حجم البداوة المادية أو المعنوية وسيلتان أو طريقتان :

(أ) الوسيلة الأولى:

وتعرف بالطريقة الحسابية أو الإحصائية، وعن طريقها يمكن معرفة كم هو عدد البدو فى أى دولة - بعد تحديد دقيق لمفهوم كل من البداوة والبدو - وما نسبتهم إلى المجموع الكلى للسكان، ثم ما هى الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة أو المحتمل توافرها لدى المجتمع البدوى، أو العشائرى، وكذلك كمية ونوع الخدمات المتوافرة وطرق الاستفادة منها... إلخ.

(ب) الوسيلة الثانية:

ترتبط بالجانب المعنوى أو القيمى للبداوة : وتتمثل هذه الطريقة فى قياس البداوة الفكرية، أو القيمية، لمعرفة إلى أى حد تتمسك أية جماعة - أو أى مجتمع قبائلى عشائرى أو محلى - بنظمها البدوية وعاداتها وقيمها وتقاليدها وثقافاتها المتوارثة أو الموروثة «أو الموروثات الشعبية».

وواضح تماما مدى ارتباط كل من الوسيلتين بمظهرى البداوة المادى والمعنوى السابق الإشارة إليهما، والطريقة الأولى سهلة نسبيا وممكنة الاستخدام، إلا أن الطريقة الثانية أصعب - نسبيا أيضا - حيث تتطلب جهدا أكثر ووقتا أطول ونوعية خاصة للقائمين بها سواء من حيث التخصص أو الإعداد [٢٣].

★ ★ ★

المبحث الثامن:

هل البداوة وقف علي الصحراء؟!

الصحراء، بكل ظروفها، وخاصة الجغرافية والمناخية والبيئية منها، تفرض على أهلها فى معظم الأحوال «البداوة»، لكنه من الأمور الثابتة.. أن الصحراء الجافة أو الرملية، ليست هى المحتوى الوحيد للبداوة، بمعنى أن كل صحراء تفرض - وخاصة فى الظروف التقليدية - على أهلها حياة البداوة، لكن ليست البداوة مقصورة على الصحراء خصوصا من خلال المفهوم التقليدى للصحارى والصحراء الرملية منها بالذات.

والأمثلة على ذلك كثيرة وقديمة قدم الإنسانية ذاتها، ففى أفريقيا مازالت غابات السافانا الاستوائية تضم أفريقيين فى حالة بداوة كاملة يمارسون خلالها الصيد والقنص والرعى والزراعة المتنقلة.

وباعتبار أن البداوة - كمفهوم - ترتكز على الترحال والتنقل سعيا وراء مصادر الرزق، فإن البحر فى رأينا - وفى رأى عدد من الباحثين - يعتبر هو الآخر أحد دروب البداوة، لأن الصياد يمارس من خلاله - أى البحر - حياة بدوية تعتمد على التنقل وتتبع مصادر الرزق أينما كان.

وعلى مستوى الوطن العربى.. نجد أن "بداوة البحر" تلك كانت نمطا سائدا قبل اكتشاف البترول فى عدد من بلدان الخليج العربى وصحراء سيناء المصرية، حيث كان اعتماد البدو هناك يكاد يكون اعتمادا كاملا على صيد السمك والغوص بحثا عن اللؤلؤ، فضلا عن ركوب البحر نفسه لأغراض التجارة أو النقل (*).

(*) بالنسبة للبداوة فى الصحراوات المصرية فى محافظة سيناء الشمالية والجنوبية ومحافظة البحر الأحمر ومحافظة مرسى مطروح ، فإن الوضع يكاد يكون مختلفا إلى حد كبير ، حيث تلعب كل من السياحة والنفط والغاز الطبيعى - كمثال للمواد الأولية - دورا مهما فى كل البرامج والخطط التنموية فى شتى المجالات والميادين .

وعلى مستوى العالم.. كانت "بداوة البحر " تلك ومازالت سائدة لدى القبائل الهندية الساحلية فى كندا وغيرها، وعلى النحو الذى أوضحناه فى غير هذا المكان (*).

وإذا ما تجاوزنا المفهوم التقليدى للصحراء، باعتبارها صحراء جافة، نجد أن الصحراوات الجليدية المتجمدة تحتضن أنماطا متعددة من البداوة كما هو الحال لدى جماعات وعشائر "الإسكيمو" وغيرهم وعلى النحو الذى شرحناه قبلا.

المهم.. أن البداوة ليست وقفا على الصحراء، وإن كانت الصحراء بظروفها الصعبة والقاهرة تفرض على سكانها حياة البداوة بالضرورة [٢٤].

★ ★ ★

(*) هناك فى ج.م.ع محافظة أو إقليم صحراوى آخر هو « محافظة الوادى الجديد » ، لكنها مازالت لم تفصح بعد عن الكثير من كنوزها خاصة تلك التى فى باطن الأرض ، وتعتمد اعتمادا شبه كامل على البرامج التنموية الحكومية، ولو أن النشاط السياحى التنموى بدأ يعرف طريقه مؤخرًا فى محافظة الوادى الجديد، مع الاكتشافات المتوالية مؤخرا مع نهاية القرن العشرين من الآثار المصرية والرومانية القديمة هناك.

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - دراسة الاجتماع البدوى - مرجع سابق ، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٢) للاستزادة أنظر : دكتور محيى الدين صابر - البدو والبداوة - مصدر سابق ، ص ٣١٤ ، وأنظر أيضا ابن خلدون - كتاب المقدمة المشار إليه قبلا .

(٣) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ٢٩٩ .

(٤) للاستزادة انظر : دكتور محيى الدين صابر - دكتور لويس كامل مليكة - البدو والبداوة ، مفاهيم ومناهج - مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى - سرس الليان منوفية ١٩٦٦ ص ص ١٣-١٥.

(٥) انظر دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٣٠٩ - ٣١٧ .

(٦) انظر : محمد مبروك نافع - تاريخ العرب المجلد الأول - دار العالم العربى - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص ٢٨ .

(٧) انظر فى ذلك .

(أ) محمد مبروك نافع - مرجع سابق ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(ب) محمد الخضرى - محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية - المكتبة التجارية - الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٤٦ ص ٦٢ .

(٨) وراجع فى ذلك أيضا ما كتبناه عن أسباب البداوة عند المسعودى ص ص ١٣ - ١٩ من كتابنا «دراسة علم الاجتماع البدوى » المشار إليه ، وكذلك خلال الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٩) دكتور صلاح الفوال - المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى - مرجع سابق ص ص ١٨٠ - ١٨٢، وانظر أيضا مؤلفنا عن « البداوة العربية والتنمية » ، مصدر سابق ، حيث أطلقنا خلالها على « سلم البداوة » لفظا آخر مرادفا هو « معيار البداوة » .

(١٠) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ٣٠٦ .

(١١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣ ، المتن والهامش .

(١٢) انظر فى ذلك :

(أ) تنمية المجتمعات الصحراوية أسس نظرية - مرجع سابق ص ص ١٠٣ - ١٠٥ .

(ب) تاريخ العرب - المجلد الأول - مرجع سابق - ص ٢٩ .

(ج) علم الاجتماع البدوى الطبعة الأولى - مصدر سابق ص ١٦٣ .

(١٣) توجد أشكال وأنماط أخرى للبداوة يمكن لمن أراد الاستزادة أن يعود فى ذلك إلى أى من كتبنا السابقة ، خصوصا - البداوة العربية والتنمية ، و « الأسس النظرية لتنمية المجتمعات الصحراوية » ، و« دراسة علم الاجتماع البدوى » والمدخل لعلم الاجتماع الإسلامى .

(١٤) جون ولسون - الحضارة المصرية - مرجع سابق ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(١٥) انظر: محمد مبروك نافع - تاريخ العرب - المجلد الأول - مصدر سابق ص ٢٩ .

(١٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ١٦٤ .

(١٧) انظر - دكتور ثروت أنيس الأسيوطى - نظام الأسرة - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٦ ص ١٠٤.

(١٨) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ، ص ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(١٩) انظر - السير جون . ا. هامرتن - تاريخ العالم - الطبعة الثانية - مترجم تحت اشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الجزء الخاص باختراع الزراعة ص ٤٨ من المجلدالأول .

(٢٠) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ٣١٧ .

(٢١) المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٢٢) المصدر السابق - ص ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢٣) انظر دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٣٠٨ - ٣١٨.

(٢٤) نفس المصدر السابق ، ص ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢٥) انظر دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع الصحراوى - دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة ٢٠٠٠ .

★ ★ ★

الفصل الثالث

الترحال

طبيعته وتأثيراته فى المجتمعات البدوية

- مقدمة حول التنقل والترحال .
- طبيعة الارتحال .
- خصائص الترحال وتأثيراته .
- أشكال الترحال.
- أنواع الرعى.
- أنماط الرعاة ؟ !
- حيوانات الارتحال.

الترحـــال
طبيعته وتأثيراته فى المجتمعات البدوية

مقدمة حول التنقل والترحال:

لعل التنقل سعيا وراء مصادر القوت يشكل السمة الرئيسة أو الأساسية للحياة فى المجتمعات البدوية وخصوصا الصحراوية منها. فانتقال البدو أو ارتحالهم بقطعانهم سواء من الإبل أو الغنم أو البقر أو الخيل أو الرنة، أو غيرها من الحيوانات، هذا الارتحال يُعرف، كنمط بعملية الرعى المتنقل، وهو أبسط أنواع الرعى على الإطلاق، وممارسوه من البدو الرحل الذين يعتمدون بصفة أساسية ومباشرة على الحيوان باختلاف أنواعه، وبحيث لا تصبح عملية الترحال وحدها هى المسخرة لخدمة الحيوان، بل يتشكل نمط الحياة السائد كله ليكون فى خدمة ذلك الحيوان الراعى، لقاء ما يوفره ذلك الحيوان للبدو من إشباع لمعظم احتياجاتهم الضرورية و الأساسية.

ولا تقتصر هذه الحاجات المشبعة من حيث الكيف، على الجوانب الاقتصادية أو المادية فقط، بل يمتد هذا الإشباع حتى يصل إلى الوضعيات والمكانات، والأدوار الاجتماعية والصراعات، بل وليضم ذلك الإشباع ايضا الثقل الاجتماعى كله سواء على مستوى الفرد أو الجماعة البدوية، أو كان ذلك على مستوى المجتمع العشائرى كله (١).

ويكفى للتدليل علي ما للحيوانات من أهمية فى المجتمعات البدوية، تلك العبارة المأثورة عن « إيفانز بريتشارد »، التى وجهها كنصيحة لكل من يريد أن يدرس مجتمع «النوير» حيث قال : « فتش عن البقرة »، وما قاله « ايفانز بريتشارد »

لا يصدق فقط على مجتمع النوير الأفريقى وحده، بل يصدق أيضا على كل المجتمعات البدوية الرعوية فى كل مكان، فالماشية عندهم هى مصدر الغذاء، لبنا ولحما ودما وعظما أحيانا، ومنها الكساء - غطاء ورداء - ومنها المأوى - خيمة أو بيتا - وهى المهر المقبوض، ومنها الدية المدفوعة، ومنها كذلك القربان المقبول، فضلا عن أنها مصدر الثروة، ومبعث كل فخر، لذلك كله كانت الحيوانات الراعية موضع الاهتمام سواء بالتملك أو بالتطلع، أو حتى بمجرد الحديث عنها.

لذلك كله قال : « إيفانز بريتشارد » : فتش عن البقرة، وإذا ما فتش الباحث فى حياة النوير مثلا سيجد أن البقرة هى مصدر كل هناء وشقاء، الحرب تقوم من أجلها، والآلهة لا تقبل قربانا سواها، وكل دية عن غير طريقها مردودة، وكل زيجة لا تكون هى أساس مهرها تعد فاشلة بل مرفوضة... إلخ .

وما يُقال عن البقرة عند « النوير » يمكن أن يقال عن الجمل أو الحصان أو الضأن لدى البداوة العربية، وعن الرنة وكلاب الصيد لدى الإسكيمو... وهكذا (٢).

وليس الحيوان وحده هو السمة الرئيسة للبداوة الرعوية، ولكن توجد إلى جوار ذلك الحيوان عدة عوامل جغرافية، ومناخية، ونباتية كثيرة، قد يمتد تأثيرها حتى يشمل وجود ذلك الحيوان من عدمه.

فالمنطقة الصحراوية الواقعة فى شمال أفريقيا مثلا أو فى وسط آسيا أو فى جنوبها الغربى، منطقة كهذه بطبيعة مراعيها الفقيرة تستلزم أو تفرض نوعا معينا من الحيوان الراعى يمكنه - بحكم طبيعة تكوينه الجسمانى - أن يكون ذا مقدرة، أو قدرة خاصة على الحياة وسط ظروف الصحراء المناخية والبيئية والنباتية الصعبة (٣).

وفقر الحياة النباتية للمراعى لا يفرض فقط نوعا معينا من الحيوان، ولكنه أيضا يحتم رحيلا دائما لكل من الحيوان والراعى، وبما يتطلبه هذا التنقل شبه الدائم من خفة فى الحركة، فالبدو يضربون خيامهم بالقرب من مناطق الرعى، حيث تنطلق القطعان بحثا عن العشب حتى ينضب معينه، فى هذه الحالة يلزم أن تكون هناك رحلة رعى جديد لكل من الراعى والحيوان (٤).

وقد يكون المدى المكانى لهذه الرحلة محدودا أو غير محدود، كأن يتم التجوال فى نطاق مناطق التجوال العادية للجماعة البدوية، أو قد يتم ذلك التجوال - بحكم التغيرات المناخية مثلا - فى مناطق أخرى لم تكن مطروحة أو معروفة من قبل بالنسبة لهذه الجماعة البدوية الراعية بالذات، ووفقا لقواعد وأعراف مرعية من الجميع وخصوصا إذا كانت مناطق الرعى الجديدة غير مملوكة للجماعية البدوية الراعية أصلا، أو كانت تقع تحت سيطرة جماعات بدوية أخرى(٥).

★ ★ ★

المبحث الأول:
طبيعة الارتحال وأنماطه:

يمكننا أن نحدد طبيعة الارتحال ومداه وأنماطه من خلال الصورة الموجزة التالية(٦):

(أ) الارتحال العادى «الاختيارى»:

وهو ذلك الترحال الذى يتم تحت الظروف العادية التى اعتادتها أو عرفتها العشائر الرعوية وفى نطاقها المكانى المعروف لها والذى سبق أن طرقته فى توال زمنى بحسب قدرة عشبه وحشائشه على الخضرة والعطاء.

(ب) الارتحال الطارئ «الاضطرارى»:

ويتم عندما تتغير الظروف المناخية أو الطبيعية فجأة ولا تجد الجماعة البدوية لنفسها مخرجا سوى أن تنخرط فى ترحال أو ارتحال سريع يشبه الهجرة هربا من تلك الظروف الطارئة التى واجهت الجماعة البدوية وهددت حياتها وحياة قطعانها بالخطر، ويكون هدف الترحال الاضطرارى البعيد - بعد انتهاء مهمة الهرب من وطأة الظروف الطارئة الصعبة الجديدة حفاظا على حياة الناس والحيوان، يكون ذلك الهدف.. هو العثور على مراع جديدة تجد الجماعة الراحلة فى كنفها أسباب الحياة لها ولمواشيها.

وفى هذه الحالة قد تعود الجماعة البدوية إلى ديارها القديمة، وقد لا تعود. لأن عملية العودة هذه مرهونة بالأسباب التى دفعتها أصلا إلى هجرتها، فلو تغيرت الظروف ونما إلى علم الجماعة البدوية المهاجرة أن مراعيها القديمة قد عادت إليها الحياة، وأصبحت فى حالة تفوق من حيث الخصب والنماء حالة مراعيها الحالية، لما ترددت الجماعة البدوية لحظة فى العودة إلى ديارها القديمة، ولا يكون ذلك التصرف بفعل الحرص على القديم والحنين الدائب إلى الماضى وحدهما، وانما يعود ذلك أيضا وبالدرجة الأولى إلى طبيعة الجماعة البدوية الراعية نفسها، وسعيها الدائم وراء أسباب الحياة التى لا تكون أو لا توجد إلا حيث يكون العشب أو الكلأ والماء (٧).

(ج) الارتحال الموسمى « رحلتا الشتاء والصيف »:

ويرتبط هذا النمط من الارتحال أساسا بفصول السنة أو بفصليها المتمايزين على وجه الخصوص وهما الشتاء والصيف، حيث ترتحل الجماعة البدوية من منطقتها فى بداية الشتاء إلى مسارح أخرى تكون أقل برودة وأوفر عشبا وماء، ثم ما تلبث هذه الجماعة المرتحلة أن تعود إلى موطنها من جديد مع بداية الصيف (٨).

وقد يحدث العكس، بحيث تبدأ الرحلة فى الصيف وتنتهى فى الشتاء، وبداية رحلة الشتاء والصيف هذه لا ترتبط بأى من الفصلين ارتباطا آليا، وإنما ترتبط بهما أو بأيهما ارتباطا وظيفيا، بمعنى أن هذه الرحلة تبدأ مع بداية الفصل الذى لا تتهيأ فيه أسباب الحياة للجماعة البدوية الرعوية فى مسارحها الأصلية.

وكما هو معروف فإن أسباب الحياة فى الصحراء ترتبط إلى حد كبير بالمطر، وخصوصا إذا لم تتوافر معه مقومات أخرى للحياة - واحة، منجم، بئرا للبترول، تجمع حضرى أو حضارى قريب... إلخ - فإذا كان سقوط المطر صيفا فى مكان ما، تبدأ الرحلة إليه صيفا، وإن هطلت الأمطار شتاء شدت الجماعة البدوية رحلها تجاه مناطق سقوط المطر شتاء، وغالبا ما يكون اتجاه الجماعة الراحلة - فى كلتا

الحالتين صيفا أو شتاء - إلى أطراف الصحارى لأنها أكثر مناطقها أو أجزائها تعرضا لسقوط الأمطار.

ورحلة «الشتاء والصيف» هذه معروفة منذ القدم(*)، ويمارسها البدو فى مختلف صحراوات العالم طبقا لمواسم سقوط المطر ونمو الحشائش، ففى منطقة الصحراء الكبرى مثلا، وخصوصا فى جزئها الشمالى والغربى، ترتحل أو ترحل الجماعات البدوية إلى الجنوب للاستفادة من المراعى التى أوجدتها أمطار الشتاء هناك، بينما تضطر ظروف الصيف الجاف نفس الجماعات العشائرية الرعوية إلى الرحيل شمالا تجاه منطقة الأطلس الكبير أو الصغير يحدوها نفس الأمل.. الماء والكلأ « أى العشب » (٩).

وبالمثل يرحل بدو صحراء شبه الجزيرة العربية وراء الأمطار أينما وجدت حتى ولو توغلوا فى قلب الصحراء الموحشة، وهم لا يفعلون ذلك جزافا وإنما دليلهم فى ذلك عاملان هامان :

الأول : الجمل بمقدرته الخارقة على ارتياد مناطق الصحراء القاحلة، بل والموحشة وخصوصا خلال دروبها المؤدية إلى الماء والعشب.

والثانى : خبرة قادة « أدلاء » العشائر البدوية بمسالك الصحراء ومعرفتهم لمناطق الرعى والآبار فيها، فضلا عن مهارتهم فى توقع سقوط المطر.

ومع الصيف الشديدالقسوة والحرارة ترحل هذه الجماعات البدوية العربية إلى أطراف الصحراء حيث تكون هذه المناطق عادة فى شبه الجزيرة العربية أوفر ماء وأعدل مناخا.

(*) خاصة بالنسبة للبداوة العربية الرعوية حيث ورد بالقرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى فى سورة قريش : ﴿لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ والنص القرآنى على صغره يحدد أهمية رحلة الشتاء والصيف ، كما يحدد هدفها ومسارها ، حيث كان عرب مكة يرتحلون صيفا إلى الشام ، وشتاء إلى اليمن ، حتى ألفوا القيام بها بصفة دورية مستمرة و مستقرة نظرا لما تسفر عنه الرحلتان من أمان نفسى أو اجتماعى أو غذائى أو أمنى ... الخ .

وإذا ما انتقلنا إلى الصحراء «القوقازية» نجد البدو فى «تركستان» مثلا، يرحلون إلى حدود الإقليم الجنوبى الجاف هربا من الظروف المناخية القاسية فى الشتاء حيث يجدون عند سفوح جبال « تيان شان » موارد للمياه تكفى لسد احتياجاتهم حتى إذا ما جاء الصيف وبدت معه تباشير المطر يرحلون شمالاً نحو منطقة « الهوب » للاستفادة من الأعشاب التى تنبت اعتمادا على سقوط المطر هناك (١٠).

هذا ويمارس «الإسكيمو» أيضا رحلة «الشتاء والصيف» بطريقتهم الخاصة، حيث نجدهم فى الشتاء يعيشون ضمن عشائر تضم كل واحدة عدة عائلات أو أسر صغيرة الحجم تسكن بيوت « الجليد » عند أطراف الصحراء أو بالقرب من الشواطئ، وبمجرد حلول فصل الصيف تتفرق تلك العشائر وتتجه كل عائلة نحو الداخل وتقيم فى «الخيام»، وهنا يتفرق القادرون من الرجال سعيا وراء القوت.

وقد لا تمارس كل قبائل «الإسكيمو» رحلة «الشتاء والصيف» حيث تمنع الغطاءات الجليدية إسكيمو جزيرة « جرينلد » من ممارسة رحلة «الشتاء والصيف» هذه وتجبرهم على البقاء فى المناطق الساحلية (١١).

وعلى العكس نجد بعض قبائل جنوب « ألاسكا » تظل فى الصيف مقيمة على السواحل بفعل إغراءات صيد الحوت والفقمة نظرا لما يجره عليهم ذلك الصيد الثمين من غنائم وأرباح وفيرة.

● بعض الأثار المترتبة على رحلة الشتاء والصيف :

ومن أهم تأثيرات رحلة «الشتاء والصيف» على قبائل «الإسكيمو» ما يأتى :

١ - فى الشتاء الطويل والقارس تتجمع العائلات فى عشائر، كما تتجمع العشائر هى الأخرى فى قبائل، ويقيمون جميعا فى مساكن ثلجية متجاورة، حتى يتمكن الجميع أو الكل من أن يكونوا يدا واحدة فى مواجهة الظروف الطبيعية والمناخية القاسية، خصوصا أنهم لابد أن يحصلوا من البحر المتجمد على ما يحفظ حياتهم، ومن أهم سمات أو سلوكيات «الإسكيمو» أن الطعام فى مثل هذه الظروف يكون قسمة عادلة بين الجميع.

٢ - مع بروز ضوء الشمس وحرارتها فى فصل الصيف القصير، ما تلبث قطعان، « الكاريبو » أن تعاود ظهورها، وكذلك، عجل البحر الذى يعاود سعيه فوق سطح الجليد، وهنا تبدأ القبيلة فى التحلل أو التحول إلى عشائر، ولكن ما تلبث العشائر هى الأخرى أن تتحول إلى بَدَنات أو عائلات أو أسر، بفعل رحيل أعداد كبيرة من أعضائها إلى داخل البلاد، ولو أن الأمر لا يمنع من تلكؤ بعضهم عن الرحيل، على أمل صيد أكبر قدر أو عدد ممكن من عجول البحر.

٣ - ومع اختفاء الثلج وهرب قطعان «الكاريبو» إلى الداخل فى اتجاه الشمال يتفرق «الإسكيمو» إلى جماعات صيد صغيرة تضم أفرادا قلائل مهمتهم الأساسية مطاردة « الكاريبو »، ولكن عندما تحتضن أسراب « الكاريبو» التلال العالية ويصبح صيدا بعيد المنال، لا يجد «الإسكيمو» مع منتصف فصل الصيف سوى صيد الأسماك.. ويصير لزاما أكثر أن يتفرق «الإسكيمو» إلى أسر أو عائلات صغيرة، وبحيث لا يكون هناك وجود لا للعشائر ولا للقبائل.. وإنما يتحلل المجتمع ويتحول إلى أدنى عناصره، وهى الأسرة (١٢).

وفى نطاق قبائل الهنود الحمر، نجد أن حياة هنود «السهول» ترتبط أشد الارتباط بتحركات حيوان « البيزن » (*)، الذى يهاجر فى أواخر الربيع وبدايات الصيف فى جماعات كبيرة نحو المناطق التى توجد فيها المراعى، فى فصلى الخريف والشتاء حيث يجف الكلأ، ويصير من النادر أن تعاود تلك القطعان من «الكاريبو » تفرقها فرادى أو فى مجموعات صغيرة العدد (١٣).

وهنود «السواحل» فى كل الأحوال يحيون حياة تنقل بحثا عن « البيزن»، فهم خلال فترات تفرق قطعان « البيزن» يتفرقون إلى أسر وعائلات صغيرة العدد

(*) حيوان ضخم الجثة وهو من الحفريات يشبه البقر الوحشى فى كثير من ملامحه الجسمية وطباعه ويعد مصدر الحياة عند الهنود الحمر ، وسكان السهول منهم بالذات .

وينتشرون فى مختلف مسارحهم بحثا عن صيدهم الثمين، أما فى فترات تجمع قطعان « البيزن » خلال الربيع والصيف حيث يتوافر الكلأ ويكثر فى المراعى، نجد هؤلاء الهنود الحمر وقد تجمع شملهم وانتظم شتاتهم فى جماعات كبيرة وعشائر، وذلك بهدف تدعيم قدراتهم الذاتية فى مواجهة قطعان « البيزن » التى تتسم بالضخامة والقوة والشراسة معا (١٤).

(د) الارتحال الدورى « التبادلى أو الرأسى » :

وهو شكل قريب من نمط الارتحال الموسمى، وإن كان يمتاز عنه بشىء من الثبات أو الاستقرار - كنظام -، حيث يكون معروفا سلفا لدى العشائر البدوية أنها سوف ترحل شتاء أو صيفا إلى مكان معين وثابت تقريبا بغير أن تتدخل فى عملية الارتحال أو الترحال، عوامل المطر والريح والظروف الصعبة أو القاهرة التى تفرض عليها الرحيل بغير إعداد أو ترتيب (١٥).

ومن أبرز أمثلة الارتحال الدورى «تبادل الأماكن» الذى تمارسه القبائل البدوية فى منطقة الأطلس الكبير، حيث تقضى هذه القبائل صيفها على سفوح الجبال بينما تقضى شتاءها فى السهول المنبسطة حول الجبل، ومثلها جماعات « الكرغنر » البدوية فى «تركستان»، فهى تقضى الشتاء فى مراكز «الكازاك» الشتوية عند سفوح جبال « تيان شان »، وعندما يحل الصيف تتجه هذه الجماعات جنوبا لترعى مواشيها على الأعشاب الجبلية هناك (١٦).

وعلى هذا يكون الأساس فى نمط الترحال الدورى، هو عملية التبادل التى تتم بين الأماكن المرتفعة والمنبسطة والتى تمارسها العشائر أوالقبائل البدوية صيفا أو شتاء بحسب الظروف والأحوال المناخية السائدة فى مناطق الترحال (١٧).

★ ★ ★

المبحث الثانى:

أشكال الترحال وخصائصه:

لقد تحدثنا فى السطور السابقة عن الترحال فى ظل نظام الرعى، وحددنا طبيعته وخصائصه وصنفناه من حيث الكيف إلى ترحال اختيارى وآخر اضطرارى وثالث موسمى ورابع دورى، ثم تعرضنا للتأثيرات المختلفة التى يفرضها ذلك الترحال على مقدرات الجماعات القبلية وحياتها.

ولو تعرضنا مرة أخرى وبإيجاز، لكمِّ هذا النمط من الارتحال ومداه وتأثيراته لوجدناه - أى الارتحال - يندرج تحت نمطين رئيسين هما :

١ - الارتحال الدائم:

وطبقا لهذا النوع من الترحال، تقضى الجماعة البدوية، والرعوية منها بالذات معظم، أيام السنة فى ترحال مستمر، وبحيث يصبح التنقل أو الارتحال هو السمة الغالبة على الجماعة أو العشيرة البدوية، والارتحال الدائم يفرض على الجماعة البدوية أنماطا معينة من الحياة تتمركز كلها حول رعى الحيوان ورعايته والاعتماد عليه كلية كمصدر أساسى للرزق والحياة وعلى النحو الذى أوضحناه قبلا.

٢ - الارتحال المؤقت:

بمعنى ألا يشكل الرعي وحده الأساس الاقتصادى للجماعة البدوية، حيث تكون هذه الجماعة قد عرفت بشكل أو بآخر، الزراعة ومارستها، وبحيث ينقسم أبناؤها إلى مجموعتين، «أولاهما» استقرت حول مراكز محصنة وآمنة - ولو بقدر - من عاديات الإنسان وغدر الحيوان المتوحش وتقلبات الطبيعة القاسية، وبحيث تتوافر فى هذه المراكز مصادر شبه دائمة للمياه تجعل فى الإمكان زراعة بعض المحاصيل التى لا تتطلب كثيرا من الماء حتى تزدهر، كالقمح والشعير والخضراوات والبرسيم وما إليها.

هذا عن المجموعة الأولى «المستقرة»، أما عن المجموعة الثانية «المتبدية»، فإنها ترحل بعيدا بحيواناتها إلى مراع صيفية أو شتوية بحسب طبيعة الإقليم الصحراوى الذى تقيم فيه، ثم ما تلبث الجماعة الراحلة أن تعود إلى العشيرة الأم من جديد بعد انتهاء موسم الرعى.

وهكذا تمارس الجماعة البدوية الراعية من خلال الارتحال المؤقت، نوعا من الاقتصاد المزدوج أو الاقتصاد المشترك الذى يعتمد أساسا على كل من الزراعة والرعى.

والعشائر البدوية التى تمارس هذا النوع من الارتحال المؤقت يكون من السهل إغراؤها بالاستقرار والتوطن فى أراضيها أو أراض جديدة وفقا للخطط التنموية، وهذا بالضبط هو ما فعلته الحكومة السوفيتية السابقة (*). فى منطقة «تركستان» عندما أنشأت عددا من المزارع الجماعية لراغبى الاستقرار، ونظمت عملية الارتحال أو الانتقال الموسمى الذى تمارسه المجموعة المرتحلة عن طريق إنشاء محطات أو مراكز لخدمة البدو الرعاة على امتداد أيام الرحلة.

★ ★ ★

المبحث الثالث:

أنواع الرعى وأنماطه:

واضح من كل ما سبق أن ذكرناه عن الرعى أنه - كعملية أو نظام - يندرج تحت نمطين رئيسين، والرعى إما أن يكون رعيا متنقلا، أو رعيا مستقرا، وفى يقيننا أن الارتحال - كعملية بما تحويه من سعى دائب وراء الماء والعشب - يشكل الحد الفاصل بين كلا النمطين، بمعنى أن الاختلاف بين كليهما اختلاف كمىٌّ وليس كيفيا، لأن الرعى كهدف موجود ومتوافر لدى النمطين، وحتى ثقافة الرعى وتنظيماته وتأثيراته على الحياة الاجتماعية لكل من النمطين سواء المتنقل منها أو المستقر، تكاد أن تكون واحدة بل وموحدة بين كليهما (١٨).

(*) أدى انهيار الاتحاد السوفيتى السابق إلى استقلال كثير من الأقاليم التى كانت منضوية تحت لوائه ومنها « تركستان » .

إذن الفرق المميز بينهما يكمن فى الدرجة وليس فى النوع، حيث تسعى الجماعة البدوية فى ظل الرعى «المتنقل» إلى الماء والكلأ أينما وجدا وهى، أى الجماعة البدوية - فى سبيل ذلك تجوب الصحراء باستمرار وترتبط فترة إقامتها بأرض ما، بقدرة هذه الأرض على الوفاء باحتياجاتها فضلا عن احتياجات مواشيها من الماء والعشب.

أما الرعي «المستقر »، فهو يعنى أن الجماعة البدوية قد وجدت لها مصدرا آمنا للماء والعشب فاستقرت حوله وفى نطاق مكانى ما، هو حتما ضمن النطان الصحراوى الأم، وغالبا ما يكون هذا الاستقرار حول مصدر من مصادر المياه الثابتة، كأن يكون ذلك المصدر بئرا أو عينا أو واديا، ولقد اتفق - ولو بشكل ضمنى - على تسمية النطاق المكانى المعين الذى يتمتع بنوع من الاستقرار المائى، اتفق على تسميته « بالواحة »، ولهذا السبب يطلق أيضا على الرعى المستقر اسم الرعى «الواحى» دلالة على أنه لا يقوم أصلا أو لا ينهض أساسا إلا بين أحضان واحة ما.. !!

ولكن يبرز هنا سؤال.. هل يظل الرعى فى كلا النمطين أساسا اقتصاديا موحدا حتى مع اختلاف ظروف التنقل والاستقرار ؟!

والجواب قطعا.. بلا.. لأنه حتى فى ظل الرعى المتنقل تمارس الجماعة البدوية عمليات أخرى (*)... ولو هامشية، من بينها الزراعة حتى وإن كانت زراعة بسيطة أو بعلية بغير فائض يمكن الاعتماد عليه أو استغلاله فى عمليات اقتصادية أخرى كالبيع أو المقايضة !!.

وعلى كل فإن تلك العمليات الأخرى تأخذ - من خلال الرعى المستقر، وعلى الأخص الزراعة البسيطة، تأخذ شكلا آخر غير الهامشية، ويكاد هذا الشكل أن يصل فى كثير من الأحيان من حيث الأهمية إلى مستوى الرعى نفسه، وبحيث يتسم اقتصاد الجماعة الرعوية المستقرة بالازدواجيه، أو ما يطلق عليه الآن مصطلح «الاقتصاد المزدوج»، أى الذى يعتمد على نوعين مختلفين من الإنتاج، يتشابهان أو يتكافآن فى مختلف تأثيراتهما على مقدرات الحياة البدوية.

(*)نعنى بالعمليات الأخرى هنا، بعض الأنشطة الاقتصادية المختلفة .

وعموما يمكن لنا أن نحدد هنا ولو بإيجاز أنواع الرعى أو أنماطه على النحو الآتى [١٩] :

أولا - الرعى المتنقل :

وهو الذى يشكل أو يعتبر أو يُعد رعى الحيوان هدفا أساسيا له بغير ما استقرار دائم أو شبه دائم، وضمن نطاق مكانى غير محدد، ومن أنواعه معظم ماذكرناه قبلا عند حديثنا عن أشكال الترحال وأنماطه.

ثانيا - الرعي المستقر :

ويتفق مع سابقه فى أن رعى الحيوانات يشكل هدفا أساسيا له، وإن كان الاستقرار الذى مارسته الجماعة البدوية قد أغراها بممارسة الزراعة كنتيجة طبيعية لوفرة المياه وظهور حاجات جديدة فى ظل الاستقرار النسبى، أو فى ظل الاحتكاك الحضارى نتيجة للعلاقات الجديدة أو العلاقات المستحدثة، فضلا عن الصلات المتعددة بين البدو وغيرهم من أهل الحضر من خلال المؤسسات الحضارية الموجودة فى مكان الرعى المستقر، حيث لم تكن هذه الحاجات أو المتطلبات بارزة أو واضحة بشكل مميز فى ظل نمط الرعى المتنقل.

ثالثا : الزراعة المختلطة :

ولكن ما الذى يحدث إذا ما بدأ ميزان القوى ينحاز من الرعى كمصدر أساسى للإنتاج إلى الزراعة ؟!!

والجواب.. أن الجماعة البدوية التى تجد نفسها لسبب أو لآخر مربية للحيوان بدلا من أن تكون راعية له، مع ما يتطلبه هذا التحول من تغيير ضرورى فى نمط الحياة الاقتصادية لهذه الجماعة، أنها - أى الجماعة - تكون قد انتقلت من راعية مستقرة إلى جماعة زارعة لأنواع معينة من المحاصيل أولا ثم مربية للحيوان ثانيا، وبحيث يكون الهدف هنا ليس هو رعى الحيوان بقدر ما هو استغلال ذلك الحيوان أو استثماره - كفائض - يمكن أن يتخذ أساسا لعمليات مبادلة متعددة لسد الاحتياجات الجديدة والمتغيرة التى نمت فى ظل ذلك الاستقرار شبه الدائم.

وتأخذ عمليات استغلال أو استثمار الحيوان هذه، أشكالا متعددة لم يكن معظمها معروفا فى ظل نمطى الرعي المتنقل أو المستقر، ومنها [٢٠] :

(أ) استخدام فضلات ذلك الحيوان كسماد للأرض حتى يمكن زيادة غلة المحاصيل الزراعية من جهة، والمحافظة على خصوبة التربة وقدرتها على الاستنبات أو الاستزراع من جهة أخرى (*):

(ب) استعمال الحيوان واستخدامه كمعاون فى عمليات استغلال أو استثمار الأرض المختلفة، كأن يعاون فى حرث الأرض أو استخراج المياه من باطنها وما إلى ذلك من مختلف العمليات الزراعية التقليدية المعروفة.

(جـ) عدم اقتصار دور الحيوان وأثره، خاصة من الناحية الغذائية، على البدو وحدهم وإنما تحول لبنه وصوفه ووبره وشعره وجلده وعظامه إلى سلعة تباع خارج النطاق العشائرى أو القبلى،وبحيث يستغل هذا الريع أو يستثمر فى عمليات شرائية أخرى لسد بعض المطالب المتغيرة والجديدة للجماعة البدوية المستقرة.

(د) ونتيجة لهذا كله فقد الحيوان، فى ظل الزراعة المختلطة، قدرا كبيرا من دوره التأثيرى الضخم على الحياة الاجتماعية العشائرية أو القبلية، وما عادت لتأثيرات ذلك الدور نفس القيمة التى كانت له فى النمطين السابقين « الرعى المتنقل والرعى المستقر ».

والحيوان وإن كان قد فقد دوره التأثيرى «القيمى» إلا أنه بدأ يؤدى دورا جديدا فى ظل الزراعة المختلطة، وظل هذاالدور مستمرا وقائما حتى إلى ما بعد أن تجاوزت المجتمعات البدوية العشائرية فى تطورها الحضارى مرحلة الرعى سواء المتنقل منه والمستقر، تعدت تلك المجتمعات نطاق أو حالة الاستقرار الزراعى، وبرغم ظهور أكثر من بديل حضارى لاستخدام الحيوان كاستعمال الأسمدة الكيماوية وإنتاج

(*) عادة استخدام روث الحيوانات فى تسميد التربة لزيادة إخصابها ، لا تقتصر على البدو وحدهم ، وإنما يتبعها الزراع فى مختلف أنحاء العالم حتى مع وجود المخصبات الكيماوية المنتشرة الآن .

مـزيد من المخصبات الصناعيـة، واسـتخدام العديد من المنتجات التكنولوچيـة فضـلا عن ميكنة الآلات الزراعية (*).

وفضلا عن ذلك كله فقد ظل الحيوان يمارس دورا اقتصاديا متميزا كمصدر من المصادر الحيوية للغذاء والكساء، علاوة على دور المنتجات الحيوانية فى العديد من الصناعات التحويلية فى مجال الإنتاج الزراعى وعلى مر كل العصور.

★ ★ ★

المبحث الرابع :

أنماط الرعاة وفقا للحيوان السائد

يمكننا أن نحدد معا فى عجالة «أنماط» الرعاة داخل المجتمعات البدوية خاصة الصحراوية منها على النحو الآتى :

أولا - رعاة الجمل « الجمالة » :

ويشغل رعاة الإبل أو « الإبالة » مناطق ضخمة، حيث ينتظمون فى قبائل وعشائر كبيرة ضمن الصحارى السورية والسعودية وسيناء - شمالها وجنوبها - علاوة على محافظات مطروح والبحر الأحمر والوادى الجديد، بجمهورية مصر العربية، وكذا فى الصحراء الكبرى وخصوصا عند المغرب العربى، حيث توجد أو تعيش قبائل الطوارق أو الملثمين.

ويعتقد كثير من المفكرين - وعلى رأسهم «ابن خلدون» أن «الجمالة» أو «الأبالة» أشد الرعاة بداوة وأشرسهم طبعا، وأكثرهم أنفة واحتقارا لما عداهم، سواء كان هذا الغير من أهل البدو أم من سكان الحواضر، لذلك عشقوا الصحراء وتوغلوا فيها.

(*) كان الحيوان يستخدم من طرف البدو للركوب والمعاونة فى أعمال الفلاحة كالحرث والرى وما إليها فضلا عن حمل الأشياء ونقلها من مكان لآخر علاوة على اعتبار منتجاته وسيلة جيدة لتبادل إشباع الاحتياجات حيث ينتفع بلبنه وصوفه ووبره وهو حى ، أما إذا ذبح أو نفق فيستفاد من جلده ولحمه وعظمه ووبره كذلك.

وأهم الأسباب التى دعت رعاة الجمل إلى التوغل فى عمق الصحراء، فى رأى «ابن خلدون »، قد تمثلت فى طبيعة الجمل ذاته « إذ الإبل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها فى ذلك إلى الدفاءة فاضطروا، أى البدو إلى إبعاد النجعة.. » (٢١).

ويساوى «ابن خلدون» من حيث وضعية «رعاة الجمل» بين بدو العرب وغيرهم من بدو الصحارى الأخرى غير العربية فيقول: «هؤلاء هم العرب (٢٢) (*)، وفى معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب، والأكراد، والتركمان، والترك بالمشرق» (٢٣).

إلا أن « ابن خلدون » قد عاد ليفضل بدو العرب على ما عداهم من البدو «إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء - أى ما عداهم من البدو - يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها» (٢٤).

ثانيا - رعاة الضأن « الشاوية أو الغنامة » :

ويعتمدون بصفة أساسية ومباشرة على الغنم أو الماعز أو كليهما معا، والمساحة التى يتجولون فيها أصغر، وتكون عادة قريبة من المناطق المزروعة فى بلاد الشام، والمأهولة فى بلاد المغرب، وبعض رعاة الضأن أو الغنم أو الشياه من القبائل المغربية تمارس - من خلال رعى الغنم - نوعا من التجوال الرأسى أو « التبادلى » الذى شرحناه قبلا، حيث يصعدون إلى الجبال والأرض العالية صيفا وينزلون إلى الوديان والأراضى المنخفضة شتاء (٢٥).

ويرى « ابن خلدون » كذلك أن : « من كان معاشه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن فى الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب فى الأرض أصلح بهم، ويسمون «شاوية» ومعناه القائمون على الشياه والبقر ولا يبعدون فى القفر لفقدان المسارح الطيبة » (٢٦).

(*) يقصد « ابن خلدون » بكلمة « العرب » هنا ، البدو ، ولقد شاع عنه هذا الخطأ محليا وعالميا حيث هاجمه كثير من العرب والعجم على هذه التسمية ، أو على هذا الخلط بين العرب كأمة وبين البدو كقطاع ، وعلى النحو الذى عالجناه ضمن مؤلفنا عن « البداوة العربية والتنمية » السابق الإشارة إليه .

لذلك تعتبر القبائل والعشائر الشاوية فى المرتبة الثانية ضمن السلم الاجتماعى للبداوة الصحراية عموما (*). والبداوية العربية بصفة خاصة (٢٧).

ثالثا - رعاة الرنــة:

يتمركز هؤلاء الرعاة فى الجزء المغطى بالغابات من شمال القارة الآسيوية، وأشهرهم « قبائل الياقوت»، وتمثل الرنة المستأنسة الحيوان الغالب لديهم، حيث أمكن للرنة أن تتكيف مع غابات التندرا المخروطية، وليست قبائل « الياقوت » وحدها هى التى تعتمد على الرنة، ولكن هناك قبائل أخرى فى أنحاء متفرقة من العالم تعتمد على هذا الحيوان بشكل أو بآخر، ومنها جماعات « التانجوس » و«السامويد » فى شمال آسيا، وقبائل « اللاب » فى أوربا، وكذلك بعض جماعات أوعشائر « الإسكيمو » الأمريكية.

والرنة - كغيرها من حيوانات الرعى - تدعو رعاتها إلى الارتحال أو التجوال بها تجوالا موسميا حيث يتجهون بها مع بداية فصل الصيف القصير تجاه غابات التندرا طلبا للعلف (**) .ثم يعودون أدراجهم من جديد مع بداية فصل الشتاء على أمل أن يصيبوا من بين الجليد قليلا من الطحالب تسهم ولو بقدر يسير فى غذاء الرنة.

ولحيوان «الرنة» استخدامات مختلفة تتفاوت بين جماعة رعوية وأخرى، فهو تارة يجر زحافات الجليد، وتارة أخرى يكون مصدرا رئيسا من مصادر الغذاء بما يوفره من لبن ولحم، وتارة ثالثة يلعب جلده وشعره وعظامه دورا أساسيا فى صنع الكساء والمأوى، كل هذه الاستعمالات أو الاستخدامات وغيرها تتفاوت من حيث الكم والنوع، كما ترتبط أصلا بظروف كل جماعة راعية وحاجاتها.

وإن كان هؤلاء الرعاة قد ارتبطت حياتهم بالرنة إلا أنهم يمارسون أعمالا أخرى من أهمها الصيد - وصيد الأسماك بالذات - وعلى فترات طوال أيام السنة.

(*) نقصد بالبداوة الصحراوية .. البدو الذين يتجولون فى مناطق الصحارى الجافة تمييزا لهم عن بدو الغابات أو السهول أو السواحل أو الجليد ... إلخ .

(**) أى طلبا للغذاء من الطحالب أو الأعشاب وغيرهما من مصادر القوت اللازمة أو الضرورية لحيوان الرنة .

رابعا - رعاة الماشية الافريقيون « البقارة » :

تتمايز ظروف هؤلاء الرعاة عن ظروف كثير من الجماعات الرعوية الأخرى، ويرتكز هذا التمايز أساسا على وجود مصدر دائم للرعى نتيجة لتوافر إمكانيات البقاء والنمو، الأمر الذى يجعل التوطن ومن ثم الاستقرار ممكنا عند أو حول تلك المصادر الدائمة للرعى.

ويتمثل ذلك المصدر المشار إليه عند جنوبى الصحراء وفى منطقة الحشائش الأفريقية، ولا يخشى عليه من الزوال بفعل الجفاف أو التصحر أو غيره، بعكس المراعى الكائنة أو الموجودة فى شمال القارة الأفريقية وآسيا.

وانعكاسا لهذه الظروف الرعوية المستقرة أو شبه المستقرة، ظهرت عدة اتجاهات أساسية أو حقائق منها :

(أ) وجود نوع من الحيوان قد يكون مغايرا تماما فى صفاته وطبيعته لحيوانات الرعى التقليدية وهى الضأن والماعز والرنة، ومن أبرز هذه الحيوانات الجديدة، الماشية وعلى الأخص البقر.

(ب) ظهور كثير من المراكز المبنية للإقامة شبه الدائمة بها، لأن الهجرة بعيدا عن هذه المراكز هى هجرة مؤقتة، وتمارس خلال فترات معينة لا يلبث بعدها رعاة المواشى أن يعودوا إلى ديارهم (٢٨).

(جـ) وفرة الماء والاستقرار شبه الدائم، أوجدا فرصة « للزراعة »، وأغريا بعض الرعاة على ممارستها، وتظل احتمالات الاستغلال أو الاستثمار الزراعى الكبير والواسع قائمة وممكنة فى أى وقت كما هو الحال فى الجمهورية السودانية (٢٩).

(د) لم تكن وفرة المياه، وغزارة حشائش الرعى عوامل غُنم كلها لأنها حملت معها غرما قد يفسد كل احتمالات المنفعة، ويتمثل ذلك الغرم فى ظهور أو وجود عدد من الحشرات القاتلة أو السامة التى تكثر فى منطقة

الحشائش خصوصا فى فصل الصيف، ومن أشرس هذه الحشرات جميعا ذبابة «التسى تسى» التى تتسبب وحدها فى قتل عشرات المئات من المواشى سنويا، فضلا عن خطرها الأكيد على صحة الرعاة أنفسهم، حتى اعتبرت هذه الحشرة أحد أسباب البداوة فى منطقة تشغل مساحات كبيرة كالسودان مثلا (٣٠).

ومن هنا كانت هجرتهم الموسمية بقطعانهم من الماشية إلى باطن الصحراء أو قلبها، بعيدا عن خطر هذه الحشرات والتي كان لبعضها، وخاصة منها ذبابة «التسى تسى » على سبيل المثال، كان لها دور هام فى موت الكثير من أفراد أو أبناء العشائر أو القبائل البدوية خاصة السودانية منها.

خامسا - القبائل الرعوية الزراعية:

وهى تلك القبائل التى قلنا عنهاقبلا أنها مارست زراعة بعض المحاصيل علاوة على قيامها برعى مواشيها، ولا يهم أن يكون هدف تربية المواشى هنا هو الاستهلاك المحلى أو الاستغلال من خلال عمليات البيع «التسويق» أو المقايضة.

ولو أخذنا هنا المثال من خلال قبائل « الفولا » وغيرها من القبائل الموجودة فى شمال نيجيريا، لوجدنا أنها تعتمد أساسا على المطر سواء فى الزراعة أو الرعى، ولقد عرفت بعض هذه القبائل الاستقرار ومارست الزراعة وتربية الحيوان بينما فضل بعضها الآخر أن يبقى على حاله راعيا يتنقل سعيا وراء الماء والعشب.

هذا وتلعب رياح « الهرماتان - النيجيرية » القاسية بأتربتها وجفافها الشديد دورا لا يقل خطرا عن الدور الذى تلعبه حشرة « التسى تسى » فى حياة «رعاة الماشية» الأفريقيين، وبحيث لا تجد قبائل « الفولا » مفرا من الهجرة بمواشيها إلى شواطئ بحيرة تشاد وإلى وديان الأنهار والأماكن ذات التربة الرطبة، وعادة ما تكون مناطق الهجرة الجديدة ذات تربة ومناخ يسمحان إلى حد ما بامتداد فرص الرعى بعيدا عن خطر رياح «الهرماتان» النيجيرية تلك.

وفى غير مواسم الرياح تلك، تعيش هذه القبائل إما على رعى مواشيها، بما تدره عليها تلك الحيوانات من لبن ولحم مع استكمال ما ينقصهم أو يحتاجون إليه من مواد غذائية، عن طريق السوق، وما يتم خلاله من عمليات الشراء أو البيع أو المبادلة « المقايضة » مع الجماعات القبلية المستقرة الأخرى، وإما أن تكون هذه القبائل قد عرفت الاستقرار بشكل أو بآخر، ومارست خلاله زراعة عدد من المحاصيل، وفى هذه الحالة، - حالة الاستقرار الزراعى -، تتخذ الجماعة البدوية لنفسها بعض المبانى، ويتعاون كل أفراد الأسرة سواء فى نطاق العشيرة أو غيرها من البدنات حيث يتعاون الكل على زراعة الأرض، وحتى المرأة البدوية تشارك الرجل فى كثير من الأعمال الزراعية فيما عدا الشاق منها.

وإذا ما عجزت الأسرة عن إنجاز كل الأعمال الزراعية المطلوبة تعاونت معها باقى الأسرات « العائلات » أو البدنات، خصوصا من ذوى القربى حتى لا تفاجئهم رياح « الهرماتان » وتتركهم بلا زاد ولا مأوى ولا محصول [٣١].

★ ★ ★

المبحث الخامس:

حيوانات الترحال:

مقدمة:

حتى تكتمل الصورة عن الرعى والترحال بتأثيراتها المختلفة، نرى أنه من الأوفق أن نلقى بعض الضوء على حياة ذلك الحيوان فى تلك المجتمعات الرعوية، وخصوصا المستأنس منه، ليس فقط لما لذلك الحيوان من أهمية فى استمرار الحياة البشرية فى البوادى والصحراوات الجافة أو غير الجافة، ولكن للدور الذى يلعبه هذا الحيوان كعامل من أهم عوامل تبدى الإنسان فى هذه المناطق بشكل أو بآخر [٣٢].

وسنتعرض هنا لنوعين فقط من الحيوانات أحدهما يعيش فى الصحارى الجليدية أو القطبية والثانى يحيا فى الصحارى الجافة أو الرملية.

أولا - حيوانات الصحارى القطبية « الجليدية - التندرا » :

يلعب الحيوان الدور الأساسى فى حياة الناس « البدو » سكان هذه الصحارى نظرا لندرة الزراعة والصناعة فيها، وبحيث لا يكون الإنسان إلا واحدا من اثنين :

إما صائدا أو راعيا، والإنسان فى كلتا الحالتين ينشد الحيوان، يطلبه ليكون عونا للإنسان البدوى وفى صور متعددة هى :

إما أن يكون الحيوان للإنسان مَرْكبًا أو طعاما أو كساء أو مأوى، أو حتى مادة خام يصنع منها أدواته وأسلحته، أو يكون الحيوان للبدوى كل ذلك جميعا وفى آن واحد.

وليس غريبا أن يلعب الحيوان هذا الدور الحيوى فى حياة الإنسان البدوى لأن «الطبيعة» (*) قد حبته أو وهبته مميزات مكنته - أى الحيوان - من أن يحافظ على حياته وسط ظروف الصحارى الجليدية الصعبة بل والقاسية.

فلو أخذنا مثلا «الفرو» الذى منحته «الطبيعة» لحيوانات قطبية عدة، منها الدب والخلد والثعلب، والسنجاب، وكذلك الجلد الصلب الموجود فى عجل البحر، والدهن المتوافر فى عديد من الأسماك والحيوانات القطبية، والريش الجميل المزودة به بعض الطيور هناك. كل هذه الأسلحة التى منحت أو زودت الطبيعة - وفقا لمشيئة الله سبحانه - الحيوانات بها، حتى تحافظ على حياتها، صارت كلها - أى المقومات أو الميزات أو الأسلحة الطبيعية التى منحهاالله سبحانه لمخلوقاته من البهائم والأنعام والطير... إلخ ، لتحافظ بها تلك المخلوقات على حياتها ضد اعتداء الآخرين أو عدوانهم.

قد أصبحت تلك الميزات جميعها، مقومات حياة لكل البدو، سكان تلك الصحارى، وأصبحت أساس طعامهم وعماد مساكنهم ومصدر أدواتهم وأسلحتهم، إلى غير ذلك من وجوه الحياة المجتمعية البدوية المختلفة.

(*) نعنى بالطبيعة هنا وعبر الكتاب كله قدرة الله الخلاق العليم .

هذا ومن أهم حيوانات المنطقة القطبية ما يأتى [٣٣] :

(أ) الرنة « الكاريبو » :

ولعل حيوان « الرنة » هو سيد الحيوانات القطبية على الإطلاق، حيث يتمتع بنفس مكانة الجمل فى الصحارى الجافة، وهو حيوان أليف ويسهل ترويضه ويتمتع بحساسية كبيرة فى التغلب على الطحالب والأعشاب وله فى ذلك طريقة طريفه حيث يضرب وجه الثلج بقدميه حتى ينشق مبرزا ما تحته من عشب أو طحلب فيلتهمه أو يكشف لصاحبه عنه.

ويرى كثيرون أن الرنة - كحيوان - تجتمع فيه مميزات أربعة حيوانات هى : الفرس والبقر والضأن والماعز، أى إنه سريع قادر على حمل أثقال البدو وأمتعتهم وجر مركباتهم، علاوة على أن أنثاه حلوب لاتضن عليهم بلبن، فضلاعما فى حيوان الرنة، من لحم وعظام وشعر.

هذا ويكثر وجود حيوان الرنة فى شمال أوروبا وسيبريا وألاسكا، ويسمونه فى أمريكا « الكاريبو »، والنوع البرى أو المتوحش منه، مازال موجودا أيضا إلى جانب ما استؤنس منه، وللنوع البرى هجرات موسمية منتظمة ومنظمة، حيث يكون القطيع كله تحت ريادة أو قيادة أنثى كبيرة السن، وتظل الحال - حال الريادة والتبعية - على ما هى عليه طوال زمن أو فترة الهجرة.

(ب) الكلاب القطبيـــة :

وهى الأخرى لا تقل أهمية عن « الرنة » بالنسبة للصحارى القطبية، وخصوصا عند «الإسكيمو»، حيث تقوم الكلاب عندهم هناك فى الصحارى الجليدية، مقام الخيول فى الصحارى الجافة وتقوم بنفس أعمالها، فهى - أى الكلاب - رفيقهم أو عونهم الوحيد على التنقل خلال ليالى الشتاء الطويلة المظلمة، حيث يستخدم «الإسكيمى» عربته المصنوعة من عظام الحوت وجلد عجل البحر والتى يجرها كلب أو أكثر، فى قضاء حوائجه وخصوصا فى صيد الدب الأبيض

الذى يعتبر هو الآخر مصدرا أساسيا للحياة عند الإسكيمو، فمنه الغذاء والكساء ومنه كذلك المأوى، علاوة على الاتجار بفروه.

والكلاب القطبية بينها وبين الدب الأبيض عداوة تقليدية أو غريزية، فلا تكِلُ تلك الكلاب أبدا عن مطاردة ذلك الدب والفتك به، ويستغل «الإسكيمى» هذاالعداء لصالحه فيطلق كلابه لتأتيه دوما بصيده الثمين.

والكلاب القطبية كذلك شديدة الإخلاص بطبعها خصوصا مع نساء الإسكيمو لحنوهن عليها، وهذه الكلاب تسير فى مجموعات تحت إمرة أضخمها جثة، ويكون ذلك الكلب «القائد» عادة خبيرا بمسالك ودروب الصحراء الجليدية، ويتحسس هذاالقائد طريقه بأن يضع فمه على سطح الأرض تقريبا ويعدو بسرعة فائقة تتبعه بقية الكلاب أو القطيع وهم ينبحون.

والكلاب القطبية وخصوصا المهجَّنة منها بالذئاب، والتى تقوم بجر الزلاجات تحظى بحب وإعزاز البدو، ولها كذلك مكانة خاصة لدى «الإسكيمو» بالذات حيث تعتبر الكلاب القطبية عندهم فى منزلة بقية أفراد الأسرة فيطعمونها من طعامهم، ويلبسونها نعالا خاصة من الجلد لتقيهم أثار البرد القارس، كما تحميهم تلك النعال من آثار احتكاك أرجلهم بوجه الجليد الصلب، كما يقوم الإسكيمو بتربية صغار الكلاب مع أطفالهم ويولونهم نفس الرعاية والحنان (٣٤).

(ج) الدب الأبيض:

ويعيش ذلك الدب الأبيض فى البر والبحر معا، ويتغذى على الطيور والثعالب والرنة، إن كان الدب الأبيض على البر، ويأكل السمك وعجل البحر إن كان يعيش فى البحر، وهو من أكثر حيوانات الصحراء القطبية عَدْوًا، ولا يحاكيه فى هذا السباق الطويل والشاق، غير « الرنة » والكلب القطبى.

ولقد أوضحنا قبلا قيمة الدب القطبى ومكانته عند الإسكيمو كغذاء وكساء ومأوى، وشرحنا كذلك العداوة التقليدية بينه وبين الكلاب القطبية، إلا أن الدب

الأبيض مغرم بطبعه (*) بصيد عجل البحر، وله في ذلك طريقة غريبة لكنها تتميز كذلك بالحيلة وسرعة الحركة، فعندما يشعر الدب أن عجل البحر نائم أو مسترخ على الشاطئ أو بالقرب منه، يسعى إليه متسللا بغير حركة ولا حس، ثم ما يلبث أن يأخذ الدب الأبيض عجل البحر على غرة تشل تفكيره وحركته، ويوقعه فريسة سهلة يصبح عجل البحر بعدها أثرا بعد عين.. (٣٥).

ثانيا - حيوانات الصحارى الحارة أو الجافة:

الحيوان هنا أيضا، له نفس الدور الهام الذى كان لسلفه فى منطقة الصحارى القطبية، وسوف نتعرض فى عجالة لبعض الحيوانات السائدة فى مناطق الصحارى الرملية، وعلى سبيل المثال لا الحصر ونذكر منها :

(أ) اللامـــا:

ويماثل « اللاما » الجمل من حيث الطباع والشكل إلا أنه أصغر منه حجما، وإن كان لا يقل عنه صبرا أو جلدا أو قدرة على تحمل الجوع والعطش فضلا عن صبر « اللاما » الشديد على احتمال المكاره والمشاق والصعاب التى تغلف البيئة الصحراوية فى منطقة الصحارى الجافة أو الحارة وتحيط بها، هذا ويستخدم « اللاما » للركوب وحمل الأمتعة (**).

ومن « اللاما » ما هو أليف ومنه ما هو وحشى أو برِّى، والوحشى منه أكثر نشاطا وأخف حركة من « اللاما » الأليف، وكلاهما يمتاز بقدرة نادرة على السير وسط الأماكن الصخرية الوعرة دون أن يسقط أو يتألم، وان كان كل منهما - الوحشى والأليف - يخاف الإنسان ويهرب منه بطريقته وخبرته الفطرية أو الموروثة، وخاصة إذا ما كان هذا الإنسان بدويا ومن الهنود الحمر بالذات المشهورين بقسوتهم، « فاللاما » البرى أو المتوحش يطلق ساقيه للريح بمجرد إحساسه

(*) أو بغريزته أو بفطرته التى فطره الله سبحانه وتعالى عليها .

(**) حيوان اللاما موطنه الأصلى المنطقة الصحراوية من بيرو وهى إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية.

بالإنسان، ولا يكف عن العدو أو الجرى إلا بعد أن يتأكد تماما أنه قد صار بمنأى عن قوس الهندى وسهمه، أما ا« اللاما » الأليف فهو برغم صبره وجلده، كثيرا ما يحتج على صاحبه وخصوصا إذا ما استشعر ظلما نتيجة جوع أو ثقل زاد عن الحد، ووسيلته « اللاما » فى هذا الاحتجاج، معروفة، وهى أن يسقط أو يخر على الأرض بحمله، وعندها لن تجبره سياط الهندى القاسية على النهوض، لأنه لا ينهض أبدا إلا إذا زالت معالم ذلك الظلم أو أكل أو خفف من حمله.. !!

هذا والهنود الحمر مغرمون بتزيين « اللاما » وخصوصا رأسه وعنقه، بالألوان الزاهية، ويضعون الأجراس حول رقبته ويسيرونه على شكل طوابير طويلة تكون بما تصدره من أصوات وأنغام موسيقية، إلى جانب وظيفتها الاقتصادية عند الهنود الحمر، مصدرا للطرب والترويح معًا.

هذا ويستخدم شعر « اللاما » - وهو من أحسن أنواع الصوف - خصوصا ما غطى منه منطقة الظهر، يستخدمونه فى صنع الأنسجة التى يحتاجها الهنود الحمر لإعداد أو لصنع ملابسهم وخيامهم وحبالهم وما إليها [٣٦].

ولا تُعرف استخدامات أخرى لحيوان « اللاما » وخصوصا ماتعلق منها بلحمه ولبن أنثاه، ويكاد يكون من المؤكد تماما، أن لبن أنثى « اللاما » لا يستعمل كغذاء عند الهنود الحمر، ولا حتى بالنسبة للأطفال، ذلك لأن الطبيعة قد زودت منطقة الهنود الحمر، وخصوصا ما كان يوجد منها فى أحضان جبال « الأندس »، قد زوَّدتها - أى الطبيعة - (*). بشجرة تدعى «شجرة اللبن»، حيث تمد تلك الشجرة البدو من الهنود الحمر بلبن نباتى يفوق اللبن الحيوانى كثيرا سواء من حيث المذاق أو الدسامة أو القيمة الغذائية..!!

وحتى تجود هذه الشجرة بلبنها يلجأ البدوى من الهنود الحمر، إلى استعمال بعض الآلات الحادة كالفأس أو البلطة فى إحداث ثقب للحائها السميك وعندئذ

(*) قدرة الله وبديع صنعه فى الآفاق وفى الأنفس ، هى التى يسرت لمخلوقات الله كل ما يهيىء لها أداء أدوارها فى الحياة ، وفقا لما خُلقت له .

يسيل أو ينهمر العصير الأبيض فيملأ البدوى إناءه ويعود إلى بيته أو عائلته، بعد أن يكون قد شرب منه كفايته وهو مازال طازجا، وقد تفعل أسرته مثله فتشرب نصيبها من اللبن فى الحال، وتتفنن الزوجة لدى الهنود الحمر فى استغلال أو استثمار ذلك اللبن بأن تصنع منه جبنا أو تخلطه بأنواع أخرى من الطعام أو كما يحلو لها.

(ب) الخيــــل:

والخيول منتشرة فى مناطق كثيرة من بوادى العالم، خصوصا الصحراوية منها، والخيول وإن كان لها دورها المعروف على امتداد العصور، إلا أن الخيل فى كل الأحوال تعاون البدوى فى أى مكان توجد فيه، على تحمل أعباء الحياة البدوية ومشقاتها حيث تشاركه أسفاره، تحمله أو تحمل عنه متاعه، والخيول تقف إلى جوار البدوى فى كل الظروف والأحوال سواء كان ذلك البدوى محاربا، أو قاضيا لحاجة أو حتى مروحا عن نفسه بعد عناء وكد يوم طويل وشاق.

والخيل إما برية أو مستأنسة، والبرية منها موجودة على الأخص فى صحارى أمريكا الشمالية، والنوع المستأنس من الخيول موجود كذلك فى أماكن بدوية كثيرة منها منطقة الصحراوات العربية التى يمتاز خيلها بالأصالة فضلا عن الخفة وسرعة الحركة والوفاء النادر (*).

(ج) الجمل ذو السنامين « البخاتى »:

ويعرفه البدو التتاريون باسم « القرعوس » وبعضه وحشى، يفر بمجرد رؤيته لأى بدوى، والبعض الآخر - وهو الغالب - أمكن استئناسه والانتفاع به بشتى الطرق.

ولبدو «التتار» استعمالات كثيرة للجمل ذى السنامين، فالبدوى «التترى» يشرب لبن أنثى الجمل ذى السنامين، ويأكل لحمه ويصنع ملابسه من وبره، ويُعد من جلده خيامه وأحذيته وسروج خيله، فضلا عما يؤديه الجمل «للتترى» البدوى ولغيره من

(*) المقصود بتعبير « برّية » هنا ، أنها - أى الخيل - حيوان متوحش لم يالف الإنسان أو يالفه الإنسان بعد.

البدو سكان الصحارى الرملية أو الجافة من معاونات أو خدمات لا تحصى ولا تعد وتصبح بغيرها حياة البداوة أكثر صعوبة ومشقة.. !!

ومعروف ما للجمل ذى السنامين - كشقيقه الجمل ذى السنام الواحد فى الصحراوات العربية - من قدرة على تحمل الجوع والعطش، ويرجع سبب تحمل الجمل للجوع، إلى أنه يتغذى أثناء فترات الترحال الطويلة والشاقة والمجدبة، على كمية الدهون المخزونة داخل سناميه.

أما صبره على العطش فيعود إلى وجود أكياس صغيرة على حافة المعدة تسمح باختزان كميات إضافية من الماء، وفى حالات العطش تفرغ هذه الأكياس ما بها من ماء بالمعدة ذاتيا أو طبيعيا وبالتدريج أثناء «استدراره» الدهن من السنامين.

ولكن ليس معنى هذا أن صبر الجمل، سواء كان بسنام واحد أو بسنامين، على الجوع والعطش هو صبر بغير حدود، لأن المخزون من الغذاء فى سناميه، ومن الماء فى أكياسه المائية حول المعدة، ولأن ذلك المخزون من الماء والغذاء يكاد يكفيه لوقت محدد أو معين، فإذا ما طالت فترة الجوع والعطش ونفد المخزون من الماء والدهن أصاب الجمل، هزال شديد وضمر سناماه ونفق - أى مات - على الفور.

(د) الجمل ذو السنام الواحد:

ويتّمتع بكل مميزات الجمل ذى السنامين، وغالبا ما يوجد الجمل ذو السنام الواحد فى منطقة البوادى العربية على وجه التحديد أو الخصوص. ويعتبر الجمل سيد هذه الصحراوات وسفينتها أو فلكها (*) المأمون، وبغيره تصبح حياة البدوى العربى فى الصحراء مستحيلة، أو هى المستحيل نفسه.

ولا يقتصر دور الجمل فى البداوة العربية ولا فى غيرها من الصحراوات الجافة، على قيمته الاقتصادية فقط، بل يمتد هذا التأثير حتى يشمل النظام أو التنظيم

(*) يُعرف الجمل بأنه « سفينة الصحراء ».

الاجتماعى كله، وكذلك دوره الذى لا ينكر فى تحديد الكثير من المكانات والأدوار عند كثير من البدو الصحراويين.

ويكفى مثلا على تلك الوضعية المتميزة للجمل، أن رعاة الجمل «الأبالة» أو «الجمالة»، يعتبرون أنفسهم بحق ويؤيدهم فى دعواهم كثير من الباحثين والعلماء أنهم هم «البدو» الحقيقيون، وأن كل ما عداهم «أشباه بدو» أو حتى لا يعدون من البدو فى شىء على الإطلاق.

وأكثر من هذا، فإن جمهرة العلماء والباحثين يعتبرون الجمل أحد أسباب البداوة خصوصا العربية منها، وأداة تأصلها واستمرارها .

ولو عدنا إلى طبيعة الجمل (*)، لوجدناه إلى جانب صبره يتمتع بذكاء طبيعى وحسن تصرف غريزى فى المواقف الحرجة، ونظن أنه ليس هناك أخطر على بدو الصحراء من أن تهاجمهم رياح ساخنة شرسة تحمل رمالا خانقة وسامة، - والبدو يتصرفون إزاء هذه المحنة من خلال إدراكهم أو بالتجربة - فينزلون أحمال إبلهم ومواشيهم، ويلفون رءوسهم بعباءاتهم، ويضعون وجوههم على الأرض ولا يرفعونها أبدا حتى تمر العاصفة.. هذا ما يفعله البدو بحكم العقل والخبرة فى لحظة خطر، لكن لو تتبعنا تصرف الجمل «الغريزى» فى نفس الموقف لوجدناه يفعل نفس الشىء تقريبا، حيث يبرك الجمل على ركبتيه الأماميتين ويضع جبهته على الرمال لتحمى عينيه وخياشيمه، حتى تمر أو تنتهى العاصفة دون أن يتعرض الجمل لأى أذى..!!

وغير قدرة الجمال على حماية أنفسها من خطر رياح سامة كرياح «الخماسين» فى صحراء سيناء المصرية مثلا، فإن لها قدرة خارقة على تحديد مواقع المياه الصالحة للشرب على أبعاد أو مسافات كبيرة، فإذا ما كانت الجمال عطشى وتريد الارتواء صارت تلوى رقبتها وتمدها فى كل اتجاه وخياشيمها مفتوحة تستقبل الهواء بنهم يُمكِّنها من أن تشم رائحة الماء وتتجه إلى مصدر المياه مباشرة وقلما تخطىء الجمال مسعاها.. !!

(*) نقصد بطبيعة الجمال.. نقصد بتلك الطبيعة غريزته التى خلقه الله عليها، أو فطرته التى فطره الله سبحانه وتعالى عليها.

وعلاوة على هذا كله، فإن للجمل معرفة خاصة بالطرق التى سلكها قبل ذلك فى البيداء مهما كانت موحشة، وخاصة ما انتهى منها إلى واحة أو بئر أو عين أو ينبوع ماء.

وخلاصة القول أن للجمل فى حياة البداوة العربية - وغير العربية (*) - مكانة ودورا خاصين لا يرتبطان فقط بالنواحى الاقتصادية، بل يمتد تأثيرهما حتى يشمل أو يعم معظم أوجه الحياة الإجتماعية للمجتمع البدوى، ويكفى دليلا على ذلك، أن الجمل كان إلى عهد قريب - ومازال فى مناطق صحراوية كثيرة - هو العملة المقبولة سواء عند البيع أو المقايضة، والإبل هى المقبولة كذلك عند دفع الدِّية أو عند قبض المهر أو حتى عند تقديم قربان.. إلخ.

(هـ) اليـــــاك:

وحيوان «الياك» موجود أو يعيش فى صحراء «التبت»، ويشبه «الياك» فى شكله العام جسد «الثور» (**) وحجمه، وإن كانت قوائمه قصيرة، ويمتاز بشعره الغزير المتجعد ذى الألوان البهية وخصوصا عند منطقة ذيله الطويل الممتد إلى الأرض، و«للياك» قرنان كقرنى «الثور»، وله كذلك سنام كسنام «الجمل» وإن كان القرنان مثبتان بين كتفيه.

«ولليـاك» عند البدو «التبتيين» منزلة مقدسة إلى حد ما، ولأنثاه لبن غزير دسم، يصنع منه سمن طيب المذاق، ويستخدم شعره فى صنع الأردية -جمع رداء-، والخيام والحبال.. إلخ.

«والتبتيون» برغم تبركهم «بالياك» إلا أنهم يأكلون لحمه ويصنِّعون معظم فضلاته تقريبا، فهم على سبيل المثال يصنعون من ذيله ذى الشعر الغرير أو الكثيف

(*) المقصود كل البوادى الرملية الجافة والحارة فى كل مكان فى العالم ، لأن الإبل لا تختلف كثيرا بتعدد الصحراوات من حيث الطبع والمهارة ، وإن كانت ألوانها وصحتها تتأثر باختلاف طبيعة البيئات الصحراوية التى تعيش فيها .

(**) الثور هو الذكر البالغ من حيوان البقر .

الجميل أشكالا مختلفة للزينة، ويتخذون الأمشاط من قرنيه والأوتار وبعض الخيوط من أمعائه.. إلخ.

و«الياك» يستعمل أيضا للركوب، لأنه يتمتع بقدرة كبيرة على السير فى طرق «التبت» الصعبة ومرتفعاتها الوعرة بغير أن تزل قدمه أو يكل.

ولأنثى «الياك» طباع غريبة وفريدة أيضا، ومن تلك الطباع حبها الشديد لصغارها، فلو حدث مثلا أن غاب هذا الصغير لسبب ما، تكف الأنثى مباشرة عن إدرار اللبن تماما، ولا يمكن أن تجود بلبنها إلا بالحيلة أو بعودة الوليد.

ومن الحيل التى تلجأ إليها البدوية «التبتية» إذا ما تم ذبح الصغير وكفت أمه عن إدرار اللبن، من هذه الحيل أن تعمد المرأة البدوية إلى تقطيع قوائم «الياك» المذبوح وتلقيها أمام الأم التى تسرع إلى القوائم ملهوفة تلحسها فتنتهز البدوية الفرصة وتحلب أنثى «الياك» لأن لبنها يكون سهل المنال فى لحظة الإنفعال العاطفى التى تعيشها أنثى «الياك» حزنا أو لهفة على صغيرها.

و«الياك» - أنثى كان أو ذكرا - برغم هذا كله من أطوع الحيوانات لصاحبها وأكثرها إخلاصا وخضوعا له.

هذا ويوجد «الياك» أيضا فى «بادخشان» وهى إحدى المحافظات أو الأقاليم الشمالية لأفغانستان، حيث يرعى البدو هناك «الياك» وينتفعون بصوفه وجلده ولحمه ولبنه الذى يصنع منه الجبن والزبد، وإن كانوا «أى بدو بادخشان» يرعون إلى جانب «الياك» قطعانا كبيرة من الغنم والبقر والماعز والأمهار - جمع مهر (*) - والبخاتى (٣٨) (**).

★ ★ ★

(*) المهر هو ولد الفرس، والأنثى مُهرة، والجمع منها أمهار أو مُهر، «من القاموس».

(**) حيوان « البخاتى » هو الجمل ذو السنامين كما هو معروف عند البداوة العربية .

المبحث السادس:

خصائص الترحال وتأثيراته:

ما دمنا قد تحدثنا عن طبيعة الترحال ومداه، فى ظل نظام الرعى المتنقل، يحسن أن نلقى بعض الضوء على خصائص هذا الارتحال وتأثيراته المختلفة على الحياة الاجتماعية لجماعات البدو الرحل عموما، هذا ويمكننا أن نحدد خصائص ذلك الترحال وتأثيراته على النحو التالى [٣٩].

١- خاصية البساطة:

تحتم حياة التنقل أو الترحال الدائم أن تكون الجماعة البدوية خفيفة الحركة حتى تستطيع أن تواجه كافة الظروف الصعبة والمتغيرة التى تقابلها، وخفة الحركة هذه تستدعى هى الأخرى أن تكون الجماعة البدوية بسيطة فى مسكنها وملبسها ومتاعها ومعداتها، لأن غير ذلك يعد ترفا لا داعى له فضلا عن عدم انسجامه أو اتساقه مع الطبيعة البدوية التى تميل إلى الخفة فى الحركة والبساطة فى الشكل والمضمون.

٢- خاصية عدم الاستقرار:

ولعل هذه الخاصية شىء فى طبيعة الترحال نفسه، وينسحب ذلك بدوره على كل من البدوى والطبيعة، فالبدوى الراعى صار لا يطيق العيش فى مكان واحد ثابت أو مستقر لفترات طويلة، وأصبح التجوال - كمضمون - فى دمه، وليس معنى هذا أن يهجر أو يترك البدوى موردا خصبا للماء والعشب، ليهيم على وجهه حبا فى التجوال، وإنما البدوى يتشوق بطبعه دوما إلى معشوقيه.. الماء والكلأ، والبدوى وإن غلف عشقه بمجموعة من القيم، منها حبه للحرية، واحتقاره للعمل اليدوى، وثقته بنفسه وبعصبيته، وعدم تقديره لقيمة الوقت وللادخار، واحترامه للفروسية وللقوة حتى فى مواقف الغزو والسلب والنهب، إلا أنه أيضا لا يفارق دياره بسهولة، وإنما يتركها بمشقة بالغة - ولو نفسية على الأقل - ويظل يبكيها دوما بناسها الذين عاشرهم ثم فارقهم.

ومن هنا كان تقديس البدوى للماضى، واحترامه لكبار السن، وتكريمه للذكريات ومناجاته لأطلاله (*)، ولما أنجزه الآباء كلما واتته الفرصة، ولكن البدوى برغم حنينه للماضى وتمسكه بتراث الآباء والأجداد، لا يكف أبدا عن التجوال بحثا عن مصادر أرحب للحياة والرزق، والأكثر من هذا أن صار البدوى العربى - مثلا - يرى أن العز فى التنقل (**) !!.

كان ذلك عن حال البدوى، أما عن حال الطبيعة فالتطرف سمتها، إن أعطت ظلمت وإن منعت قتلت، ولقد أوضحنا ذلك فى غير هذا المكان (٤٠).

ومن أمثلة ذلك التطرف، التفاوت الشديد أو البيِّن للمدى الحرارى، سواء كان ذلك الاختلاف بين الليل والنهار، أو بين الصيف والشتاء، ولو أخذنا المطر كمثال آخر لوجدنا أن الصحراء قد تظل بلا مطر لعشرات السنين، وقد تمطر سماؤها فجأة، وتنهمر سيولها وثلوجها لتشوه حتى وجه الصحراء القاحلة، والبدوى دوما مظلوم، فقد ضيعته قلة الأمطار وكثرتها معا (٤١).

والنتيجة المنطقية لذلك التطرف فى المنح أو فى المنع هى صدام ليس فقط بين البدو والطبيعة يروح ضحيته مئات من الحيوانات التى تنفق والمعدات التى تضيع، وإنما يمتد ذلك الصدام ليصبح صراعا بين جماعات البدو ذاتها من أجل البقاء أو الحياة.

ومن هنا نشأت الغزوات العشائرية، والحروب القبلية (***). عسى أن يعوض الرجال الجائعون بعض ما أفقدتهم إياه الطبيعة (٤٢).

وقد تأخذ نقمة البدو اتجاها آخر حيث تقطن أو تعيش جماعات المستقرين فى أطراف البوادى أو الصحارى أو فى واحاتها، أو تجاه من ساقهم حظهم العاثر

(*) الأطلال هى الآثار المادية الباقية منذ أيام الأباء والاجداد الأقدمين .

(**) هذه الخصائص تنطبق أكثر على البداوة الصحراوية ، وخاصة البداوة العربية منها بالذات .

(***) هناك أسباب أخرى كثيرة للحروب البدوية ذكرناها ضمن مؤلفنا عن « البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية البدوية» ، - النظم والأنساق - المشار إليه قبلا .

فى رحلة تجارة أو صيد، أو حتى عند القيام بزيارة الأهل والأحباب عبر مسالك ودروب الصحراء القاحلة الموحشة.

٣ - خاصية الحذر:

والجماعة البدوية فى تسلحها بالحذر من الناس والطبيعة على حد سواء، لم تفعل ذلك جزافا، وإنما جاء هذا السلوك، نتيجة لخبرات كثيرة وغير سارة فى معظمها، وبالنسبة للبدوى الصحراوى بالذات، لأن الطبيعة عندما تغدر ويصبح لزاما على الجماعة البدوية أن ترحل أو تفر - بتعبير أدق - هربا بحياة مواشيها وأبنائها من ذلك الخطر الداهم، إذن الطبيعة فى غدرها أمر استوجب الحذر.

والمرعى النامى - كمثال آخر - عندما يضمحل أو ينضب لسبب أو لآخر، لتجد الجماعة البدوية نفسها فى موقف يستدعى الانتقال أو الترحال من مكان لآخر، هذا الموقف شىء يستوجب بالضرورة قلق البدوى الصحراوى وحذره فى آن واحد.

والغارات العشائرية والقبلية - كمثال جديد - غزوا أو نهبا سواء كانت ميادينها على قارعة الطريق، أو ضمن دروب القبيلة ومسارحها لسبب أو لآخر، أمر يستنفر حمية البدو وحذرهم معا حتى يدافعوا عن النفس والعرض والمال والولد [٤٣].

٤ - خاصية التجمع القبلى أو العشائرى:

مادامت الطبيعة غير مستقرة أو غير مأمونة، ومادامت سبل المعيشة غير ميسرة أو غير موجودة أصلا، فلا أقل من أن تتوحد الجماعات البدوية فى تجمع قبلى تشكل العائلة أو الأسرة أصغر وحداته، ثم يمتد ذلك التجمع أو التنظيم حتى يضم العشيرة والقبيلة الأم، وربما ضم أو وحَّد معها عددا من القبائل أو العشائر الأخرى بفعل روابط وعصبيات معينة، منها روابط الدم والمصاهرة، أو روابط الأحلاف والجوار وما إليها [٤٤].

ويمتاز هذا التجمع البدوى بنظام اجتماعى جماعى ومبسط تتحدد خلاله المكانات والأدوار على الأسس التى شرحناها ضمن مؤلفنا عن «البنية الاجتماعية

للمجتمعات العشائرية البدوية »، والتى يبرز من خلالها سيادة الرجل وتبعية المرأة - من حيث المكانة والدور - فى غالبية الأحوال (٤٥).

وتبرز سيادة الرجل وتبعية المرأة، فى النظام القبلى العشائرى من خلال كل وجوه الحياة البدوية أو العشائرية وأنشطتها تقريبا، فلو أخذنا مثلا تقسيم العمل بين الرجل والمرأة، لوجدنا أن الرجل يستأثر بالأعمال الممتازة أو الشرفية، كأعمال الغزو وتمثيل الأسرة أو الجماعة البدوية لدى غيرها من الأسرات والجماعات والعشائر، فضلا عن التنظيمات البدوية أو المجتمعية المختلفة، وكذلك كل العمليات أو الأعمال الإشرافية التى لا تحتم على الرجل أن يمارس عملا فعليا، بينما تقوم المرأة إلى جانب تدبير شئون أسرتها وتصريف أمورها المنزلية، برعى الحيوانات ورعايتها، علاوة على صنع ما تحتاجه الأسرة البدوية من أغطية وخيام، كما أنها تقوم بزراعة بعض النباتات حول مضارب الأسرة، ولا يُعينها فى كل ذلك أو عليه، إلا الصغار، والإناث منهم بالذات (٤٦).

ولو انتقلنا إلى الملكية داخل التنظيم القبلى، لوجدنا تلك الملكية كعملة ذات وجهين، الأول منهما: جماعى ويتجلى ذلك فى المراعى والآبار والواحات، هذه كلها ملكية عامة للعشيرة أو القبيلة، وتمارس كل جماعة فوقها حق الاستغلال فقط، أما الوجه الآخر للملكية، فيتمثل فى الملكية الفردية، فمن حق الفرد البدوى والأسرة البدوية أن تكون لها حيواناتها ومضاربها ومقتنياتها الخاصة بها، وبحيث يكون ذلك كله عند الضرورة فى خدمة القبيلة كتنظيم اجتماعى عام يهتم بالمصلحة العامة أولا وأخيرا (٤٧).

ويأخذ هذا التجمع القبلى الذى قلنا عنه أنه يضم كل الوحدات البدوية المتعددة والتى أوضحناها فى غير هذا المكان (٤٨). يأخذ ذلك التجمع مظهرين :

(أ) الأول منهما مظهر مادى: وبحيث تتجمع أو تتوحد الجماعة العشائرية كلها فى مواجهة الظروف الصعبة والقاهرة التى تكتنفها حبا فى البقاء، فيعمل كل أفرادها معا ويحاربون كذلك معا، إن غنما وإن غرما... إلخ (٤٩).

(ب) أما المظهر الثانى: فهو مظهر أو جانب معنوى، وفيه تتوحد كل قيم الجماعات البدوية وعاداتها وتقاليدها وأعرافها فى تنظيم اجتماعى معين، يفتديه البدوى بكل شىء ولا يقبل بسهولة أى خروج عنه، مع الاستعداد التام لتقبل نتائج ذلك الالتحام القبلى غنما وغرما.

ولعل فى ظاهرة «الثأر» وما يكتنفها من قواعد ونماذج سلوك، ما يوضح لنا طبيعة وأبعاد الدور الذى تؤديه الجماعة البدوية فى طلب الثأر أو دفعه [٥٠].

٥ - خاصية الاستجابة البطيئة للتغيرات الحضارية:

يكاد نمط الحياة البدوية أن يكون هو النمط الوحيد الذى ظل كما هو عليه بغير تحولات كبيرة تذكر منذ آلاف السنين حتى اليوم، ويرجع ذلك الجمود الذى أصاب الحياة الاجتماعية البدوية لارتباط هذه الحياة البدوية بالظروف الطبيعية أو البيئية بدرجة كبيرة.

وكما هو معروف فإن العوامل الجغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية تلعب دورا كبيرا فى تحديد احتياجات البدو وإمكانياتهم المتاحة لإشباعها، كما تحدد أيضا هذه الظروف متضامنة مع عوامل أخرى، مكانات الإنسان والجماعة البدوية وأدوارهما [٥١].

المهم أن احتياجات البدو البسيطة أو البدائية وإمكانياتهم المحدودة والظروف الطبيعية المحيطة بهم، حدَّت من تطلعاتهم وجعلت آفاقهم مرتبطة - إلى حد كبير - بعالمهم المحدود وتدور حوله، وأحاطت بهذا العالم المغلق قيم وعادات وأعراف وتقاليد وموروثات شعبية قوَّت من قبضة ذلك العالم المغلق، وأحاطته بسياج سحرى متين يصعب الخروج منه أو الدخول فيه.

لذلك كله كانت استجابات البدو لأية تغيرات حضارية أو مدنية تتسم بالبطء والحذر الشديدين، وبحيث كانت الريبة أو الشك، هما السمة الغالبة لأى علاقة ما قد تنشأ بين البدوى وبين كل جديد أو حديث يقتحم عليه حياته (٥٢).

وإلى اللقاء بإذن الله تعالى فى الكتاب الثانى :

« البنية الاجتماعية للمجتمعات البدوية العشائرية »

« الأنساق والنظم »

★ ★ ★

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٦) للاستزادة أنظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٨) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٧ .

(١٠) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق ص ص ٣٢٦ - ٣٤٢ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(١٢) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - ط ١ - مصدر سابق ص ص ١٧٠ - ١٧٣ .

(١٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(١٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ١٧٢ .

(١٧) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع - مصدر سابق ، ص ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(١٨) دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(١٩) المصدر السابق ص ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢٠) دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع - المصدر السابق ، ص ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢١) مقدمة ابن خلدون - مصدر سابق - ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢٢) للاستزادة انظر : الدكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مرجع سابق - ص ص ١٩ -٥٤ .

(٢٣) مقدمة ابن خلدون مصدر سابق ص ١٠٨ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ص ١١٢ - ١٢٠ .

(٢٥) انظر : دكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مصدر سابق - ص ١٤٠ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٢٧) للاستزادة انظر : دكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - المصدر السابق ص ص ١٣٨-١٤٣.

(٢٨) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق - ص ص ٣٣٦ .

(٢٩) انظر : دكتور صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية ، تطبيقات ميدانية - مرجع سابق - الفصل الخاص بالجمهورية السودانية .

(٣٠) انظر : دكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مصدر سابق - الجزء الخاص بأسباب البداوة السودانية ص ص ١٤٨ - ١٥٧ .

(٣١) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٣٢) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٣٣٨ وما بعدها.

(٣٣) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣٤) دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق - ص ٣٤٠ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣٦) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ص ٣١٨ ، ص٣٤٢.

(٣٧) انظر : دكتور صلاح الفوال - البداوة العربية والتنمية - مرجع سابق ، ص ٥١ ، ١٣٩ وما بعدهما .

(٣٨) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مصدر سابق ص ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٣٩) انظر : دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - المصدر السابق ص ٣٤٧ ومابعدها.

(٤٠) دكتور صلاح الفوال - تنمية المجتمعات الصحراوية - أسس نظرية - مرجع سابق - ص ص، ٢١ - ٥٤ .

(٤١) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى ، البنيان الاجتماعى للمجتمعات العشائرية، دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠٠ ، الفصل الأول من الباب الأول .

(٤٢) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدرسابق ص ص ١٧٢ -١٧٤ .

(٤٣) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدرسابق ص ١٧٤ .

(٤٤) المرجع السابق ، ص ص ١٧٤ - ١٧٦ .

(٤٥) المصدر السابق ، ص ١٧٥

(٤٦) المصدر السابق ، ص ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤٧) انظر مؤلفنا عن: البنية الاجتماعية للمجتمعات العشائرية النظم والأنساق - دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠١ .

(٤٨) انظر : دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدرسابق ص ١٧٥ .

(٤٩) المصدر السابق، ص ١٧٥ .

(٥٠) دكتور صلاح الفوال - البناء الاجتماعى دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٣، ص ص ٢٨١ -٢٩٣.

(٥١) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع البدوى - مصدرسابق ص ١٧٦ .

(٥٢) المصدر السابق ، ص ص ١٧٢ - ١٧٦ .

★ ★ ★

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الرابع